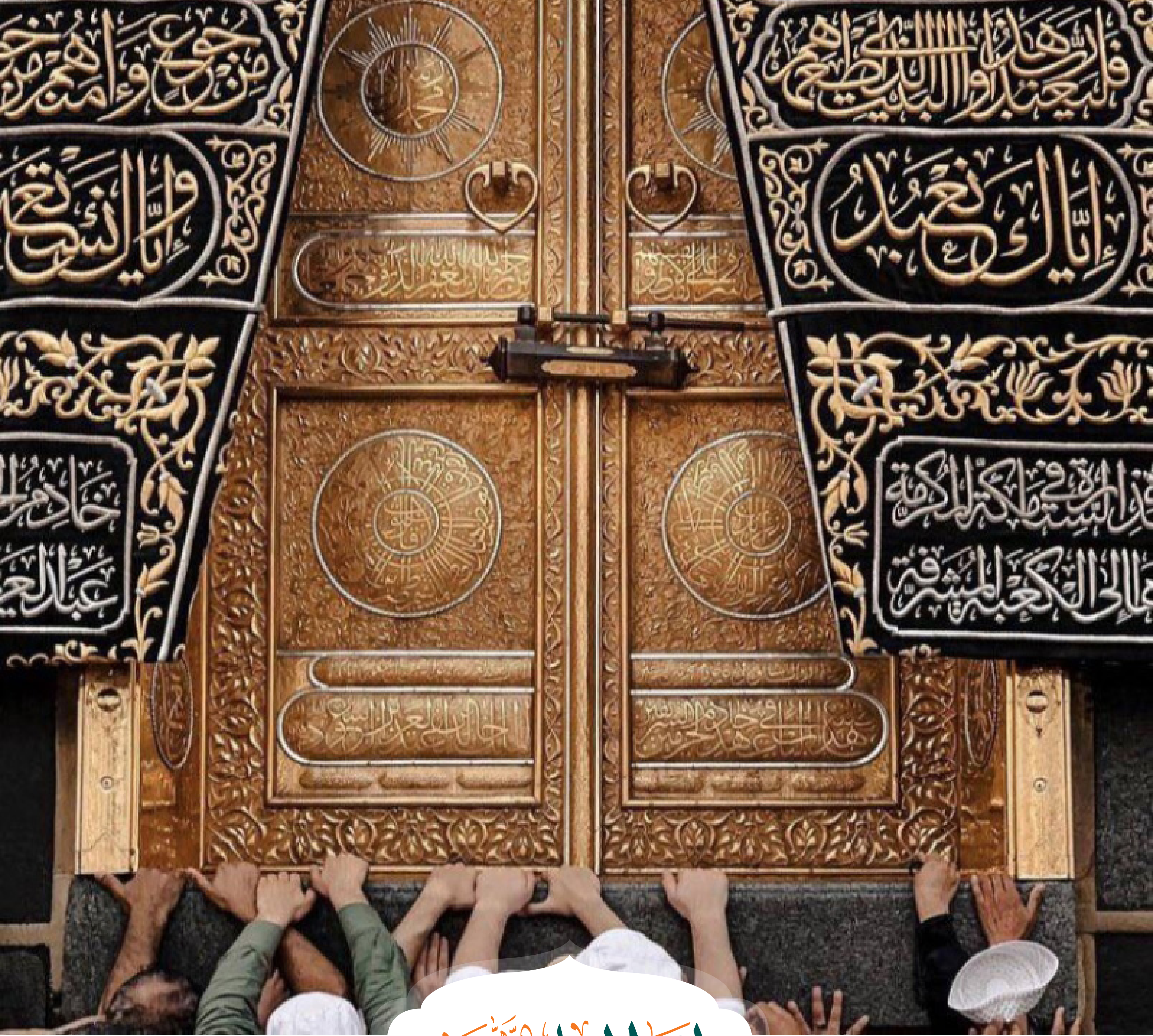


أنصار النبي ﷺ

السنة الثانية
العدد ١٤

يوليو ٢٠٢٣
ذو الحجة ١٤٤٤

رئيس الهيئة
د. محمد الصغير

رئيس التحرير
محمد إلهامي

فضل الحج على الأمة

محمد إلهامي

الحج وصناعة الرأي حول مفهوم الأمة

د. أحمد موفق زيدان

أُمَّـةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ

د. عبدالحي يوسف

لبَّـيك اللـهـم لبيك

الإمام الشهيد حسن البنا

قصص بعض مسلمي الغرب في الحج

د. محمد موسى الشريف

وغيرها من المقالات...

مجلة أنصار النبي ﷺ
تصدر عن الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ



الهيئة العالمية لنصرة نبي الاسلام
International Organization to support the Prophet of Islam

أهداف الهيئة

تضع الهيئة هدفها الرئيسي على هذا النحو:

«أن يكون جناب النبي ﷺ مصوناً محترماً، وأن تكون الإساءة إليه مجرمة قانوناً في سائر أنحاء العالم» وهو الهدف الكبير الذي يحتاج إلى عمل ضخم ودؤوب على كافة المستويات.

وقبل الوصول إليه لا بد من إنجاز مراحل مهمة في التعريف بالنبي ﷺ، كذلك لا بد من إنجاز مراحل مهمة في حشد الجهود مع المسلمين والعقلاء من غير المسلمين لتجريم الإساءة إلى النبي ﷺ قانونياً في البلدان المختلفة، وهو الأمر الذي يتطلب خبرات متنوعة عالية المستوى.

السياسة العامة لعمل الهيئة

إن قضية نصرة النبي ﷺ قضية كبيرة لا يمكن أن تنهض بها جهة واحدة مهما بلغت من القدرات والإمكانيات، وكذلك فإن «الهيئة العالمية لنصرة النبي ﷺ» اختطّت لنفسها سياسة عامة تقوم على تفعيل الطاقات الإسلامية واستثمارها والتنسيق بينها، بحيث تبلغ المجهودات المبذولة في نصرة النبي ﷺ أقصى نتائج ممكنة.

تضع الهيئة نفسها في موضع التنسيق والتنظيم بين المؤسسات الإسلامية المختلفة لتأدية واجب نصرة النبي ﷺ، فهي تعمل -على سبيل المثال- على استثمار طاقة الجاليات الإسلامية المقيمة في البلاد المختلفة لحصر أهم الشبهات والقضايا المثارة عن النبي ﷺ والتي تحتاج مجهودا علميا وفكريا لتفنيدها، ثم تعمل على حث طاقة المؤسسات العلمية من الجامعات الإسلامية والمعاهد والأكاديميات والروابط العلمائية على معالجة هذه الشبهات، ثم تعمل على تحويل هذا المجهود الفكري والعلمي إلى معالجات فنية متنوعة: مقروءة ومسموعة ومرئية قريبة إلى لغة العصر والمزاج العام السائد لدى الرأي العام المعاصر، وذلك عبر حث الطاقات القائمة في مجال الإعلام والإنتاج الفني لدى المؤسسات الإسلامية على معالجة هذه الأفكار. تستثمر هذه الأطراف جميعها طاقاتها الموجودة فعلاً في تسويق المنتجات النهائية.

وبهذا تتوجه المجهودات والطاقات القائمة نحو هدف نصرة النبي ﷺ بطريقة فعالة ومنسقة، حيث تؤدي كل جهة دورها الذي تحسنه.

أنصار النبي صلى الله عليه وسلم

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

تصدر عن الهيئة العالمية لنصرة نبيّ الإسلام ﷺ

محتويات العدد



رئيس الهيئة
د. محمد الصغير

رئيس التحرير
محمد إلهامي

@ ansarunaby@gmail.com

أئمة الهدى

«من تراث علمائنا الراحلين»

الصادعون بالحق

«من تراث العلماء والدعاة الأسرى»

ترحب مجلة « أنصار النبي ﷺ » بمشاركات السادة القراء الكرام على هذا النحو:

١ كتابة المقال، وأن يكون مقالاً لا تنقصه الرصانة العلمية ولا العاطفة الدعوية، على ألا يتجاوز في أقصى الأحوال ١٥٠٠ كلمة، مذيلاً بالاسم الحقيقي لصاحبه.. ويتعلق بموضوع المجلة عن التعريف بالنبي ﷺ وشمائله وفضائله وأخلاقه ورحمته بأمته والتذكير بحقه وواجبات الأمة نحوه، والدفاع عن سنته ومحبة آل بيته وصحابته، ورد الشبهات عنه.

٢ ترشيح مادة كتبها عالم من العلماء الراحلين، أو من المؤسسات الإسلامية العريقة كالأزهر في مصر وهيئة كبار العلماء في الجزيرة وندوة العلماء في الهند تتعلق بموضوعات المجلة.. مع التوثيق الدقيق لهذه المادة: في أي كتاب أو مجلة نشرت بالصفحة وتاريخ الطبعة، أو رابط المادة على الانترنت.

٣ أو ترشيح مادة كتبها أحد العلماء والدعاة الأسرى فيما يتعلق بموضوع المجلة، مع التوثيق الدقيق لمصدرها.

- تفريغ مادة صوتية لأحد العلماء -الراحلين أو الأسرى- مع توثيق مصدرها.

- ولا نستغني أبداً عن مجهود القراء ومساعدتهم في نشر المجلة أو في ترجمتها إلى لغات أخرى أو في طباعتها وتوزيعها في بلدانهم، فحقوق الطبع والتوزيع محفوظة لكل مسلم.

ترسل المشاركات على البريد الإلكتروني التالي : ansarunaby@gmail.com

الافتتاحية

الحج والديانة الإبراهيمية



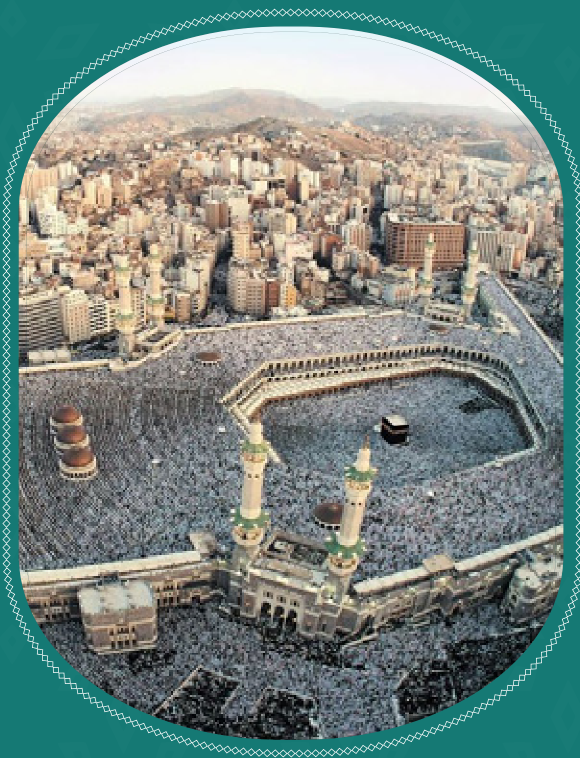
د. محمد الصغير

رئيس الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

خليل الرحمن إبراهيم أبو الأنبياء الذي جعله الله للناس إماماً، تمنى أن تمتد الإمامة في ذريته، وتبقى النبوة في ولده: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

بل حصر الله النبوة في عَقِبه، وقصرها في ذريته، فما من نبيّ بعد إبراهيم إلا من نسل إبراهيم: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وعَقَّبَ أبو الأنبياء ولدين من بعده، إسماعيل وأمه السيدة هاجر المصرية، التي حصّل بها أهل مصر مصاهرة الخليل، وخؤولة إسماعيل، وهاجر إبراهيم بهاجر وولدها إلى مكة المكرمة، ونشأ إسماعيل بين قبيلة جُرهم العربية وتكلم بلسانها وتزوج منها: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].



ورُزق بالابن الثاني إسحاق من السيدة سارة، التي بشرتها به الملائكة: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

كانت الكثرة العددية من الأنبياء من نسل يعقوب بن إسحاق، المعروف بإسرائيل، عليهم السلام، كما أخبر رَسُول اللَّه ﷺ فقال: «كَانَت بَنُو إِسرائِيلَ تَسُوسهم الأَنْبِياءُ، كُلَّما هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لا نَبِيَّ بَعدِي، وسَيَكُونُ بَعدي خُلَفَاءُ فَيَكثُرُونَ»[١].

---

١. متفق عليه.

ثم ختمت النبوة في نسل إسماعيل ببعثة النبي الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ، وأثنى الله تعالى وتقدس على إبراهيم في القرآن الكريم بما لم يثنِ به على غيره: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ * وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

وعدّ العلماء متابعة خاتم الأنبياء لإبرهيم من أثنى المحامد، وأعلى المناقب: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].



الروابط الوثيقة بين إبراهيم عليه السلام والنبي الخاتم ﷺ متينة عظيمة، فهو ختام الدعوة المستجابة بشأن النبوة، عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِن ولَدِ إسْماعِيلَ، واصْطَفَى قُرَيْشًا مِن كِنَانَةَ، واصْطَفَى مِن قُرَيْشٍ بَنِي هاشِمٍ، واصْطَفانِي مِن بَنِي هاشِمٍ»[٢].

بل إن هجرة إبراهيم بأسرته إلى مكة، من معانيها بداية التوطئة لقدوم النبي الخاتم ﷺ، إذ لا يتأتى أن ختام النبوة بنبي عربي، والنبوة مقصورة في نسل إبراهيم وهو ليس عربياً، ولا يسكن في جزيرة العرب، فكانت الرحلة المباركة، ورغبت قبيلة جرهم في النزول إلى جوار أم إسماعيل، وما فجره الله لها من ماء زمزم، ومن هنا تعرّب إسماعيل، وأخذ لسانهم وتزوج منهم، وصار أباً للعرب المستعربة.

٢. صحيح مسلم.

ثم أصبحت أعمال أسرة إبراهيم عليه السلام وزوجه وولده، من مناسك الحج في شريعة النبي الخاتم ﷺ، بعد أن رُفعت قواعد البيت الحرام وتم بناؤه، أذن إبراهيم بالحج في العالمين، ومن يومها أصبح المكان مأوى الأفئدة ومحل أنظار المؤمنين، ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].



ولما هرولت أم إسماعيل بحثاً عن الماء بين جبلي الصفا والمروة، جعل الله السعي نسكاً على الحاج والمعتمر، ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ولما فدى الله إسماعيل بذبح عظيم، أصبحت الأضحية من شعائر المسلمين، ثم يُرجم إبليس في نهاية الحجة، كما رجم في نهاية القصة.

مظلة الإبراهيمية الحقيقية، الجامعة بين النسب والنسك، وهذا بخلاف ما يروج له الآن، من الدعوة إلى الديانة الإبراهيمية الجديدة، التي تدمج الأديان في دين واحد، وحذر السلف من هذا الخلط، الذي سماه القرآن الكريم «اللبس»، وذلك في قوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

قال قتادة رحمه الله: «لا تُلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، إن دين الله الإسلام، واليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله»[٣].

وتناول شيخ الإسلام ابن تيمية هذه البدعة بقوله: «قول القائل: المعبود واحد وإن كانت الطرق مختلفة، ونحو ذلك من الأقوال والأفعال التي تتضمن إما كون الشريعة النصرانية واليهودية المبدلتين المنسوختين موصلة إلى الله، وإما استحسان بعض ما فيها مما يخالف دين الله، أو التدين بذلك، أو غير ذلك مما هو كفر بالله وبرسوله، وبالقرآن وبالإسلام، بلا خلاف بين الأمة الوسط في ذلك، وأصل ذلك المشابهة والمشاركة»[٤].

وعلّق عليها الشيخ بكر أبوزيد عضو هيئة كبار العلماء بقوله: «ليعلم كل مسلم عن حقيقة هذه الدعوة أنها فلسفية النزعة، سياسية النشأة، إلحادية الغاية، تبرز في لباس جديد، لأخذ ثأرهم من المسلمين، عقيدةً، وأرضاً، وملكاً، مستهدفة إبرام القضاء على الإسلام، ووهن المسلمين، ونزع الإيمان من قلوبهم من خلال إسقاط جوهر الإسلام واستعلائه، وظهوره وتميزه، بجعل دين الإسلام المحكم المحفوظ من التحريف والتبديل، في مرتبة متساوية مع غيره من كل دين محرف منسوخ، بل مع العقائد الوثنية الأخرى».

لذا ونحن في هذه الأيام المباركة، خير أيام والدنيا، والدنيا كلها تذكرنا بإبراهيم وآل إبراهيم، ووفد الرحمن الذي قصد البيت الحرام استجابة لندائه، علينا أن نحذر من المكر الخبيث الذي يسعى إليه الصهاينة ومن لف لفهم تحت مسيمات الديانة الإبراهيمية والبيت الإبراهيمي، لصرف الناس عن دينهم وتغيير عقيدتهم، وعندنا في ذلك القول الفصل من كلام الله عزو وجل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

---

٣. تفسير ابن أبي حاتم، (١/٩٨).

٤. اقتضاء الصراط المستقيم، (١/٥٤٠).

أكاديمية أنصار النبي
SUPPORTERS OF PROPHET ACADEMY

أكاديمية أنصار النبي

أكاديميــة علميــة ودعــويــة عالميــة، منبثقــة عــن الهيئــة العالمية لنصرة نبــي الإســلام، تعتمــد التقنيــات والأساليــب الحديثــة فــي التعليــم، تنظــم وتقــدم برامــج ودورات علميــة، ودبلــومــات شرعيــة وفنيــة ومهاريــة فــي مختلــف مجــالات النصرة النبويــة، وتقــوم علــى تخريج وتأهيــل متخصصيــن فــي فقــه نصــرة النبي صلى اللــه عليــه وســلم علميــا وعمليــا، وتعمــل علــى تمكيــن الشبــاب المسلــم مــن المشــاركة الواعيــة الفعالــة فــي مجــالات النصــرة المتعــددة.

الشيخ د. محمد الصغير
الأمين العام للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام

+90 536 491 13 74
@ansaracademy_

الشيخ د. عبد الحي يوسف
عميد أكاديمية أنصار النبي صلى الله عليه وسلم





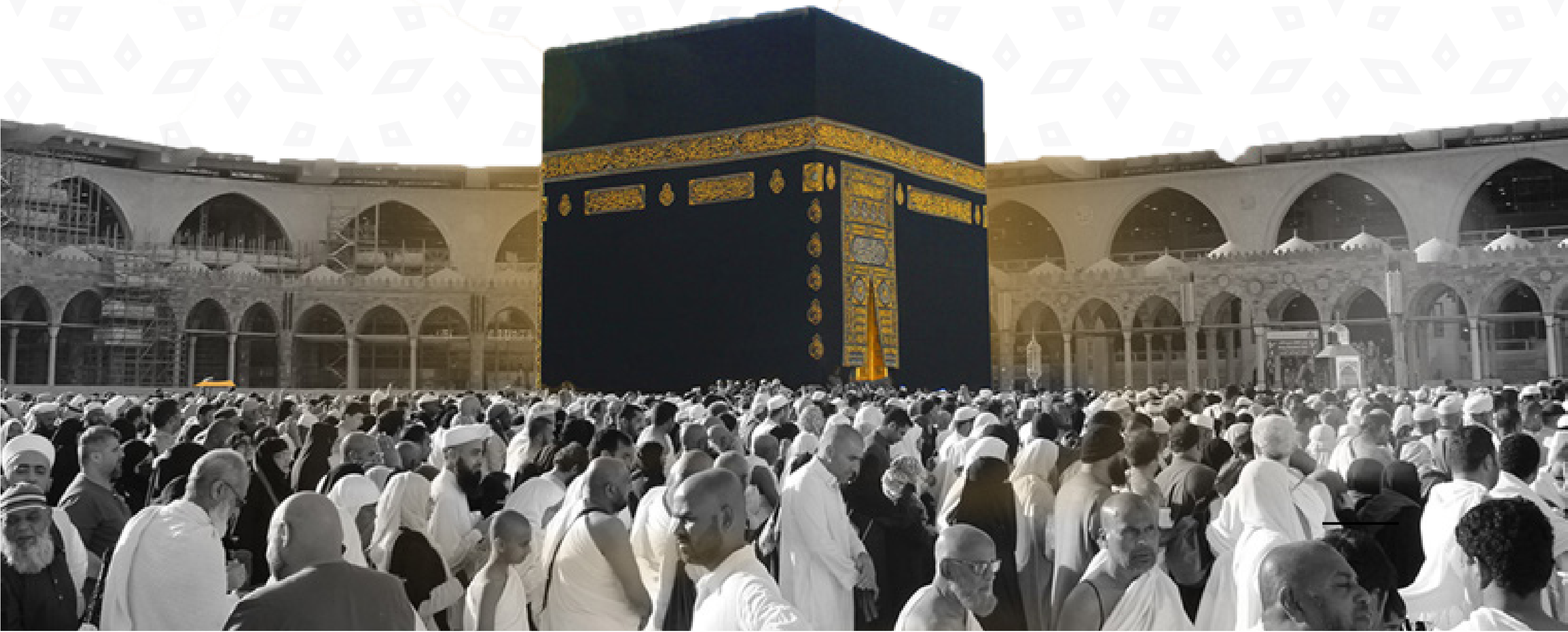
الحج.. الفريضة التي أنشأت دولاً
وأشعلت مقاومة ومزجت بين المسلمين



محمد إلهامي (رئيس التحرير)

عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

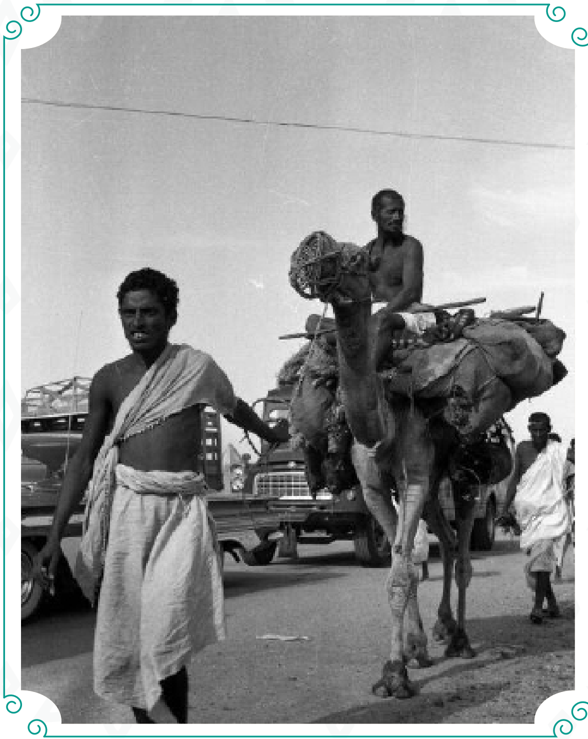
من بين عشرات المؤتمرات التي حضرتها، لم أنتفع بواحدة منها كما انتفعت بمؤتمر «طرق الحج في إفريقيا» الذي انعقد في جامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم، قبل سبع سنوات، عام ٢٠١٦م، فلقد قُدِّم في هذا المؤتمر نحوٌ من ستين ورقة علمية تبحث في هذا الموضوع، فوجدتني أمام بحر خضمٍّ من العلم الجديد النافع، وشعرتُ للمرة الأولى بالتأثير الفاصل الضخم لشعيرة الحج في حياة الأمة الإسلامية[1]، وكم تشوقت لحضور مؤتمر مماثل عن طرق الحج من آسيا ومن أوروبا، إذن لتمَّت الفائدة!



١. وقد نُشِرتْ أوراق هذا المؤتمر في كتاب من أربعة أجزاء، وكان الكتاب منشوراً على موقع الجامعة حتى وقت قريب، قبل أن تبتلى السودان ببلواها الأخيرة التي أفسدت كل شيء، ومن ضمن ما فسد: موقع الجامعة، وما عليه من المواد!

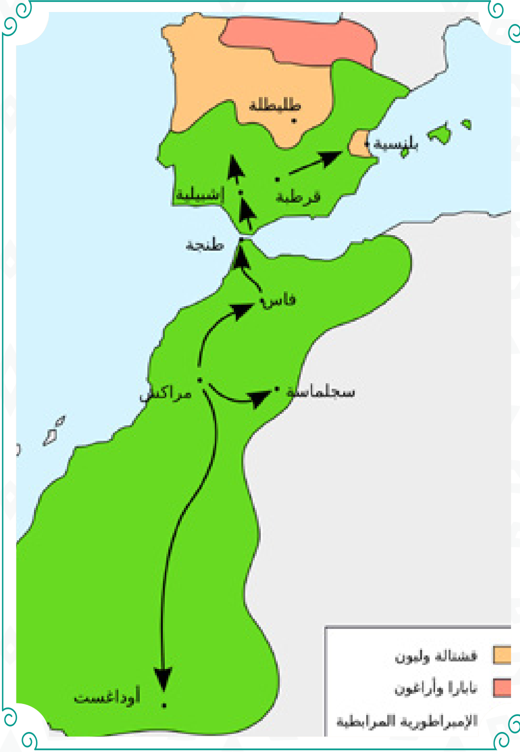
لقد كانت شعيرة الحج سبباً في نشوء دول إسلامية عظيمة، وفي تطوير دول مسلمة متخلفة تعرَّف أمراؤها ووزراؤها في رحلتهم إلى الحج على طرائق وأساليب تُنمِّي بلادهم، واصطحبوا معهم أحياناً رجالاً يهتدون بعلمهم في الدين أو في الدنيا، وقد سلك المسلمون في طريقهم إلى الحج طُرُقًا، فإذ بهذه الطرق تنبت على ضفافها مراكز تجارية وسرعان ما تحول إلى قرى ثم إلى مدن عامرة. وكم كان في بلاد المسلمين موارد لا تجد الأيدي العاملة، ومشروعات لا تجد من ينفذها، فجاء الحجاج المارون بها والذين قد احتاجوا إلى النفقة، فظلوا يعملون بها حتى يوفروا ويستكملوا أجرة الطريق إلى البيت الحرام، فتمَّت المشاريع بفضل هؤلاء الحجاج. وكم نشأت في طرق الحج من المبادلات التجارية، ثم من المصاهرات والأنساب ما تمازجت به الشعوب والقبائل وتضافرت وتعارفت، ما كان هذا كله ليحدث لولا الحج. وكم اصطحب المسلمون معهم من العلماء والدعاة ومن الشعراء والأدباء ومن التجار والخبراء ما تغيرت به أحوال بلدانهم في الدين والدنيا معًا.

إننا أمام مشهد حافل بالقصص الفارقة المؤثرة في تاريخ المسلمين، وكلما ازداد المرء علماً بهذه القصص استشعر هذا الفضل العظيم لرحلة الحج على المسلمين.



في هذه السطور، سأذكر بعض شذرات منثورات من هذه القصص، أحاول بها فتح الباب للقارئ الكريم ليتأمل ويتدبر في فضل الحج على المسلمين، وخير القرّاء من سيُعمِل ذهنَه وعقلَه في تطوير الاستفادة من رحلة الحج لخير المسلمين في دينهم ودنياهم في قابل الأيام.

١



كانت دولة المرابطين، تلك الدولة الإسلامية العظيمة، ثمرة من ثمرات الحج، ففي رحلته إلى الحج التقى يحيى بن إبراهيم الجدالي ببعض العلماء، فعرف أن قومَه في ضلالة، فاصطحب معه الفقيه المؤسس عبد الله بن ياسين، فكانت هذه بذرة دولة المرابطين.. هذه الدولة استطاعت توحيد المغرب الأقصى، ثم دافعت عن الأندلس وأجَّلت سقوطها لقرن على أقل تقدير، ونشرت الإسلام في غرب إفريقيا! ولو تصوَّرنا تاريخ المغرب بغير دولة المرابطين لوجدنا أنفسنا أمام صورة كئيبة للغاية لمسار التاريخ في ذلك الوقت!

وقريباً من هذا أيضاً حالة دولة الموحدين المغربية، فقد أنشأها محمد بن تومرت بعد رحلته إلى المشرق، وكان منها رحلته إلى الحج، وهذه الدولة أيضاً كان من مزاياها دفاعها عن الأندلس، وكانت أوسع مساحة من دولة المرابطين، ولها سهم في معاونة صلاح الدين يوم كان يحارب الصليبيين، إذ أمدَّته برجال وسلاح في البر والبحر!

٢

قام الحجُّ بدور عظيم في إشعال حركات المقاومة ودعمها ضد الاحتلال الأجنبي، ومن أشهر ما يُذكر في ذلك ما تدفق على مصر إبان الحملة الفرنسية، إذ ما إن تسامع أبناء الحجاز بأن الفرنسيس احتلوا مصر حتى نزلت منهم جماعات لمحاربتهم إلى جوار إخوانهم المسلمين في مصر.

ومثلُ ذلك حصل أيضاً في السودان أيام الحركة المهدية ضد الاحتلال الإنجليزي، إذ كان الحجاج هم من حملوا أخبار المهدي من السودان إلى الحجاز، فتدفق عليه الأنصار الذين قاتلوا الإنجليز ذلك القتال الباسل المشهور الذي هو من مفاخر هذه الأمة في ظل موازين قوى منهارة لصالح المحتل!

ولهذا ظلت السلطات الإنجليزية تراقب حجاج مستعمراتها، وتعمل جهدها على أن تحاصر ما يتسرب إليهم من أفكار المقاومة، سواءً بتعويق الحج نفسه، أو بوضع السياسات المختلفة لدى حكام مستعمراتها أو لدى صنائعها في نجد والحجاز لتحول دون ذلك.

ولأجل ذلك حضر الحجُّ في المنازعة بين السلطان عبد الحميد والاحتلال الأجنبي، وظهر ذلك بقوة في خط سكة حديد الحجاز، الذي أراد به عبد الحميد توثيق الصلات بين أنحاء السلطنة العثمانية في العراق والشام والحجاز وبين عاصمة الخلافة ومن ورائها ديار المسلمين في أوروبا كالبلقان ونحوها، بينما سعى الإنجليز جهدهم لتعويق هذا الخط، حتى تمكنوا من تعطيله على يد صنائعهم فيما بعد.



وظهر أيضاً في رحلات الحج التي قام بها الولاة المسلمون، إذ كان عبد الحميد حريصاً على الحفاوة بهم في الحجاز، ويرسل تعليماته إلى ولاة مكة والمدينة، فينشأ بينه وبين هذه الأنحاء صلاتُ سياسية تُقَوِّي

ما ضعف أو انقطع من الروابط الإسلامية، ومن أمثلة ذلك حجُّ سلاطين زنجبار، وما لقوه من الحفاوة بتوجيه من عبد الحميد، وهو الحج الذي كان بداية تواصل العلاقة بين زنجبار والدولة العثمانية، مما سخط له الإنجليز، وسبب لهم المشكلات في مستعمرتهم الإفريقية[٢].



٣

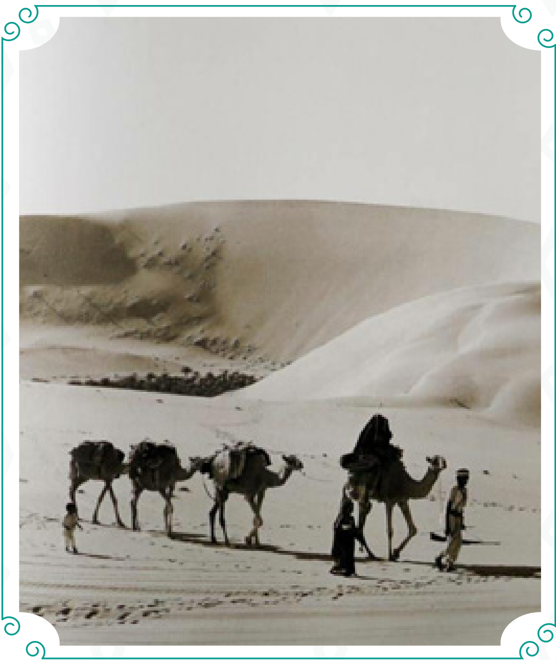
ذكر د. محمود مكي، من شيوخ المؤرخين السودانيين، خلاصة نفيسة لأبحاثه في تاريخ الإسلام في قارة إفريقيا، تلك هي أن المناطق التي مرَّت بها طرق الحج هي المناطق التي ازدهر فيها الإسلام وانتشر، والعكس صحيح، ولهذا فإن سكان غرب إفريقيا هم الأكثر حباً للعرب والإسلام، ومن هنا أيضاً، فإن الاحتلال الأجنبي لما احتل القارة الإفريقية عمل على عرقلة الحج، فصار يضع العراقيل ويعطل الموانئ، مما تسبب في تراجع وتناقص انتشار الإسلام في بعض المناطق مثل جنوب السودان.

قلتُ (إلهامي): وهو الأمر الذي دفع المسلمون ثمناً فادحاً له ببقاء جنوب السودان وقد غلبت عليه الوثنية، مما أدى مع المؤامرات وطول الزمان إلى انفصال جنوب السودان، ثم إلى المحاولات المعاصرة لتمزيق السودان نفسه كذلك.

---

٢. صالح محروس محمد، «رحلات حجاج شرق إفريقيا وأثرها في القرنين التاسع عشر والعشرين»، ضمن: مؤتمر طرق الحج في إفريقيا، ١٨/٢، ١٩.

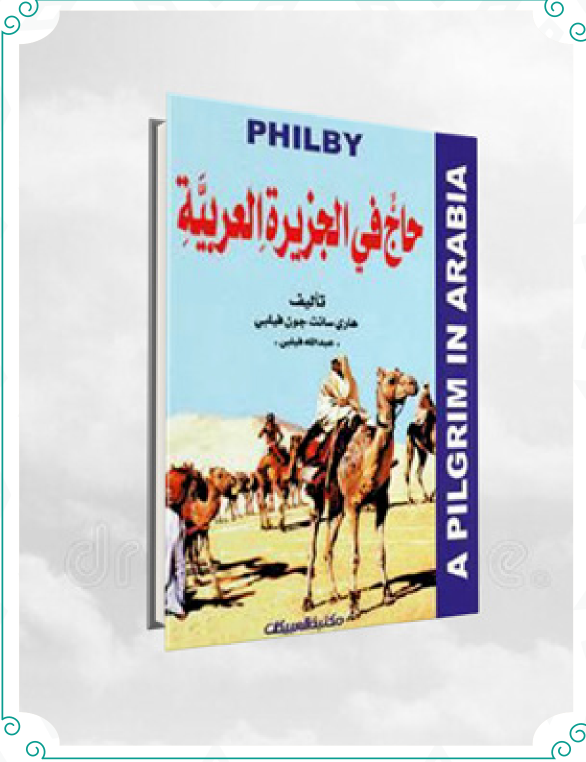
ونحن نرى الحجَّ قد ربط بين المسلمين في المشرق والمغرب برباط وثيق، ففي أقصى المشرق في ماليزيا وإندونيسا، وكذلك في أقصى المغرب الإفريقي نرى أسماء البنات والشوارع وغيرها تحفل باسماء مثل: زمزم، صفا، مروة، كعبة، مكة.. هذا فضلاً عن لقب «الحاجّ» الذي جعل لصاحبه رنيناً محبباً في الأسماع والقلوب، واختلط في بعض البيئات الإسلامية بمعنى العلم والسيادة والولاية.



وإذا استحضرنا أن الحج قديماً لم يكن كما هو الآن، بالطائرات والباخرات والحجز المسبق الذي تنظمه السفارات ومكاتب السياحة ذات الترتيب المسبق والمواعيد الدقيقة، إذا استحضرنا هذا علمنا أن الحاج قد يستغرق الشهور والسنين، وقد يتعرض في الطريق للمعوقات كانقطاع الطريق ووقوع المرض ونفاد المال وآفات الصحاري والأدغال من السباع والحيوانات، لهذا كله قد يخرج الحاج من بيته ثم يتأخر في الطريق فلا يدرك الحج، فيبقى حيث وصل في مصر أو السودان أو العراق أو الشام سنة أخرى حتى يأتي موعد الحج، فيقضي هذا الوقت في العمل أو في طلب العلم أو في التجارة، وقد يتزوج ويطيب له المقام. لقد أثمر هذا كله تمازجاً إسلامياً قوياً بين الشعوب البعيدة، والتي ما كان لها أن تتعارف ولا أن تتصاهر لولا رحلة الحج.

وربما وصلت رحلة الحج إلى عشر سنين، وربما خرج الرجل وزوجته معه فاستكملا حياتهما معًا في رحلة الحج، ومن طريف ما يُذكر هنا ما رواه (فيلبي) من أنه رأى في الحج رجلاً بدأ رحلته إلى الحج

هو وزوجته ومعهما ولد واحد، فظل يمضي ويعمل -كغيره من أهل إفريقيا- في مزارع القطن بالسودان حتى يستكمل نفقة الرحلة، فلما انتهت رحلته إلى الحج كانت قد استغرقت ١٤ سنة، وصار له من الأولاد ستة! بل ذكر فيلبي أنه رأى رجلاً قضى في رحلة الحج سبعين عاماً، وذلك أنه أخذ يقيم في كل حاضرة علمية فيتلقى العلم فيها زمناً حتى وصل إلى مكة[٣]! وهذا إن لم يكن من مبالغات فيلبي، فإنه ربما يكون خلطاً من الرجل نفسه، إذ كان طاعناً في السن وقتها.



ومن اللطائف التي استفدتها من د. ربيع الحاج، في هذا المؤتمر، أن الموانئ التي أقامها الإسلام في السواحل الشرقية لإفريقيا كانت تنعم بالأمن والأمان، إذ تعايش الحجاج مع أهل البلاد بأخوّة الإسلام، على عكس الموانئ التي أنشأها الاحتلال الأجنبي فيما بعد، والتي قامت أساساً للتجارة وامتصاص موارد البلاد، فقد كانت تعجّ بالمشكلات والاضطرابات!

٤

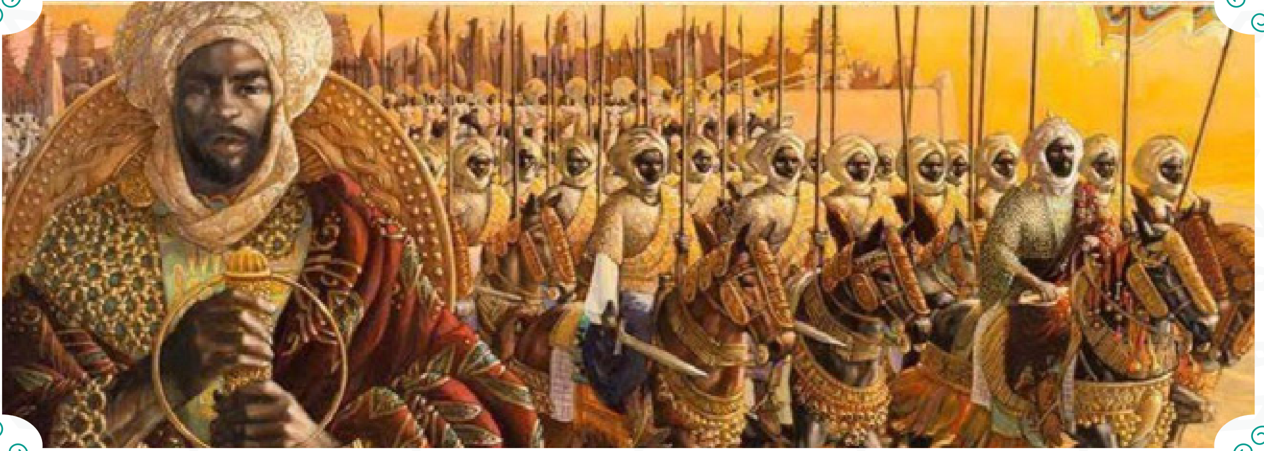
بعض الطرق ما كانت لتنشأ ولا لتتمهد لولا الحج، من أصعبها وأشهرها ذلك الطريق الصخري الذي شقّه الشيخ الملك عجيب المنجلك إلى سواكن، وحجَّ منه بالفعل، فزار مكة والمدينة وأوقف بها أوقافاً كثيرة

---

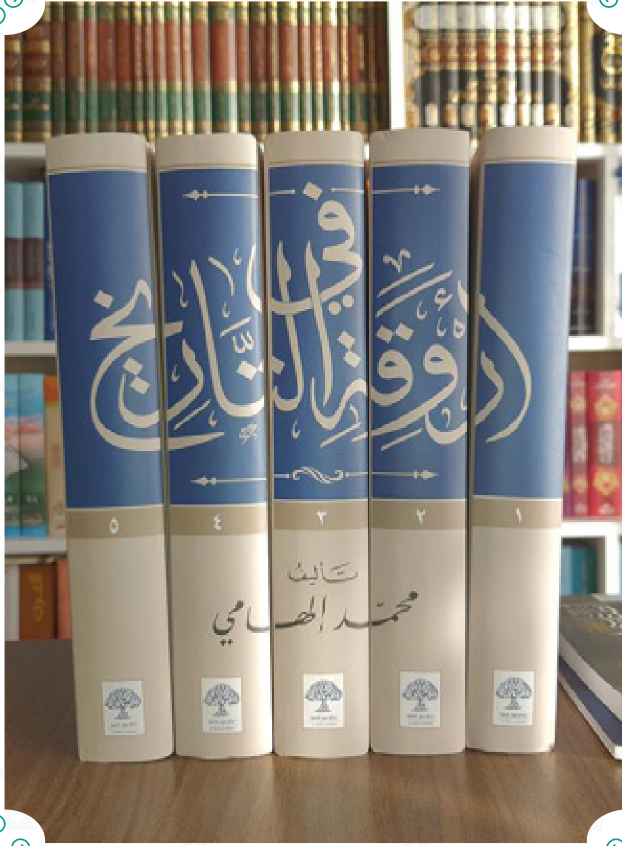
٣. فيلبي، حاج في الجزيرة العربية، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠١م)، ص٣٨، ٣٩.

على الحرمين، في ذلك المؤتمر سمعتُ اسم الشيخ عجيب لأول مرة، ثم تبيَّن أنه كان من الملوك العلماء العادلين، ألَّف عنه د. صلاح محيي الدين كتابه (الشيخ عجيب والدولة الإسلامية في سنار).

وبعض الممالك ما كانت لتتطور لولا الحج، ومن أشهر ما يُذكر في ذلك أن سلطان مملكة كانم وبرنو الإفريقية (في وسط إفريقيا الآن بين تشاد والنيجر ونيجيريا) الذي أدى الحج عاد إلى مملكته بالأسلحة النارية، فكان للسلطنة في وقته مهابة ومكانة وسمعة كبيرة، واستقدم الأتراك واستعملهم في صناعة السلاح ومصانع البارود.



وبعض العلوم ما كانت لتنتقل لولا الحج، وهذا حديث طويل جداً جداً جداً، وإذا شئنا أن نضرب مثلاً في انتشار العلم عبر طريق الحج، فسنجد مثالاً ناصعاً في رحلة الحج للشيخ العلامة الكبير محمد الأمين الشنقيطي، صاحب تفسير (أضواء البيان)، فقد سَجَّل الشيخ رحلته إلى الحج، فقَيَّد فيها ما طُرح عليه من الأسئلة في البلاد التي مرَّ بها، وكان السائلون من قضاة البلاد وأعيانها، والقارئ لهذه الرحلة يجدها قد احتشدت وتكدست بما فيها من العلوم في العقيدة والكلام والفقه والأصول والتفسير والحديث والأدب والشعر، فوق ما فيها بالتبعية من المعرفة بالبلدان والأعيان والأحوال الاقتصادية والاجتماعية لهذه النواحي.. وسائر هذه البلدان هي التي مرَّ بها الشيخ في طريقه إلى الحج.



وكنتُ قد قدمتُ في هذا المؤتمر ورقة عن تاريخ مصر والتطور الذي حصل فيها بين رحلتيْ اثنين من المستشرقين: جوزيف بيتس وريتشارد بيرتون، فلقد كان من بركات هذه الفريضة أنها احتفظت لنا بمشاهد من تواريخ بلادنا ضمن رحلات الحج التي سجلها الرحالة الزائرون، ونرى فيما بين الرحلتيْن كيف انحطت أحوال مصر وصارت مطمعاً للأجانب في عهد أسرة محمد علي، على غير ما هو شائع في التاريخ المصري المعاصر[٤].

وهكذا تظل رحلة الحج تواصل عطاءها في التقريب بين المسلمين، وتمتين ما بينهم، وتغذية المعارف والعلوم، وتوثيق الصلات والعلاقات، والتعاون على البر والتقوى، ومن يدري: لعل فرج أمتنا وخروجها من نكبتها المعاصرة تكون بذرته التقاء رجليْن أو ثلاثة في رحلة الحج هذا العام، أو العام الماضي أو العام المقبل.. يدبر الله الأمر ويصرف المقادير، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

---

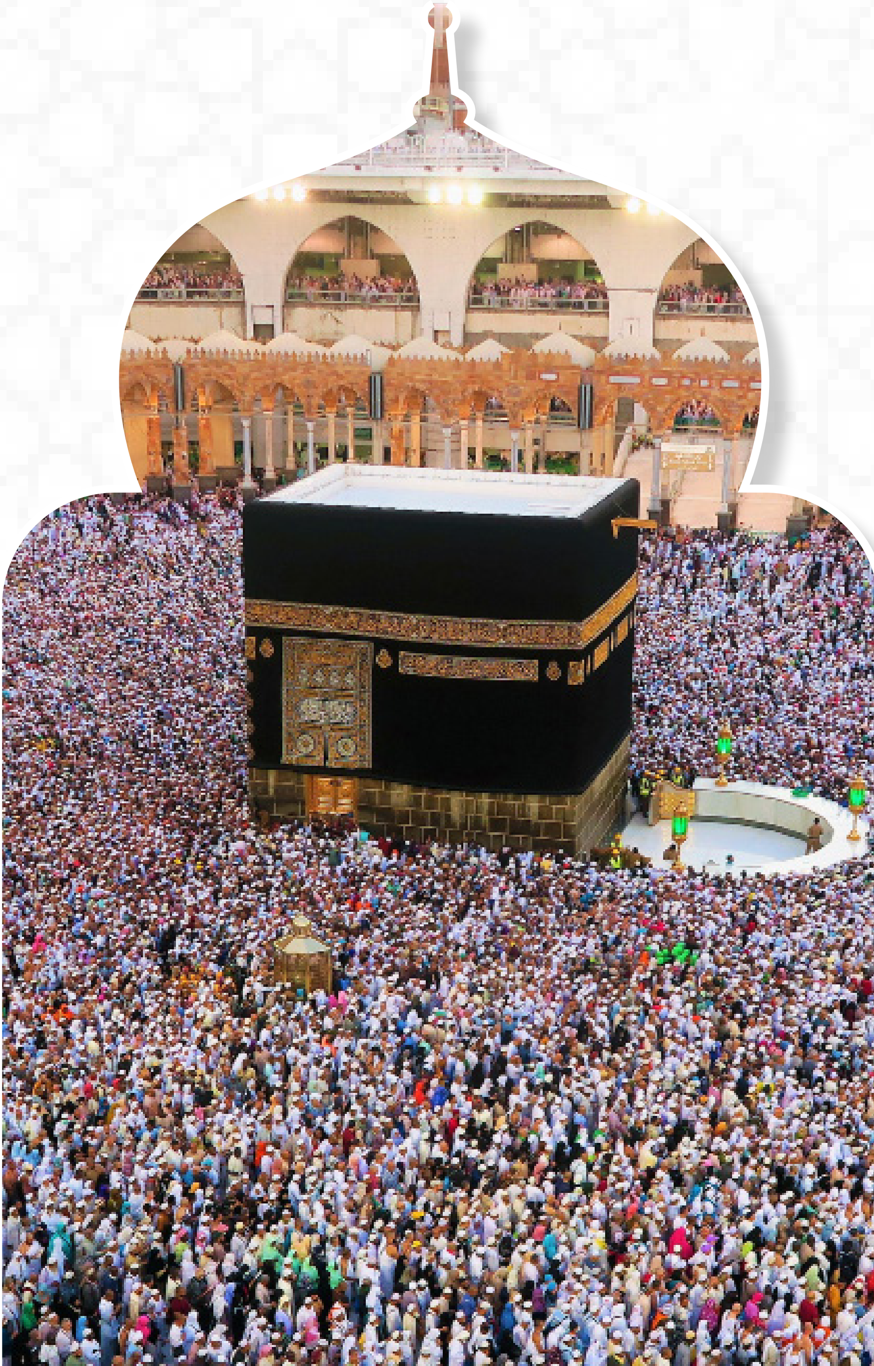
٤. لمطالعة الورقة، ينظر: محمد إلهامي، في أروقة التاريخ، الجزء الأول.

أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ



د. عبدالحي يوسف

عميد أكاديمية أنصار النبي ﷺ



يؤدي المسلم شعيرة الحج استجابة لنداء الخليل إبراهيم عليه السلام بأمر ربه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [الحج: ٢٧]. وحين قال عليه السلام: «رب وأنَّى يبلغ صوتي»؟ قال الله عز وجل: «يا إبراهيم عليك النداء وعليّ البلاغ».

يخرج وفد أهل الإسلام في كل عام استجابة لنداء هذا النبي الكريم عليه السلام، ورغبة في الاقتداء بمحمد ﷺ الذي قال: «خذوا عني مناسككم». وأملاً في الفوز بالجائزة العظيمة: «مَن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه».



وكم في هذه الشعيرة العظيمة من دروس وعبر؛ لكنني أتناول في هذه المقالة واحداً من تلك الدروس كم نحن بحاجة إليه في زماننا، وهو التسليم المطلق لله رب العالمين.

التسليم المطلق

فالإسلام معناه الاستسلام، وهذا هو الذي عناه ربنا جل جلاله حين قال عن الخليل وابنه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، أي: استسلما، وهذا الذي عناه الخليل حين دعا فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] يعني بذلك: الاستسلام لله عز وجل في حُكمه الكوني القدري وحكمه الديني الشرعي.

فالمسلم حقاً هو الذي يعتقد أنه عبد مربوب ليس له خيرة إذا قضى الله ورسوله أمراً؛ بل الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، والأمر أمره، والحكم حكمه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠] وهذا هو شرط الإيمان: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]؛ فالحج خير مثال لتحقيق هذا التسليم.

ومن مظاهر التسليم لله عز وجل في مناسك الحج اتباع هدي نبيه ﷺ:



أولاً: في الزمان حين يلتزم الحاج بالمواقيت الزمانية ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وحين يباشر المناسك يكون يوم الثامن في مِنى، وكذا ليلة التاسع، ثم في اليوم التاسع يكون في صعيد عرفة، وبعد غروب الشمس ينفر إلى المزدلفة فيبيت بها ليلة العيد، ثم ينطلق صبح العيد إلى منى وبعدها إلى مكة مطوفاً بالبيت العتيق، ثم يرجع ليقيم بمنى أيام التشريق ولياليه، وهو في هذا كله مستسلم لله، مقتدٍ برسول الله ﷺ، يمارس تلك العبادات المحضة وإن لم يدرك.

ثانياً: في المكان، حيث يقتدي برسول الله ﷺ، فيحرم من تلك المواقيت التي حددها، ويكون حيث كان، ويفعل كما فعل دون اعتراض أو تقليب نظر؛ متنقلاً بين المشاعر، مقبلاً الحجر الأسود بطيب نفس؛ كما كان عمر رضي الله عنه يفعل وهو يقول: «والله! إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبلتك».

❁ يقول الحافظ ابن حجر: «وفي قول عمر هذا التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي ﷺ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه».

وكذلك يقول عمر رضي الله عنه حين يمارس سنة الاضطباع قائلاً: «أمرٌ فعلناه مع رسول الله ﷺ ما نحن بتاركيه».

ثالثاً: في الكمية، يطوف بالبيت سبعاً، ويسعى بين الصفا والمروة سبعاً، ويرمي الجمار سبعاً، وإذا كان متمتعاً أو قارِناً فعجز عن الهدْي، صام في الحج ثلاثة أيام وسبعة إذا رجع، وهو في هذا كله مستسلم لله عز وجل، منفذ لأمره، راضٍ بحكمه، طالب لرضاه، مقتدٍ بنبيه ومصطفاه، يعلم أن حقيقة الإسلام خضوع القلب وانقياده لربه.

يقول ابن القيم رحمه الله: «إن مبنَى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم، وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع، ولهذا لم يحكِ الله سبحانه عن أُمة نبي صدقت نبيها وآمنت بما جاء، أنها سألتْه عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به، ونهاها عنه، وبلغها عن ربها، بل انقادتْ، وسلمتْ، وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وإيمانها واستسلامها بسبب عدم معرفته، وقد كانت هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولاً ومعارف وعلوماً لا تسأل نبيها لِمَ أمر الله بذلك؟ ولِمَ نهى عن ذلك؟ ولِمَ فعل ذلك؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام».

رابعاً: في الكيفية، يحرم كما أحرم نبيه ﷺ ويجتنب المحظورات التي نهاه عنها حال إحرامه مع كونها في الأصل مباحة، ثم يطوف بالبيت بذات الكيفية جاعلاً إياه عن يساره، مبتدئاً بالحجر الأسود منتهياً به، موالياً بين أشواط طوافه، وهكذا في السعي يبدأ بما بدأ الله تبارك وتعالى به: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، فإذا انصبت قدماه في



بطن الوادي خب كما صنع حبيبه ﷺ، وحين يرمي الجمار يجعلهن صغاراً (كحصى الحذف)، ويبدأ بالجمرة الصغرى فالوسطى ثم الكبرى مكبراً مع كل حصاة، مكثراً من الدعاء عقيب الجمرتين.

وبعد: فليس في الإسلام دعوة لإلغاء العقل ولا تحجير عليه، بل العقل هو النعمة الكبرى علينا معشر بني الإنسان، ولذلك تحدث عنه القرآن في صيغ عديدة، فتارة بلفظ القلب أو الفؤاد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وتارة ثانية في صيغة أفعال بلفظ المفرد أو بلفظ الجمع مثل: (يعقلون ـ يفقهون ـ يتفكرون ـ ينظرون ـ يبصرون ـ يعتبرون ـ يتدبرون ـ يعلمون ـ يتذكرون)، وتارة ثالثة في صيغة: (أولي الألباب أو أولي الأبصار أو أولي النهى): ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾، ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.



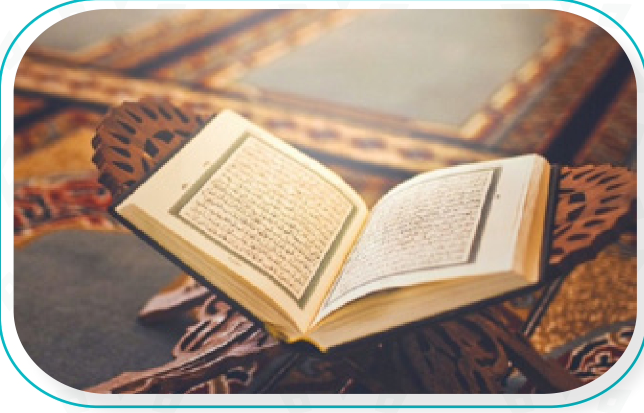
فقد أراد القرآن أن يعبر بذلك عن الوظائف العقلية التي أراد الله للعقل الإنساني أن يمارسها في هذا الوجود.

مجال العقل

ومن هنا يمكن أن يقال بأن للعقل حدوده ومجاله، وقد ذكر أهل العلم أن دور العقل مع النص محصور في أمور خمسة لا يتعداها:

أولاً: في استيعاب النصوص المتصلة بالموضوع الذي تتم دراسته، فما أُجمل في أحد النصوص قد يكون مفصَّلاً في آخر، وما أُبهم في نص قد يفسَّر في آخر.

ثانياً: في تمحيص النصوص لاستبعاد الضعيف.



ثالثاً: إعمال العقل مع تقوى الله عز وجل، ومع كامل الحرص على اتباع هدى الله في استخراج الدلالات العميقة التي تحتويها النصوص.

رابعاً: في نقد النصوص

هل هناك تعارض بين النصوص بعضها بعضاً؟ وهل من سبيل للجميع بينهما عند التعارض؟ هل هناك تعارض بين النصوص الظنية وبين القواعد الشرعية الكلية القطعية؟

خامساً: في تنزيل النصوص على الواقع، مع دراسة عملية وميدانية إحصائية للواقع.

وهذا الذي فقهه الصحابة رضوان الله عليهم فكانوا أسعد الناس بعقولهم، وأنفعهم بوحي ربهم؛ فلما نزلت آية تحريم الخمر يقول أنس رضي الله عنه: «كنت أسقي أبا طلحة وجماعة من الأنصار فضيخاً فلما نادى منادٍ: ألا إن الخمر قد حرمت! قالوا: أرِقها يا أنس!».

وتقول عائشة رضي الله عنها: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول! لما نزلت آية الحجاب شققن مروطهن فاعتجرن بها».

ولما كان المسلمون يصلون في مسجد قباء فأتاهم من يقول لهم -وهم في صلاتهم- ألا إنه قد نزل الليلة على رسول الله ﷺ قرآن، وقد أمر أن يستقبل البيت الحرام، تحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، وأتموا صلاتهم.

هذا هو الاستسلام لله عز وجل في أرقى صوره وأجل معانيه، وهو ما نحن بحاجة إليه في زماننا هذا، والله المستعان.

الحج وصناعة الرأي

حول مفهوم الأمة



د. أحمد موفق زيدان

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

كان الأذان الإبراهيمي لدعوة الأمة في مشارق الأرض ومغاربها أن تخرج من قوقعاتها القطرية والقومية والجهوية إلى الصعيد الواحد، إلى حيث أُسواتها وقُدواتها، إلى حيث الدعوة الغضة المتصلة بالسماء، إلى حيث التواصل الأفقي مع بعضها، مع التواصل العمودي الشاقولي مع الله تبارك وتعالى عبر الأنبياء ودعوتهم الغضة إلى السماء.

فيكون المكان مكان تواصل مع رموز الأمة القادمين من كل فج عميق، ومع كل من يمثلها، فيشكل بذلك فرصة ذهبية من أجل تدارس الهموم، والخروج بموقف موحد حيال ما تواجهه من تحديات، وما يشدُّها من أشواق، فتفرض رأيها على الأمم، فتهابها بذلك، وتحسب لها حسابها، فلا أضرّ على العالم المجرم من تماسك الأمة وتوحدها والتعبير عن مواقفها برأي واحد وموقف موحد.

لكن قبل هذا لا بد أن يتحلل الزائر والحاج إلى بيت الله الحرام من كل أضغانه، وكل أردانه، وكل فردانيته السلبية، فيذوب في مصلحة الأمة ويذوب مع همومها المشتركة، لينضم بذلك إلى قافلة الخلود التي أسس لها وقادها أبو الأنبياء، ومن بعده إخوانه من الأنبياء إلى أن نصل لسيدنا محمد عليهم أفضل الصلاة والسلام، فينضم المرء إلى جيش التلبية، ضيوف الرحمن الذين اختارهم كضيوف سنويين لديه، فكان التشريف أن تكون من بينهم، فلتكن بذلك خير رائد لأهله، لا تكذبهم. انقل معاناتهم، وأشواقهم وطموحاتهم، وبالمقابل حاول ما وسعك الجهد أن تنقل هموم الأمة وطموحاتها وآمالها لمن وراءك.

هنا تجرّد من ملابسك المحسوسة، وليس من أنانيتك وفردانيتك السلبية غير المحسوسة، وإنما المعنوية، هنا تجرد من ثياب الثعالب والذئاب والأفاعي والخراف التي يرتديها بعض الناس، لتلبس لباس التقوى، تجرد من كل مخيط، وكأنها إشارة عملية تطالبك بالتخلي عن كل ما ترتديه حسياً أو نفسياً من ثياب غير ثياب العبودية، فترتدي شكلاً ولوناً واحداً من اللباس، فيكون الانسجام والتناغم الظاهري، وهو ما ترنو إليه صناعة الرأي العام، وهو دليل على



الانسجام الباطني الداخلي، عكَسه قول رسولنا ﷺ لمن كان يصلي وراءه فعلمنا إياه إلى يوم الدين: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»، فدلّ على أن اختلاف الظاهر دليلٌ على اختلاف الباطن. فيذوب بذلك مفهوم الأنا، ويقتحم مفهوم النحن، وهي صفة المؤمنين وصفة الموحدين، وصفة من يحمل هموم الأمة وأشواقها.

مناسك الحج سلوكيات لتعميق نظرية الرأي العام

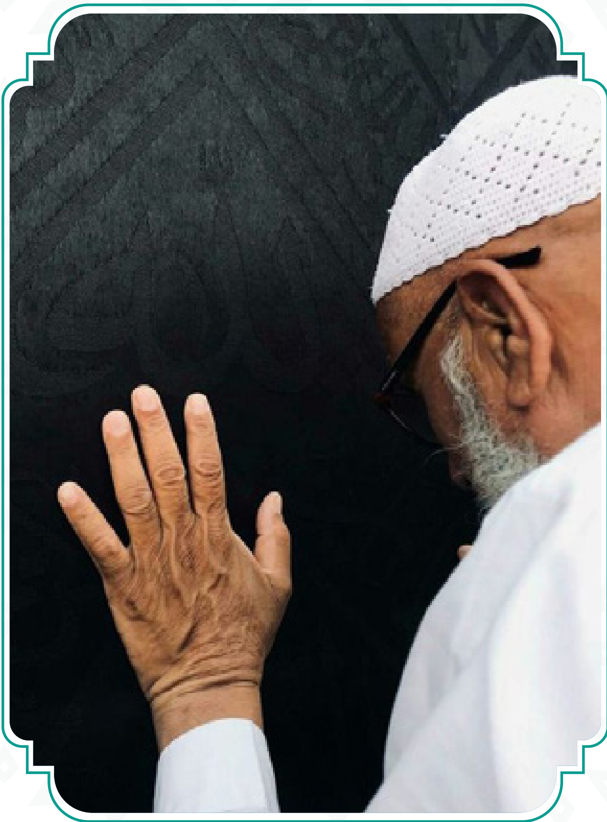


كانت بداية قصة صناعة الرأي، وصناعة الدعوة منذ البداية بالبيت العتيق، ودعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام، يتنقل المرء بين الأماكن التي تنقل فيها أبو الأنبياء ثم من تبعه من أنبياء إلى أن يصل لنبي الإسلام محمد ﷺ، فيستذكر وهو يسير على نفس الطريق، طريق الذين أنعم عليهم ربنا تبارك وتعالى، ويستذكر معه طريق الصحابة والتابعين، ومن تبعهم، يستذكر طريق الصادقين، إنها ذرية بعضها من بعض.

يتخيل في تلك الرحلة الجميلة العجيبة كيف ترك سيدنا إبراهيم زوجته هاجر وابنهما اسماعيل، تركهما لله تبارك وتعالى، لتبدأ رحلتهما في البحث عن الماء، وهو الذي ذهب ليأيتهم به، فيفيض الماء الذي لا تزال الأمة وستظل عالة على ذلك الموقف الرائع من هاجر، ستظل الأمة تشرب من ذلك الينبوع الفيّاض، فنأخذ منه الدرس الأهم في أنك قد تذهب لنيل أمر، فلا تناله، فيكون نيله على يد من ينتظرك للإتيان به، كما حصل من ترقب وانتظار هاجر وإسماعيل لسيدنا إبراهيم، فيعود إليهما فيجد الماء قد فاض من حولهما.

درسٌ يصدح بنا كل يوم في أن المهم أن تكون على الطريق الساعي للخير، وليس المهم أن يأتي الخير من خلالك، فالمهم أن تكون على الطريق الصحيح، وليس المهم أن تصل إلى نهاية الطريق.

علمنا الحج أن كل حركة من حركات الأمة، وكل سكنة من سكناتها إنما هي نُسك وتعبد لله تبارك وتعالى، أو ما يُعرف بعلوم الرأي العام بالسلوكيات التي تقود إلى الأفكار، ومن ثم فعبادة الصلاة، وعبادة التصدق وعبادة خلع الشرك والأوثان وغيرها من العبادات، إنما هي سلوكيات تعبدية ستقود إلى رأي عام واحد تجاه القضايا التعبدية الكبرى، فتتحقق وحدة الأمة، ووحدة مصيرها، فتتعزز بالتلبية والتكبير والتحميد وبصوت واحد وشعارات واحدة، ونبرة واحدة.. مما يشد الأمة إلى الوحدة والتناغم والانسجام فيما بينها.



على هذا الصعيد الطاهر دعانا ربنا تبارك وتعالى لشهود المنافع فقال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨] يقول الزمخشري (صاحب الكشاف): «نكّر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبارة، دينية ودنيوية، لا توجد في غيرها من العبادات»[١].

ولا أهم من من المنافع الدينية من المنافع التي تحفظ للناس دينهم وكرامتهم وإنسانيتهم، ولذلك كان التركيز في الحديث عنها، والدعوة إليها، والدخول في تفاصيلها من أجل الحفاظ على كرامة الإنسان ودعوته، يقول سيد قطب رحمه الله «فالحج موسم

١. الكشاف، ١٥٣/٣.

ومؤتمر، الحج موسم تجارة، وموسم عبادة، والحج مؤتمر واجتماع وتعارف، ومؤتمر وتنسيق وتعاون، وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة، كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة»[٢].

ثم يقول سيد رحمه الله: «هو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب»[٣].

في هذا البيت العتيق يتحقق المرء أن لا جبابرة ولا طغاة ولا مستبدين، هنا يستذكر العبودية الحقّة لله تبارك وتعالى، فاسم بيت الله الحرام نفسه كسرٌ لصنمية الطغاة والاستبداد والجبابرة، كما في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمى الله البيت العتيق، لأنه أعتقه من الجبابرة، فلم يظهر عليه جبار قط»[٤].

الحج.. حقل اختبار لكل ما تعنيه علوم الرأي العام



في الحج تستطيع أن تقيس الرأي العام وتجري استطلاعات للرأي العام تجاه القضايا التي تواجهها الأمة، فتخرج بأدق قياس واستطلاع يعكس الأمة وهمومها، وآمالها، في الحج تستطيع أن تمارس أفضل الأساليب وأسرعها وأنجعها في تغيير الرأي العام، إن كان من حيث أسلوب التكرار والملاحقة الذي تؤكد عليه أبحاث الرأي العام، أو من حيث الإثارة العاطفية التي هي أفضل مكان

---

٢. في ظلال القرآن، ٤/٨٠٠.

٣. السابق، ٤/٨٠٢.

٤. المستدرك على الصحيحين، ٣٥١٠.

لاستخدام مثل هذا الأسلوب، ما دام الجو الإيماني والعاطفي في أقوى شحناته، أو أسلوب عرض الحقائق والبرامج الإيجابية، وأسلوب الإسقاط وغيره من الأساليب المستخدمة في هذا المجال، ما دام جمهورك بين يديك، وهو جمهور يمثل شرائح من العالم كله، وبأعداد لا يمكن أن تتوافر في أي بقعة أو زمان.

في هذا الصعيد الطيب يستطيع كل من يعنيه أمر الرأي العام أن يحقق ما يصبو إليه من تشكيل الوعي الجماهيري وفي كل أنماطه وأشكاله، من وعي ديني أو سياسي أو اقتصادي وأخلاقي وعلمي وأمني وحقوقي وجمالي وغيره، ويستطيع مع هذا الحضور الضخم أن يحقق كل أهداف الوعي الجماهيري المتعارف عليه.



إنها فرصة لا تتوافر لأي أمة من الأمم، يجدر بكل علم من العلوم أن ينتفع بها، وأن يستفيد منها، في تعزيز أبحاثه، ويجدر بقادة الأمة ومفكريها أن يستغلوها في إشاعة الخير والفضيلة، والحد من الظلم والاستبداد، لا بد من استغلالها في التعريف بالظلم الذي حاق بالمسلمين على أيدي الاحتلال الداخلي من الحكام الظلمة المستبدين، أو من الاحتلال الخارجي حيث إخوانهم يمدونهم.

على خطى إبراهيم عليه السلام

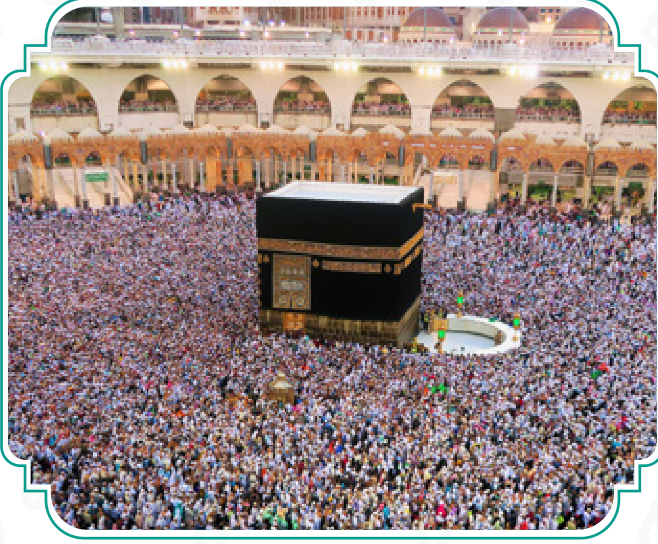
في الاستسلام والتسليم



الشيخ مختار بن العربي مؤمن

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

ها هي الملائكة تبني البيت العتيق ليكون منارة للمؤمنين، بركة وهدى ومأوى لأفئدة المتقين، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وتمضي البشرية في مسيرتها على وجه الأرض بين طائع تقي، وعاص شقي، ويبقى نداء الفطرة التي تحن إلى مأوى الأفئدة تتلألأ أنواره، ولا يخبو أُوَارُهُ.



حتى جاء عهد الخليل عليه السلام، فهاجر بامرأته وصبيه الصغير إلى وادٍ غير ذي زرع ولا ضرع عند البيت المحرم، ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فيأتيه الأمر من الله بتجديد العهد ورفع القواعد، فهناك عهد جديد ووفد مبارك قادم يُحيي ما اندرس من رسوم العبادة الحقة، ويشاء ربك أن يختبر الخليل في خلته ويأمره بذبح إسماعيل لينظر هل زاحمت محبة الولد خلة رحمن؟

أول درس في الاستسلام

إننا حينما نقرأ قصة الخليل نجد أن الله أمره أن يذهب بزوجه وولده الرضيع إلى واد غير ذي زرع، بعدما طعن في السّن أن يُسكنه هو وأمه في بلاد قفر، وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع، فامتثل أمرَ الله في ذلك، وتركهما هناك ثقةً بالله وتوكلاً عليه فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً، وولى قافلاً إلى أهله في الشام، وما أصعبها من لحظات فارقة حينما يرتحل الأب تاركاً جزءاً من ذاته وأنيساً من أهله!

تقولُ بنتِي، وقد قرّبتُ مرتحلًا •• يا ربّ جنّبْ أبي الأوصابَ والوجعا
عليكِ مثلُ الذي صلّيتِ فاغتمضي •• يومًا فإنّ لجنبِ المرءِ مضطجعا

وولّى الخليل وسعَتْ خلفه زوجه بنداء يردد صداه قفر لا أنيس في جنباته، يقول ابن عباس رضي الله عنهما حاكياً قصتهما: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قِبل أم إسماعيل، اتخذتْ منطقاً لتعفي أثرها

على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة، فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء».

درس ثانٍ في الاستسلام لأمر الله تمثله المرأة الصالحة

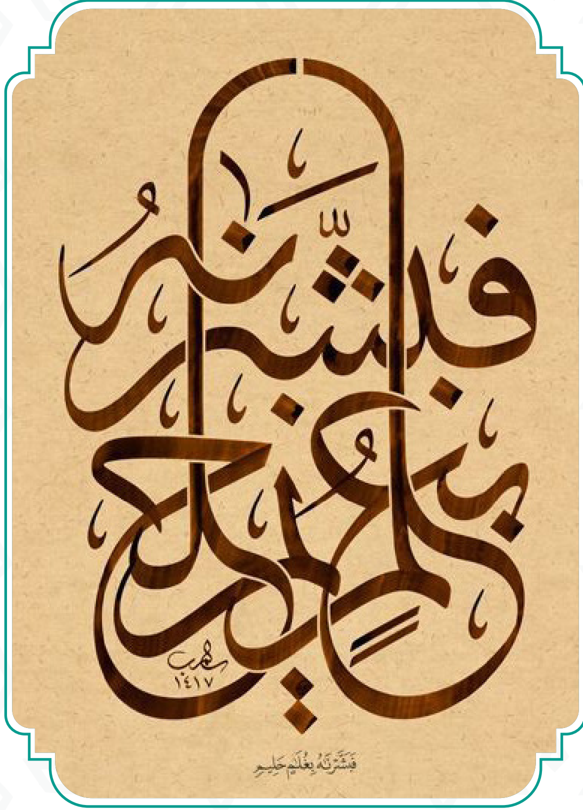
يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعتْه أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فانظر إلى عظمة تلك الزوجة الصالحة التي بمجرد أن عرفت أن الله أمره بذلك راحت مطيعة لأمر الله، واكتفت بمعيته سبحانه عمن سواه، فيا لها من امرأة عظيمة ردّدت في ثنايا الكون وامتداد الزمن كلمات تقشعر منها الأبدان وتَجِلُ القلوب، «ءآلله أمرك بهذا؟ إذا لن يضيعنا»! ما أعظم القلوب المستسلمة لله رب العالمين، وما أصدقها، وما أسرع تكريم الله لها!



ومن هنا نستشف أثر التربية الصالحة من ولد عاش في أحضان أبوين صالحين، قد جعلا أمرَ الله فوق كل أمر، وطاعته فوق كل طاعة، ليأتينا الدرس الثالث من تلك الأسرة المباركة.

درس ثالث في تسليم الابن المبارك لأمر الله



إن رؤيا الأنبياء وحي[1]، ورؤيا غيرهم بشارة وسرور، فلقد رأى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام رؤيا صدق يأمره الله فيها بذبح أعزّ ولد جاءه على كبر من سنه، لأنه أول من وُلد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل، وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل أنه أول ولده وبكره، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٩٩-١٠١].

لقد جاء الأمر من الله فما كان من إبراهيم إلا التسليم والاستسلام لأمر ربه، ويشاور الخليل ابنه إسماعيل مشاورة إقدام لا إحجام فيها، واستسلام لا نكوص دونه، فما كان من الشاب الصالح إلا أن فوّض الأمر لله، وأعان والده على فعل ما أمره الله به، وهذا شأن أهل الإيمان والصلاح ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]

١. قال عمرو سمعت عبيد بن عمير يقول: "رؤيا الأنبياء وحي، ثم قرأ: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]". البخاري، ١٣٨.



دروس وعبر، وعظات ودرر، من بيت واحد تمثلت فيه الأسرة أماً وأباً وابناً باراً صالحاً، علمونا أن الاستسلام لله وأحكامه هو النجاة، مثال وامتثال لكل أسرة أرادت أن تحمي نفسها من العثار، وتكون طائعة للحليم الغفار، ولا سبيل غير ذلك لكل شيخ أو امرأة أو شاب أو فتاة.

لقد كانت ملة إبراهيم كلها عبر ودروس ولا سيما إذا وقفنا على كيفية الحج إلى بيت الله؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الشيطانَ ترجُمون، وملَّةَ أبيكم إبراهيم تتَّبعون»[٢].

لقد تعرض الخليل إلى ابتلاء ومراودة من الرجيم ليصده عن أمر الله ويسوّل له أنما هي نزغات منه لا من الرحمن، فأعرض عنه ورماه، قال ابن عباس: «لَمَّا أتَى إبراهيمُ خليلُ اللهِ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه المناسكَ عرض له الشَّيطانُ عند جمرةِ العقبةِ فرماه بسبع حصَياتٍ حتَّى ساخ في الأرضِ، ثمَّ عرض له عند الجمرةِ الثَّانيةِ فرماه بسبع حصَياتٍ حتَّى ساخ في الأرضِ، ثمَّ عرض له عند الجمرةِ الثَّالثةِ فرماه بسبع حصَياتٍ حتَّى ساخ في الأرضِ».

فها نحن اليوم على خطى الخليل في الاستسلام، نطوف سبعاً، ونسعى سبعاً، ونرمي كل جمرة سبعاً، ونتلمس آثار الخليل الذي مشى خلفه سيدنا وحبينا محمد ﷺ، مهتدين بهديه ومستسلمين لشرعه، ويا ويح من نازعته الظنون، أو فتنه المفتونون عن طريق رب العالمين، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]

---

٢. رواه الحاكم والبيهقي بإسناد جيد.

لقد وقف عمر رضي الله عنه بين يدي الحجر الأسود يقبله ويقول: «إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ»[٣].

علِم أنه حجر أصمّ ليس له من الأمر شيء، ولكن استسلاماً وتأسيّاً بالحبيب ﷺ قبّله. ثمّ التفت عمر إلى البشرية يخبرها أنّ هذا شأن المتبعين، لا شأن المرجفين المفترين المشككين.



حجر نطوف حوله.. استسلام، وحجر نقبله.. استسلام واتباع، وحجر نرميه، وحجر نرمي به، يا له من سلوك لا ينفع معه استعمال العقول المفلسة التي لم تستشف حكمة الغيوب من علاّمها، ولم ترفرف في ساحاتها أعلامها، يقول ابن القيم رحمه الله: «فإن من أعظم وأهم أسباب قوّة قلب العبد ورسوخ يقينه، وسلامة صدره، وتمام رضاه؛ الاستسلام لله عز وجل في أمره ونهيه، وقضائه وقدره، فالكون كونه، والخلق خلقه، وهو المالك على الحقيقة، وغيره مملوك، وهو الرّبّ المتصرف بالتدبير والتقدير، وغيره مربوب. ومن غابت عنه هذه الحقيقة وانشغل بتوافه الدنيا ورذائل أهلها.. لم يصمد قلبه أمام أي فتنة أو ابتلاء.

فالتسليم إذاً هو روح الإسلام، بل هو الإسلام نفسه، يقول الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

---

٣. رواه الجماعة.

ويقول ابن القيم أيضاً: «بل إن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم، وعدم الخوض في تفاصيل الحكمة في الأوامر، والنواهي، والشرائع، ولهذا لم يَحكِ الله سبحانه عن أمة نبي صَدَّقت نبيها وآمنت بما جاء به، أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به، ونهاها عنه، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت، وسَلَّمت، وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها، وإيمانها، واستسلامها على معرفته، ولا جعلت طلبه من شأنها[4].

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فهذه الآية تدلّ على أن أمر اللّه وأمر رسوله موجبٌ للامتثال، مانعٌ من الاختيار، مقتضٍ للوجوب.

يقول ابن القيم رحمه الله في (الوابل الصيّب): «إنّ من علامات تعظيم الأمر والنهي أن لا يحمل الأمرَ على عِلّةٍ تُضعِف الانقياد والتّسليم لأمر الله عزّ وجل، بل يُسلّم لأمرِ الله تعالى وحكمه، ممتثلاً ما أمر به، سواء ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه أو لم تظهر، فإن ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه حمله ذلك على مزيد الانقياد بالبذل والتسليم لأمر الله»[5].

فيا أمة الإسلام.. ويا أبناء الإسلام، ويا قادة الإسلام، مَن كان يرجو النجاة فلا نجاة إلا بالاتباع والتسليم لأوامر الله ونواهيه، يقول الله سبحانه وتعالى في وصف المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١]

---

٤. الصواعق المرسلة، ٤/١٥٦٠.
٥. الوابل الصيب، ص١٧، ط: دار الحديث.

الحَجّ دورة تربوية جهادية



د. يونس الأسطل

عضو رابطة علماء فلسطين

الحمد لله الذي له على الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إليه سبيلاً، وقد أَمَرَ خليلَه إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يرفع القواعد من البيت، وأن يؤذِّنَ في الناس بالحج؛ ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله في أيامٍ معلومات، وهي العشر الأُوَل من ذي الحجة، وقد أقسم بها مع الفجر، والشفع، والوتر، والليل إذا يسري، أن الذين طَغْوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، سيصبُّ عليهم سَوْطَ عذاب، إنه لهم لبالمرصاد. وبعد:

فإن الأمم الغابرة كانت تؤخذ أَخْذَ عزيزٍ مقتدر بالآفات السماوية، خاصةً إذا مكر فيها أكابر مُجرميها، وفسق فيها أكثر مُترفيها، فها هي عادٌ قد أُهلكت بالريح العقيم، ما تذر من شيءٍ أتتْ عليه إلا جعلته كالرميم، حين سخَّرها عليهم سبع ليالٍ، وثمانية أيام حسوماً، فترى القوم فيها صرعى، كأنهم أعجاز نخل خاوية، وأما ثمود فقد أرسل عليهم صيحةً واحدة، فكانوا كهشيم المحتظر؛ أيْ كالعصف المأكول، أو القَشِّ المفتَّتِ تحت أقدام بهيمة الأنعام في الحظائر، وأما فرعون فقد أخذه وجنوده، ونبذهم في اليم، أو أغرقهم في البحر؛ بأنهم كذبوا بآياته، وكانوا عنها غافلين، ولعهودهم ناكثين.



غير أنه بعد الفراعنة جعل سَوْطَ العذاب، ومنع الفساد في البلاد، بدفع الناس بعضِهم ببعض، فقد أوجب على عباده المؤمنين أن يقاتلوا المشركين كافةً كما يقاتلونهم كافة، وأن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار، وأن يجدوا فيهم غِلْظة، وأن يُثْخِنوا في الأرض، حتى تضع الحرب أوزارها، ويتوقفَ القتال، إذْ إنكم بذلك تُؤَدِّبون الغادرين، وتُشَرِّدون بهم مَنْ خلفهم، وإن كنتم لا تعلمونهم، وحسبكم أن الله يعلمهم، وأنه يجعل ضربكم فوق الأعناق، وضربكم منهم كلَّ بنان، نكالاً لما بين يديها وما خلفها، وموعظة للمتقين.

إن الله عزوجل لو يشاء لانتصر منهم، ولكنْ لِيَبلُوَ بعضكم ببعض، ولِيُبْلِيَ المؤمنين منه بلاءً حسناً، حين شَرَّفنا بأن نكون عباداً له أُولي بأس شديد، أولئك الذين توعَّد بهم بني إسرائيل، خاصة حين يفسدون في الأرض المباركة، في بيت المقدس، وأكناف بيت المقدس، ويعلون علواً كبيراً، وكم أهلك بهذه السنة من القرون من بعد موسى عليه السلام، وإلى يومنا هذا؛ بل إن الجهاد والرباط ماضٍ إلى يوم القيامة.



وقد أعدَّ الله عباده الرِّبِّيين لهذه الفريضة التي هي ذِرْوةُ سنام الإسلام بكثيرٍ من العبادات والتشريعات، ومنها فريضة الحج، هذه الفريضة التي بلغت من الأهمية بحيثُ صارتِ الركنَ الخامس من أركان الإسلام؛ فإن أعمال الحج دورة جهادية تربوية تعبوية من وجوه عديدة، ومنها هذه العشرة:

الحج خروج بالنفس والمال، وترك للأهل والعيال، ومغادرة للديار والأوطان، وقطع للفيافي والأودية، وتعرُّض للظمأ، والنَّصَب، والمخمصة، وغير ذلك من المصاعب والمتاعب، وربما الآلام والمصائب، وكلُّ أولئك هو ما يعانيه المجاهدون في جهاد الزحف والطلب، أو الفتوحات، فمن حَجَّ فقد تأهَّل لهذه المهمة.

لذلك فإن من المهم أن يكون الحجُّ للشباب القادرين إذا فرغوا من مناسكه أن يَنْصَبُوا في الجهاد، بينما لا زالت ثقافة كثيرٍ من الشعوب الإسلامية أن الذين يخرجون للحج هم الشيوخ والعجزة، وهؤلاء يَشْقَوْنَ بتلك المناسك، ويُشْقُون القائمين على خدمتهم، حتى إذا عادوا إلى ديارهم تَطَلَّعوا للرحيل من الدنيا وقد غُفِرتْ ذنوبهم، وعادوا أطهاراً كيوم ولدتهم أمهاتهم؛ فهل يعي شبابنا هذا الهدف، ويحرصون على أداء الحج في مقتبل العمر؟!

ولا أدلَّ على صحة هذا الفهم من التعانق بين آيات الحج وآيات الجهاد في مواضعَ من القرآن العظيم، أهمها ستة:

- ففي سورة البقرة أحكام القتال الدفعي أو المقاومة في الآيات (١٩٠ - ١٩٥)، ثم تأتي آيات الحج بعدها مباشرة في الآيات (١٩٦ - ٢٠٣)؛ بل ويعود سياقها لِيتحدثَ عن القتال الذي كُتب عليكم وهو كرهٌ لكم، وأن أعداء كم لا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إِنِ استطاعوا، فضلاً عن قصة طالوتَ وجالوتَ التي تمثّلُ إحدى مرات تحرير فلسطين، وقد جاءتْ مقدمةً لمعركة بدر التي كان فيها عبد الله بن مسعود أشبه بطالوت، بينما كان جالوت قريش هو أبا جهل عليه لعنة الله.

- وفي سورة آل عمران وجوب الحج، ثم بعد مقطع منها يفصِّل السياق كثيراً من أنباء غزوة أُحُدٍ ودُرُوسِها، ويعرِّج بعد ذلك على غزوة بني النضير الذين بيَّتُوا قتل رسول الله، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار؛ فقد بَخِلوا بالشراكة في دية قتيلين، فخسروا أرضهم، وديارهم، وأموالهم، فضلاً عن أنهم يُطَوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة؛ ليذوقوا ما كانوا يكنزون.



- وأما سورة المائدة فقد تحدثت عن بعض أحكام الإحرام، لا سيما الصيد؛ فإن صيد البر محرَّمٌ على المُحْرِم مُوجبٌ للكفارة، وقد جاء ذلك في صدرها، وفي صدر الثلث الأخير منها كذلك، لكنها فصَّلتْ في نكوص قوم موسى عليه السلام عن تحرير فلسطين جُبْناً عن أن يقاتلوا مَنْ فيها من القوم الجبَّارين.

- وكذا الشأن في سورة التوبة التي تحدثت عن الأذان في المشركين يوم الحج الأكبر بأن

يَسِيحُوا في الأرض أربعة أشهر، ومَنْ وجدناه بعد ذلك في الحجاز فليس له إلا القتل والأَسْر، ولسوف نقعد لهم كلَّ مرصد؛ لعلهم يتوبون، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، فَتُخَلُّوا سبيلهم؛ فقد أصبحوا بذلك إخوانكم في الدين، ومهما اشتغل بعض الناس بسقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام؛ فلن يُبارُوا الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ولا عجب أن تكون هذه السورة قد أمرتْ بقتال المشركين، وكذا أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ثم بجهاد عموم الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، خاصة وأنها نزلت بشأن معركة تبوك.



- وأما سورة الحج فقد مهدت بين يدي أحكام الحج وحِكَمِهِ بالإشارة إلى غزوة بدرٍ بوصف الفريقينِ خصمينِ اختصموا في ربهم، ثم بعد التفصيل في أحكام الحج عادتْ لتبيح الدفاع عن النفس؛ لأنه لولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لحصلت الفتنة بتهديم الصوامع والمعابد والمساجد، مؤكدة بالقَسَم لينصرنَّ الله من ينصره.

- وأما سورة الفتح، فقد سجَّلتْ صلح الحديبية بوصفه فتحاً مبيناً، ونصراً عزيزاً، وبَشَّرتْ بفتح خيبر، ودخول مكة من بعدُ، ثم بالانتصار على بني حنيفة بوصفهم قوماً أُولي بأسٍ شديد، تقاتلونهم أو يسلمون، ثم بإظهار هذا الدين على الدين كله، وبَشَّرتْ بدخولنا المسجد الحرام آمنين.

إن من مقاصد الحج التذكيرَ بيوم الحشر، فالحج إتيانٌ من كل فَجٍّ، واجتماعٌ بعرفات، وإفاضةٌ إلى مزدلفة، والاندفاع صبيحتها إلى مِنى، ثم إلى مكة من جديد، وهذا يشبه يوم الحشر، فإنه إذا دعاكم دعوة



من الأرض إذا أنتم تخرجون، ثم يكون الحشر، والانتقال من حالٍ إلى حالٍ ما بين الحساب والميزان، والظلمات والصراط، ثم الاستقرار في مقام أمين في جنات وعيون، كما الحال في المسجد الحرام؛ فإنه البلد الأمين، فاتقوا الله، واعلموا أنكم إليه تحشرون، واتقوا الله الذي إليه تحشرون.

إن اليقين بالله واليوم الآخر هو أقوى سلاح لدى عباد الله أُولي البأس الشديد، ولذلك فشعارهم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ذلك أنه لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، والله عليم بالمتقين، وقد جاء ركن الحج لترسيخ ذلك اليقين بيوم الدين في قلوب المؤمنين.

إن من مقاصد الحج أيضاً ترطيبَ اللسان، وتطمين الجنَان، بذكر الله الكثير عبر التلبية والتكبير، وقد كان من مقاصد الحج أن تذكروا اسم الله على ما رزقكم من بهيمة الأنعام، فقد جعل ربُّنا تبارك وتعالى لكل أمةٍ مَنْسَكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وأمرهم أن يذكروا اسم الله عليها صَوَافَّ، كما أمرهم إذا أفاضوا من عرفات أن يذكروا الله عند المشعر الحرام، وأن يذكروه كما هداهم، وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾، ثم أمرهم أن يذكروا الله في أيام معدودات، هي أيام التشريق الثلاثة، ومن تعجَّل في يومين فلا إثم عليه.

ومن المعلوم أن ذكر الله الكثير من عُدَّةِ النصر، مع الثبات، والصبر، ومع طاعة الله ورسوله، وعدم التنازع؛ لئلا تفشلوا وتذهب ريحكم؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة التي لا تحلق الشعر، ولكنْ تحلق الدين، مع تصحيح النية، وتصويب القصد، فلا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورِئاءَ الناس، ويصدون عن سبيل الله.



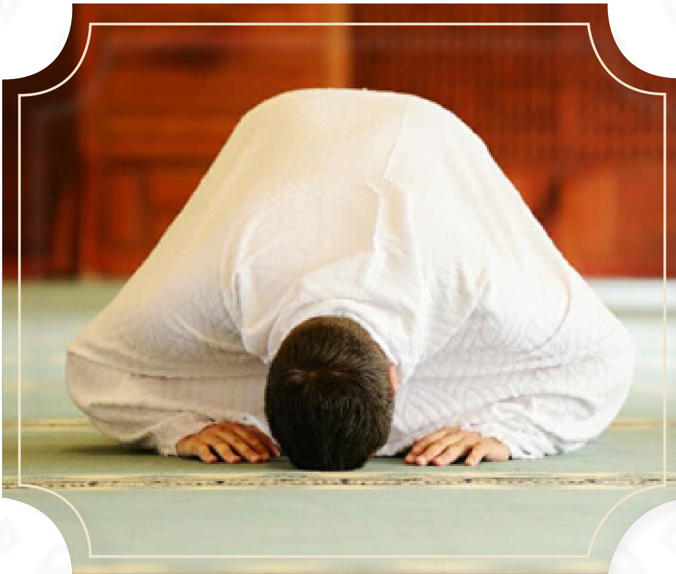
الحج مؤتمرٌ سنويٌّ، تلتقي فيه وفود شعوب الأمة الإسلامية الواحدة، فيتعارفون، ويتعاونون على البر والتقوى، ومن هنا يتحرك صفوف الدعاة، وجيوش الفاتحين، آمّينَ الشعوبَ المغلوبة؛ دفاعاً عن المستضعفين في الأرض، ولكنَّ هذا المقصد قد اضمحلَّ إلى حدٍّ كبيرٍ في حقبة حكومات الحكم الجبري التي آذَنَتْ بزوال، والله المستعان، وعليه التُكْلان.

ومن مقاصد الحج أن نتذكر أطياف سيدنا إبراهيم ﷺ، وأُمِّنا هاجر رضي الله عنها يوم تركها وولدَها إسماعيلَ بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عند بيت الله المحرم، وكيف ركضتْ بين الصفا والمروة سبع مرات فلم تعثر على مغيث إلا الله، فإذا بعين زمزم قد نبعت عند أقدام الرضيع الذي أوشك على الهلاك جوعاً وظمأً، لولا أن تداركه رحمة من ربِّه، والله غالبٌ على أمره.

ثم إن الحجيج يعيشون أياماً بين مكةَ والمدينة، فيتذكرون صبر السابقين إلى الإسلام، وصمود المهاجرين والأنصار في معارك بَدْرٍ، وأُحُدٍ، والخندق، والحديبية، وفتح مكة؛ فضلاً عن زُهاءَ مائة غزوةٍ وسَرِيَّةٍ في الفترة المدنية التي لم تَزِدْ على عشر سنين.

ويأتي يوم عيد الأضحى، ليذكرنا بوجوب اتّباع ملة إبراهيم حنيفاً، وقد أُمِرَ في المنام أن يذبح ولده الوحيد لمَّا بلغ معه السعي، لِيعلّمنا كيف نُضَحّي بأبنائنا في سبيل الله، بل كيف نُضَحّي بأنفسنا، كما ضحَّى أبونا إسماعيل عليه السلام بنفسه حين قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وما أحوجنا إلى هذا الدرس العظيم الذي يمثّلُ غاية الاستسلام لله، مهما كان التكليف عسيراً، إلا على العابدين الخاشعين الذين هم من خشية ربهم مشفقون، وهم من الساعة مشفقون، وهم من عذاب ربهم مشفقون، إن عذاب ربهم غير مأمون!

إن للحج مقصداً أخلاقياً أيضاً، فمن فرض الحج فلا رفثَ، ولا فسوقَ، ولا جدالَ في الحج، ومَنْ حَجَّ فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقُ، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، ومن هنا فإن هذه الأخلاق لازمة للمجاهدين، حتى يكونوا من الكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والمحسنين لمن أساء إليهم، ولَمَنْ صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور.



هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن اجتناب الذنوب من أسباب الانتصار، وإن المعاصي قد تفضي إلى التولي يوم الزحف، فإن الذين تَوَلَّوْا يوم الْتقى الجمعان في معركة أُحُدٍ إنما استزلَّهم الشيطان ببعض ما كسبوا، وإنما ذلكم الشيطان يُخَوِّفكم أولياءه، فلا تخافوهم، فإنما مَثَلُهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً.

ومن مقاصد الحج إظهار الهيبة لهذه الأمة باستعراض كثرة السواد لأتباع هذا الدين؛ فإن زحوف الملايين التي تجأر بالتلبية، وتصدح بالتكبير، تذكر بالمسيرات السلمية، والمظاهرات الاحتجاجية، ومن يرى تلك الجموع، ومن يسمع تلك الصيحات من الطاغين، يتأكد له أن لا قِبَلَ له بهذه الأمة الواحدةَ، فيُلْقي الله الرعبَ في قلوب المعتدين، ويرهب به عدوّه وعدوكم أجمعين.



وفي الحج تَشَبُّهٌ بالملائكة، أولئك الذين يحجون إلى البيت المعمور، ويؤُمُّه سبعون ألفاً منهم في كل يوم، لا يعودون إلى يوم القيامة، وحين نتآخى معهم بالتسبيح والإيمان، يكون من حقنا عليهم أن يكونوا معنا في الميدان، حين يستنفر منهم ربُّنا ألفاً من الملائكة مردفين، أو ثلاثة آلافٍ مُنْزَلين، أو خمسة آلاف مُسَوِّمين، أو ما شاء الله عزوجل؛ فإنهم من الجنود التي لا ترونها، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، ولا تهنوا في ابتغاء القوم، ولا تهنوا وتدعوا إلى السَّلم وأنتم الأعلون، والله معكم، فكأيِّن من نبيٍّ قاتل معه رِبِّيون كثير، فما وَهَنُوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضَعُفوا، وما استكانوا، فآتهم الله ثواب الدنيا نصراً وأمناً وتمكيناً، وحسن ثواب الآخرة مغفرة وجنة ورضواناً.

اللهم أَعِنَّا على تحرير أسرانا ومسرانا، وتحرير جميع أرضك المقدسة والمباركة للعالمين، وعلى نصرة المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها. آمين.

الحج.. المقاصد والعبر



د. حسن سلمان

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

من المسلمات الشرعية أن الإسلام يقوم ويتأسس بنيانه على الأركان الخمسة المعلومة لدى جميع المسلمين، ومنها ركن الحج الذي يُعد الركن الخامس في الإسلام. ومن الواجب شرعاً على المكلَّفين معرفة أحكام الشرع في كل شعيرة قبل القيام بها، وكافة أحكام الشرع لها مقاصد

وحكم وعلل، عَلِمها مَن عَلِمها وجهلها مَن جهلها، وكلما كان المكلَّف عالماً بمقاصد الشارع في الشعيرة المحددة، كان أحرص على الإتيان بها على الوجه المقصود موافِقةً لمراد الشارع في التشريع، والحرص على تنفيذ أحكامها كما أمر بها الشارع؛ لأن مقاصد الشارع مبثوثة بين الأحكام.



وحرصاً منا على معرفة مقاصد الحج -تكميلاً لمعرفة أحكام فقه الحج التي نجدها في كافة كتب الفقه- نكتب هذه المقالة عسى الله أن ينفع بها.

أولاً: تعريف الحج ومشروعيته

الحج لغة: مُطلَق القصد

وشرعاً: هو القصد إلى بيت الله الحرام بنية التعبد لله تعالى في الأشهر الحرم لأداء الركن الخامس في الإسلام، وهو فرض مكتوب وثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]

وقول النبي ﷺ: «بُني الإسلام على خمس» وذكر منهم: «وحج البيت من استطاع اليه سبيلاً»[١].

وأجمعت الأمة على أن الحج ركن من أركان الإسلام، ومَن جحده فهو كافر بالإجماع.

---

١. رواه البخاري ومسلم.

الحج.. المقاصد والعبر

الشعائر الدينية كافة تدور حول مقصد شرعي عام، وهو مقصد التعبد لله تعالى على سبيل الاختيار، وإخراج المكلف عن داعية هواه، كما عبر عن ذلك العلامة الشاطبي بقوله: «المقصد الشرعي من وضع الشريعة، إخراج المكلَّف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً»[٢].



ولكل شعيرة من الشعائر مقاصد جزئية وفرعية تندرج تحت تلك الكلية، ونتناول في هذه المقالة بعض المقاصد التي يشتمل عليها الحج في تفاصيل أحكامه وذلك على النحو التالي.

١. تحقيق التوحيد ونبذ الشرك

وهو أهم المقاصد العظيمة من شعيرة الحج في كل أحكامه، وهو الأساس الأول لبناء البيت الحرام، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ * وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ

٢. تهذيب الموافقات، ص١٥٧.

كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٤-٣٧].



ومن تأمل الأحكام وجد التوحيد متجسداً في كل المواقف فمثلاً:

- التلبية ودلالات التوحيد (لبيك لا شريك لك).
- قراءة الإخلاص والكافرون في ركعتي الطواف.
- التهليل عند صعود الصفا والمروة في السعي.
- الأدعية في عرفات ومزدلفة وكافة المناسك.

ومن خلال عقيدة التوحيد تتشكل الفكرة المركزية الجامعة لهذه الحشود الكبيرة من المسلمين لتقف في مشهد واحد وعلى صعيد واحد، وما أحوج الأمة إلى الفكرة المركزية التي تتمحور حولها حتى يعود لها مجدها وذكرها!

٢. تحقيق التسليم والانقياد

إن من أهم وأعظم الدروس التي يستفيد وينتفع بها المكلَّف من مناسك الحج، درس التسليم والانقياد لكثير من الأمور التي ربما لا يعلم حكمتها أو المقصود منها، لكن يأخذها على سبيل تنفيذ الأمر الشرعي، حتى ولو خفيت الحكمة منها، قال تعالى:



﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]

وهنا نقف على مقولة عمر بن الخطاب وهو يقبّل الحجر الأسود ويقول: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك».

يقول ابن حجر رحمه الله في قول عمر: «وفي قول عمر هذا التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي ﷺ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه»[٣].

ويقول الإمام إسماعيل الأصفهاني رحمه الله: «ومن مذهب أهل السنة: أن كل ما سمعه المرء من الآثار مما لم يبلغه عقله فعليه التسليم والتصديق والتفويض والرضا، لا يتصرف في شيء منها برأيه وهواه»[٤].

ويقول ابن القيم في قاعدة التسليم: «إن مبنَى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم، وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع»[٥].

والقاعدة في عموم العبادات التسليم والتوقف دون الخوض في العلل والحكم، على خلاف المعاملات، بالرغم من أن كثيراً من العبادات معلومة الحكم والعِلل، وممن ذهب إلى ذلك ابن القيم.

---

٣. فتح الباري، (٣/٤٦٣).
٤. الحجة في بيان المحجة (٢/٤٣٥).
٥. الصواعق (٤/ ١٥٦٠–١٥٦١).

وتقوم العبادة على ركنين هما:

- غاية المحبة وكمالها.
- غاية الذل والخضوع والانقياد.

يقول تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] وقال تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤] وهي آية تتوسط أحكام الحج وتعبر عن مقصوده الأكبر.



٠٣ تعظيم الشعائر والحرمات

ومن دروس الحج ومقاصده الهامة: تعظيم الشعائر والحرمات تنفيذاً لأمر الله تعالى، ويبدأ ذلك بمجرد الدخول في الإحرام، حيث يحرم الحاج على نفسه كل ما كان حلالاً عليه قبل الإحرام؛ من طِيبٍ وحلْقٍ ونساءٍ وصيدٍ، وغير ذلك من المحظورات.

كما أن الحاج يقبل على الحج وهو معظماً لنداء الرحمن بالتوجه إلى بيته الحرام، والتحرك في كافة المناسك ذاكراً لله شاكراً له، قال تعالى بعد أن ذكر بعض أعمال الحج: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقال أيضاً عزوجل: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

فالحرمات عند الحاج معظمة لشرف المكان والزمان، والشعائر أجرها مضاعف كذلك، ويقول ابن القيم: «وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت»[٦].



٤. تحقيق محبة الله بمتابعة النبي ﷺ

إن محبة الله تعالى لا تحقق على وجهها المشروع إلا باتباع النبي ﷺ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]، وتعلَّم المسلمون كيفية الحج على التفصيل من خلال حجة النبي ﷺ التي قال فيها: «خذوا عني مناسككم»[٧]. فمن أخذ بما جاء عن النبي ﷺ في الحج فقد أخذ بحظ وافر وحقق المتابعة للنبي ﷺ، وبذلك يحقق محبة الله عز وجل، وذلك لأن المحبة أمر قلبي والدلائل عليها الأعمال الظاهرة.

قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه •• هذا لعمري في القياس شنيع
إن كان حبك صادقاً لأطعته •• إن المحب لمن يحب مطيع

٦. المدراج (٤٩٥/١).
٧. صحيح الجامع.

٥. الحج ذكرى بالمصير الأبدي

ومن العبر المستفادة من سفر الحج والاستعداد له: سفر الآخرة وما يحتاجه من الزاد، وهو ما يلمسه الحاج من الوهلة الأولى التي يفارق فيها أهله، ويودع أصحابه، ويجرد نفسه من هموم الدنيا، مقبلاً بكليته إلى الله قاصداً بيته الحرام، فيخلع عنه ثيابه العادية ويلبس ثياباً جديدة أشبه ما تكون بالكفن، ثم يدخل في التلبية كأنه خرج من القبر ملبياً نداء ربه في أرض المحشر، ويظهر الموقف العظيم يوم عرفة حيث يحشر الناس جميعاً في مكانٍ واحدٍ، وفي لباس واحد وفي زمان واحد، يدعون رباً واحداً.. وهنا مظهر عظيم يباهي الله تعالى بعباده الملائكة.

وهنا تبرز قيمة ودلالة قوله ﷺ: «الحج عرفة»[٨]. لأن موقف عرفة والانتظار فيه يذكر بالموقف العظيم الذي تدنو فيه الشمس من الرؤوس وينتظر فيها الخلائق الانفضاض، ويبحثون فيه عن الشفعاء فلا يجدون إلا محمداً ﷺ، وكأن لحظة الإفاضة من عرفة هي لحظة الانفضاض من الموقف العظيم، فلله ما أعظم هذا الموقف عبرة وعظة! وأعظم زاد في هذه المسيرة هو زاد التقوى، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].



٦. تحقيق الأخوة الإيمانية والوحدة الجامعة بين المؤمنين

٨. رواه أبوداود والنسائي.

- إن شعيرة الحج من أعظم ما يحقق الأخوّة الإيمانية، حيث تتلاشى كافة الفوارق العرقية والإقليمية واللغوية والطبقية والوظيفية، ويقف الناس جميعاً العرب والعجم والأغنياء والفقراء على صعيد واحد بأحكام واحدة تسري على الجميع، وهنا نستعيد ذكرى خطبة النبي ﷺ التي أعلن فيها المساواة الإنسانية وإنهاء الفوارق الجاهلية؛ ليجعل من التقوى فقط معيار المفاضلة، ويجعل من إرداف أسامة بن زيد رضي الله عنه نموذجاً لهذه المساواة، فلما أهدى إليه أحد الزعماء بُردته الخاصة أهداها النبي ﷺ على رؤوس الأشهاد لأسامة، مما دل على المساواة الكاملة بين كافة البشرية، وكان ذلك العام عاماً للحرية والتحرير للعبيد، حيث أعلن أكثر العرب إعلان التحرير لعبيدهم لما رأوا من مشاهد التحرير الكبرى في الحج، وما أعظمها من سجايا وقيم كرمت الإنسانية وأخرجتها من دوائر الطبقية الجاهلية وتفاوتها، وبهذا يكون الحج مؤتمراً إسلامياً عالمياً جامعاً ويستفاد منه في وحدة الأمة ونهضتها.

٧. البراءة من المشركين

إن الحج فريضة توحيدية منذ أن شُرِع، وكلما انحرف الناس بها من التوحيد إلى الشرك جاءت الشرائع لإعادتها إلى روحها الحقيقية، بل وجاءت لمخالفة ما كان عليه أهل الشرك من مناسك تخالف التوحيد، ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «استقرت الشريعة على قصد مخالفة المشركين لا سيما في المناسك»[٩].

---

٩. تهذيب السنن (٣/٣٠٩).



ونلمس هذه المخالفة فيما يلي:

- الخلاف في التلبية، فكانت تلبية المشركين: «إلا شريكاً هو لك تملكه وما مَلَك». بينما وردت تلبية التوحيد: «لبيك لا شريك لك»[١٠].

تحريم الطواف بالبيت من غير سترة، فقد كان الناس في الجاهلية يطوفون عراة إذا لم يجدوا ملابس بمواصفات محددة من قريش، وكان شعارهم:

اليوم يبدو كله أو بعضه •• وما بدى منه فلا أحله

- الإفاضة من عرفات، على خلاف قريش التي كانت تفيض من أطراف الحرم مخالفة بذلك بقية الحجاج، ومكرسة لمفهوم الفوقية القرشية على سائر الناس.
- الإفاضة من عرفات بعد الغروب، خلافاً للمشركين الذين كانوا يفيضون قبل الغروب.
- الدفع من مزدلفة بعد طلوع الشمس، خلافاً للمشركين الذين كانوا يندفعون قبل طلوع الشمس.
- إبطال النبي ﷺ لعوائد الجاهلية ورسومها، كما في خطبة حجة الوداع: «كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع»[١١]. ويقول ابن تيمية رحمه الله تعالى في ذلك: «وهذا يدخل فيه ما كانوا عليه من العادات والعبادات»[١٢].

---

١٠. رواه مسلم.

١١. أخرجه مسلم، كتاب الحج.

١٢. اقتضاء الصراط المستقيم (٣٠١/١).



٨. الحج تربية وتزكية وتحقيق للمراقبة

إن المتأمل للأحكام الشرعية الإيمانية والتعبدية يلاحظ أنها ترتكز على ثلاثة أنواع من المراقبة:

- رقابة ذاتية مكانها القلب والدواخل؛ فالإنسان رقيب نفسه.
- رقابة مجتمعية، يفرضها المجتمع من حولنا.
- رقابة إلهية فوقية، يستشعرها العبد المؤمن.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]. والحج يحقق الرقابة في أعلى صورها؛ فالإنسان رقيب نفسه قبل كل شيء، وينظر إلى الرقابة الإلهية التي يسعى جاهداً إلى أن لا يراه الله تعالى حيث نهاه ولا يفتقده حيث أمره، كما أن رقابة المؤمنين بعضهم لبعض من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعمال النصح لكل مسلم متوفرة في الحج، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

والحج تربية للضمائر والدواخل (الجوانية)؛ فقد جاءت الشريعة بتجريم وتأثيم الإرادة القلبية السيئة في الحرم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]

۞ وأعظم ما يلاحظ في هذا الأمر اختلاط الرجال والنساء في المناسك دون أن يكون هناك مواقع خاصة بالرجال وأخرى بالنساء، وخاصة في الطواف بالبيت، ومع ذلك تبقْى الرقابة ذاتية يراعي فيها الإنسان المراقبة الفوقية (الله جل جلاله) قبل كل شيء.

٩. التربية الأخلاقية

من أعظم الدروس المستفادة من شعيرة الحج، ترسيخ التربية الأخلاقية في أبهى صورها على النحو التالي:

العفة وترك الفسوق والعصيان: وذلك بالابتعاد عن الجماع والمباشرة وكافة المقدمات المؤدية إليه، أو كل ما يؤدي للفواحش والفسوق والعصيان، قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]



- كظْم الغيظ وترك الجدال والمخاصمة، قال تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ﴾.
- إنكار الذات والاندماج في المجموع، وهي حالة حاضرة في كافة مناسك الحج.
- الرفق واللين والسكينة، قال ﷺ: «أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع». (يعني الإسراع)[١٣].
- البذل والسخاء، وذلك بدنياً ومالياً.

١٣. رواه البخاري، حديث رقم (١٦٧١).

- التربية على تحمل تبعة الخطأ، ويظهر ذلك في الفدية.
- التربية على التواضع، وخاصة أصحاب الوجاهات وأهل الدثور.
- التربية على الصبر، لأن الحج هو نوع من الجهاد الذي لا قتال فيه، كما أخبر النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها، وكما جاء عن الحسين بن علي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني جبان، إني ضعيف. فقال ﷺ: «هلم إلى جهاد لا شوكة فيه: الحج»[١٤].



١٠. تحقيق الرباط بين الدين والدنيا

فإن الحج هو مكان للتعبد والتنسك والذكر تهليلاً وتسبيحاً وتحميداً وتكبيراً، كما هو موسم للتجارة وتبادل المنافع الدنيوية، في ربط محكم لا تعارض بينه، قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

١١. التربية على النظام والانضباط

ويظهر ذلك من خلال الضبط الزماني والمكاني والانضباط في الشعائر بمواقيت محددة، دون أي خروج عن المطلوبات الشرعية، وأن الخروج والمخالفة تترتب عليه أحكام لتلك المخالفات، مما يعزز روح الانضباط عامة في حياة الإنسان كلها.

---

١٤. رواه الطبراني في المعجم الكبير، ح/٢٩١٠، رواته ثقات.

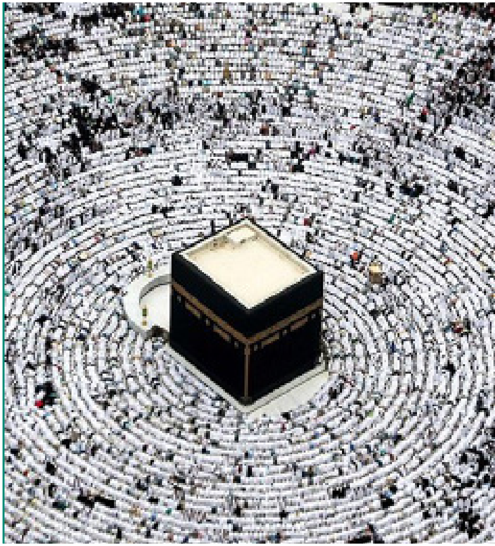
١٢. التواصل مع الأسلاف

وتحقيق الارتباط الوجداني معهم، وتشكيل الذاكرة التاريخية عن مسيرة أهل الحق والإيمان قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وأن الانتساب إلى إبراهيم من قِبل اليهود والنصارى إنما هو ادعاء، وأن المسلمين أولى الناس بالانتساب إليه قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

١٣. التيسير ورفع الحرج

بناء الفريضة على الاستطاعة قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]

وضع الخيارات في النسك وعدم التضييق (إفراد - تمتع - قران) حسب أحوال الناس وظروفهم.



بناء الأحكام كلها على التيسير ورفع الحرج؛ لما جاء عن النبي ﷺ أنه ما سُئل عن أمر قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج»، كما نلاحظ أن التيسير يتخلل الشعائر كلها؛ فركعتي الطواف تتوسط الطواف والسعي، والتروية تتوسط الطواف و السعي وعرفة، ومزدلفه تتوسط عرفة وما بعدها، والتحلل الأصغر يتوسط التحلل الأكبر والإحرام التام، فإن خلاصة الأمر هي: «ساعة وساعة».

جعل عرفة كلها موقف ومزدلفة كلها مكاناً للمبيت ومِنى كلها مكاناً للنحر، قال ﷺ: وقفت ههنا وعرفه كلها موقف.. وقفت ههنا والمزدلفة كلها موقف.. قد نحرت هاهنا ومِنى كلها منحر «وكل فجاج مكة طريق ومنحر»[١٥].



١٤. دور الشقائق

- المرأة مكلفة كما الرجل بشعائر هذا الدين، وهي شريكة الرجل في مسيرته القاصدة إلى الله سبحانه، فهي رفيقة الدعوة والجهاد، وهي الشهيدة والمربية، وفي الحج دروس وعبر عظيمة في دور المرأة وصمودها ومكابدتها وصبرها في شعيرة الحج من خلال ركن السعي، الذي جاءت النصوص معلمة ومخبرة عن دور أم اسماعيل وحالها وهي تسعى بين الجبلين؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «فذلك سعي الناس بينهما»[١٦].

- والمرأة حاضرة في كافة الشعائر الدينية والحياة العملية للمسلمين، ونشير لبعض هذه المعالم فيما يلي:

- الأم سبب عظيم لدخول الجنة لمن أطاعها: «الزمها فإن الجنة تحت أقدامها»[١٧].

- حسن الصحبة ووجوب الاحسان للوالدين والأم خصوصاً، قال الله عز وجل: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

---

١٥. رواه مسلم. ١٦. رواه البخاري. ١٧. صحيح الجامع.

- أن النساء شقائق الرجال؛ فالمرأة نصف المجتمع وصانعة للنصف الآخر، قال رسول الله ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»[١٨].

- وحدة المسئولية بين النساء والرجال. المساواة في النفس الإنسانية. مشاركة المرأة في مسيرة الدعوة؛ فهي أول مَن أسلم وأول شهيدة في الإسلام. مشاركة المرأة في الحج وجوباً وفي الجهاد، استحباباً أو جوازاً وإباحة بحسب الأحوال. عدم الزواج إلا برضاها. المرأة لها ذمتها المالية المنفردة. وظيفة الأمومة والتربية. المشاركة في الشأن العام، بيعةً وشورى، وأمراً بمعروف ونهياً عن منكر وإقامةً للدين.

١٥. الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة



والبر في الشرع يعود إلى معنيين:

١. الإحسان إلى الناس وبذل الخير لهم؛ كما ورد في الحديث: «البر حسن الخلق»[١٩].

٢. التوسع في الطاعات وخصال التقوى وضده الإثم؛ قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

---

١٨. صحيح الجامع.

١٩. رواه مسلم، ح/٢٥٥٣.



والحج المبرور هو الجامع لخصال التقوى والإحسان، وفيهما تجتمع حقوق الله وحقوق العباد، دون تفريط أو إفراط.

١٦. زمزم

وهي المعجزة الخالدة، ومن الآيات البينات القائمة عند الحرم ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٩٧] وهي مستمرة حتى قيام الساعة دليلاً على قدرة الله الباهرة ومعجزته الخالدة.

١٧. الاستغفار

وهو سُنة ماضية عند تمام الأعمال الجليلة؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٩٩]، ويكون الاستغفار نهاية كل عمل جليل كالصلاة والزكاة والحج وغيرها؛ لأن العبد لابد له فيها من تقصير لازَم عبادته وصاحبَها؛ فهو يستغفر الله لسد الفجوة الحاصلة بين المطلوب والمقدور والله المستعان.

١٨. مقامات العبودية

وسورة الحج من السور القرآنية التي تناولت بالتفصيل مقامات العبودية المختلفة في شعيرة الحج؛ كما ورد ذلك في قوله تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٧].



وهذه الآيات تضمنت الخلاصة لما تقدم وما ينبغي أن يبلغه المكلف من مقامات السير إلى الله تعالى، من خلال الأحكام التفصيلية والشعائر المتعددة، وهي كلها مندرجة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تربية الحج على

دخول المعركة



محمد بن محمد الأسطل

باحث في العلوم الشرعية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنَّ العبادات في الإسلام متعاونةٌ متكاملة، ونحن نتفيأ في هذه الأيام ظلالَ ركنِ الحج، وفي خضم المعركة الكبرى التي تعيشها الأمة بين الحق والباطل أردت أن أُسَلِّطَ الضوء على مشاركة ركن الحج بالتربية اللازمة في هذه المعركة.

وأول شيء يقفز إلى الذهن لمن قرأ سورة الحج أنَّ الله تعالى تحدث عن الجهاد في سبيل الله عقب الحديث عن أحكام الحج.

فإذا خُتِمت آيات الحج بالحديث عن المقصد من الذبائح التي جاء الحديث عنها في السورة في بضع آيات بقوله سبحانه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].. فإنَّ ما تلاها مباشرةً هو قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٨-٣٩].

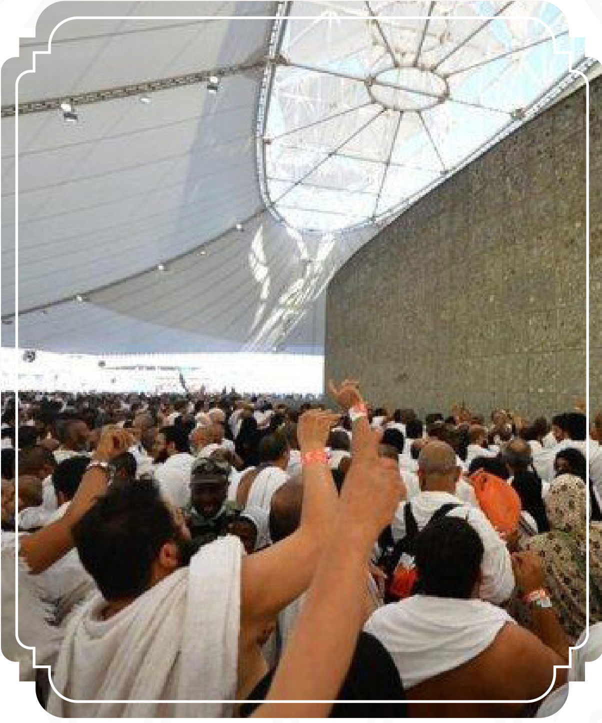
إن الله يدافع عن الذين آمنوا

ولمَّا كانت مناسك الحج كثيرةً فإني أختار نُسُكًا واحدًا وأركز عليه من هذه الزاوية؛ أعني من زاوية مشاركة هذا النسك في التربية الجهادية اللازمة في مناوأة الظالمين والمبطلين، ألا هو نسك رمي الجمار.

وسر الاختيار: أنَّ المعنى المقصود بالتنظير في هذه المقالة يظهر بوضوحٍ فيه من غير وجهٍ، فلا أحتاج لغيره في تقرير المعنى الذي أريد.

وأستفتح القول في ذلك بأهمية هذا النسك في التصور الشرعي، والتي تظهر في أنَّ الحاج يرمي الجمار على مدار أربعة أيام، وذلك من اليوم العاشر حتى اليوم الثالث عشر، بينما نجد أنَّ معظم أعمال الحج تتركز من ظهر اليوم التاسع إلى ظهر اليوم العاشر.

ثم إنَّ الأجر المرصود لرمي الجمار أجرٌ مدهشٌ حقًّا؛ جاء عند المنذري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال -في سياق بيان فضائل المناسك-: «وأَمَّا رَمْيُكَ الْجِمَارَ فَلَكَ بِكُلِّ حَصَاةٍ رَمَيْتَهَا تكفير كَبِيرَةٌ مِنَ الْكَبَائِرِ الْمُوبِقَاتِ الْمُوجِبَاتِ!»[1].



إنَّ عدد الحصيات التي تُرمى لمن تأخر إلى اليوم الثالث من أيام التشريق سبعون حصاة، وهذا يعني أنَّ سبعين كبيرة يُمكن أن تُكفَّر بالرمي فقط!

فهذا يفتح نافذة التأمل لمحاولة اكتشاف سرِّ المسألة.

إنَّ الذي يظهر -والله أعلم- أنَّ ضخامةَ الأجرِ راجعةٌ أولًا لعظيم فضل الله الذي يتنزل على عباده الحجيج، بدليل عظمة الفضل الذي يكاد يُوجد في كل نسكٍ من المناسك، والذي بلغ ذروته أنَّ الله الجليل العظيم سبحانه يدنو من عباده الحجيج الواقفين بصعيد عرفات في ظل نعمة العتق من النار.

روى مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّه لَيَدْنُو ثُمَّ يباهِي بِهِمِ الْمَلَائِكَةَ فَيَقُولُ: «مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ»[2].

---

١. الترغيب والترهيب، رقم الحديث: (١٧٠٩). حسنه الألباني.

٢. صحيح مسلم، رقم الحديث: (٣٣٥٤).

ثم إنَّ بقعة الرمي شهدت إحدى المعارك الحسية مع الشيطان الرجيم رأس الباطل، وهذا الذي أريده في مقالتنا هذه.

روى الحاكم والبيهقي بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا أَتَى إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلامُ الْمَنَاسِكَ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الثَّانِيَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ فِي الْجَمْرَةِ الثَّالِثَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الأَرْضِ».



قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «الشَّيْطَانَ تَرْجُمُونَ، وَمِلَّةَ أَبِيكُمْ تَتَّبِعُونَ»[٣].

فنبي الله إبراهيم رجم الشيطان رجمَ حسٍّ ونحن نرجمه من بعده رجمَ معنى، نرجم رمزيته وحزبه؛ إعلانًا للمفاصلة بيننا وبينه، وإعلانًا للحرب معه ومع حزبه وأوليائه المبطلين.

قد يسأل سائل: أما كان يكفي لتحقيق هذا المقصد أن نرجمه مرةً أو مرتين أو جولةً واحدة في كل جمرةٍ نرمي سبعًا كما صنع نبيُّ الله إبراهيم؟

الذي يقع في الظن أنَّ الشريعة تريد أن تنبهنا على شراسة المعركة، وأن تَنظِمَنا فيها، لندخل في أحداثها بقوة، ولئلا يكون في صدورنا أيُّ قدرٍ من الحنين للباطل أو التعايش معه.

---

٣. السنن الكبرى للبيهقي، رقم الحديث: (٩٩٧٥)، المستدرك على الصحيحين، رقم الحديث: (١٦٦٦).



فهي معركةٌ صورتها الرجم وحقيقتها تفعيل عقيدة الولاء والبراء والدخول بقوة في المعركة بين الحق والباطل، ومنازلة الكفرة والمشركين والمنافقين من غير هوادة.

ويتأكد هذا المعنى في جو تلبيس الحق بالباطل، وضبابية الصورة عند كثيرٍ من الناس؛ لأنَّ الباطل في كثيرٍ من الأحيان يكون معه القوة والسلطة والجاه والمال، ويكون الحق مطاردًا متَّهمًا لا جاه له ولا مال معه.

فهنا تضطرب الأمور ولا يتضح المشهد على وجهه، فكانت هذه التربية الشرعية الواضحة التي تؤذن بوجود عدوٍّ حقيقيٍّ لا بد من حربه، ليعود الإنسان من حجه مجاهدًا في سبيل الله؛ إما بالساعد وإما باللسان أو بالقلم أو بالمال أو بغير ذلك مما ييسره الله لعبده ويفتحه عليه.

فآل رمي الجمار إلى الانتظام في المعركة بين الحق والباطل.

والذي يستفز الحاج ويُسَهِّلُ عليه استحضار هذا المعنى أنَّ النسك يمتد لثلاثة أيام بعد يوم النحر، وأنَّ رجم الجمار مأخوذ من رجم نبي الله إبراهيم للشيطان، فالتذكرة ليست بعيدةً من الأذهان لمن تأمل.

وثمة أمرٌ آخر حصل في هذا المكان يُقوِّي هذا المعنى وإن لم يتَّصِل به اِتّصالًا مباشرًا، وهو أنَّ هذا المكان هو الذي شهد اجتماع بيعة العقبة الثانية، ولا يخفى أنَّ بيعة العقبة الأولى بيعةٌ تربوية، أما الثانية فهي بيعةٌ سياسية، حصل فيها الاتفاق المباشر على أن يستقبل مُسلِمَةُ المدينة مُسلمَةَ مكة، ليلحق النبي ﷺ بهم مباشرة ومن ثم يُعلَنُ عن دولة الإسلام.

والذي يعنينا هنا أنَّ النبيَّ لَمَّا بايع الأنصار على ذلك -بعد أن تلا عليهم شيئًا من القرآن وعرض عليهم الأمر- وإذ بالشيطان يصيح من رأس الجبل: يا معشر قريش؛ هذه بنو الأوس والخزرج تُحالِفُ على قتالكم!

ففزع الأنصار فقال النبي ﷺ: «لا يروعكم هذا الصوت؛ فإنَّما هو عدوُّ الله إبليس وليس يسمعه أحد».

وأمرهم عند ذلك أن ينفضوا إلى رحالهم، وكانت البيعة قد تمت بفضل الله تعالى.

وفي روايةٍ أخرى أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «استمع أي عدوَّ الله، أما والله لَأَفْرُغَنَّ لك»[٤].

فهذه البقعة التي تشهد رمي الجمار ورجم رمزيَّة الشيطان تُذكِّر المسلم بالمعركة مع الشيطان في غير جولة.



مسجد البيعة

وما زال مسجد البيعة قائمًا يمثل تذكرةً للحاج بهذه المحطة المركزية من التاريخ النبوي، ومسجد البيعة مبنيٌّ فوق البقعة التي شهدت اجتماع بيعة العقبة الثانية، ولهذا حمل اسمها، وهو يواجه الحاج حين ينتهي من رمي الجمار ويريد أن يستدير عائدًا إلى خيمته.

٤. السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون لابن برهان الدين الحلبي (٢/١٧٨)، الروض الأنف لأبي القاسم السهيلي (٢/٢٧٢)، الرحيق المختوم للمباركفوري ص (١٢٠).



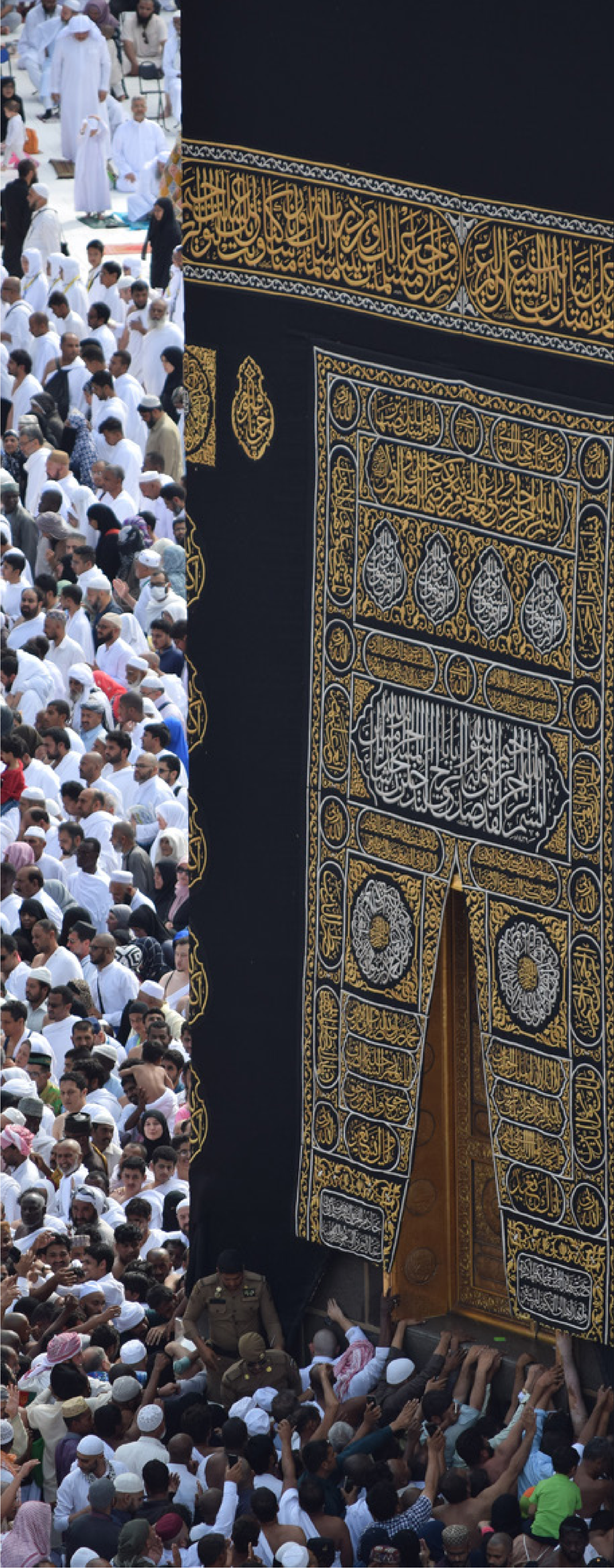
وقيمة هذا المعلم: أنه يُذَكِّرُ بالمحطَّةِ التي انتقلنا فيها من مرحلة الفرد في مكة إلى مرحلة الدولة في المدينة، وهذه إشارةٌ مهمة تقرر أنَّ هذا الدين ليس منزويًا في المساجد، وليس مختبئًا في الصدور، وإنما هو دينٌ ذو نزعةٍ سياسية توسعية، فالدين دعوةٌ ودولة، والنبي ﷺ حين دخل المدينة دخلها بموجب اتفاق البيعة سلطانًا سياسيًّا إلى جانب دخوله لها رسولًا نبيًّا.

فالمعركة إذن ليست منحصرةً في ساحة الأفكار، بل هي معركة تنافس على قيادة هذه الأمة لجميع الأمم، والفتوحات الإسلامية أدل شيءٍ على هذه المعركة، ولهذا يخاف الغرب من أي تقدمٍ إسلاميٍّ ولو لم يشكل خطرًا؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ الإسلام يربي أبناءه على القوة والتوسع، ومعلومٌ أنَّ الدولة التوسعية خطيرةٌ ولو كانت ضعيفة، والدولة غير التوسعية ليست خطيرة ولو كانت قوية.

وصفوة القول:

إنَّ نسك رمي الجمار يجعلك في مواجهة الشيطان وحزبه وجهًا لوجه، لترجع من حجك مجاهدًا في سبيل الله، تردد دومًا: أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك.

هذا والله أعلم، وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد، والحمد لله رب العالمين.



"تعظيم حرمات الله"

عبد الله الطبلوهي

باحث شرعي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد:

- يُقام صرح لهدم الإسلام والخلط بين الأديان تحت مسمى «بيت العائلة الإبراهيمي»، مع دعاية ترويجية ضخمة لذاك الشرك العظيم.

- ويتتابع السفلة المنحطون على الازدراء والتطاول على مقدسات الإسلام وشعائره، تحت شعار الحرية المزعوم.

- وتُحاط الديمقراطية المؤلهة للبشر، المعْرضة عن شريعة الله، وما ينتج عنها من دساتير كفرية وقوانين جاهلية، بهالة من التقديس والتعظيم والتنزيه.

- ويتصدر التنجيم وادعاء علم الغيب وكهانة الأبراج عامة الصحف والقنوات والمواقع الإخبارية.

- ويُفرض باحتفاءٍ الشذوذُ الجنسي والانحطاط الأخلاقي، الذي لم تعرف البشرية ولا البهيمية مثيلا له قط عبر تاريخها.


بيت العائلة الإبراهيمي

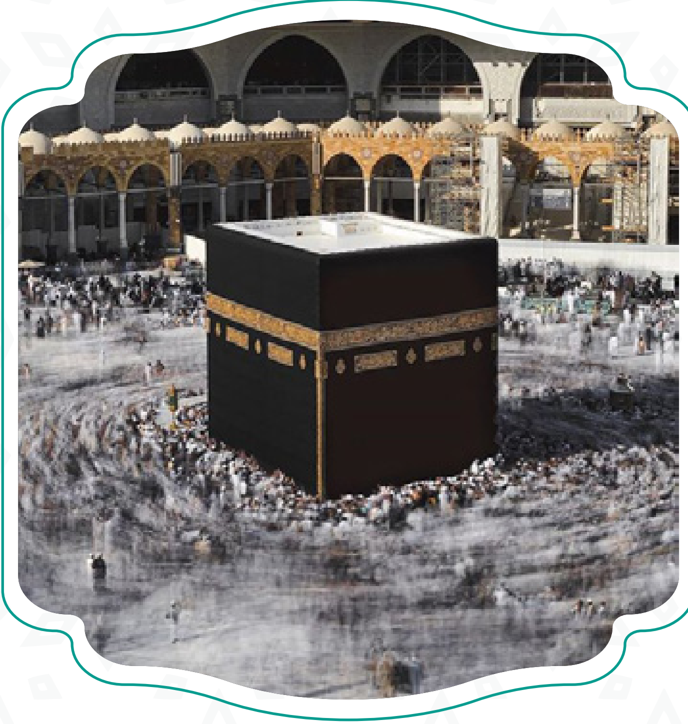
- وتنشط دعوات تحديد النسل وتشجيع الإجهاض وتيسير الانتحار وسحب الأطفال من آبائهم.

- وتغزو الخمور والمخدرات عامة المجتمعات حتى وصلت للقرى النائية، وأصبح تعاطيها طقساً يومياً معتاداً عند كثيرين.

- ويُعتمد الربا كنظام عالمي حاكم للاقتصاد متشعب في عامة مناحي الحياة المالية.

ويقتحم كل ما سبق وغيره على الإنسان عقر داره وعند فراش نومه عبر أجهزة الهاتف الحديثة ووسائل التواصل الاجتماعي؛ ليقدمه له ويروجه بأخبث الأكاذيب الشيطانية.

إنها حضارة جاهلية جهلاء تعمل جاهدة على إضاعة كل الضروريات من الدين إلى النفس إلى العقل إلى النسل إلى المال، وتصر بإلحاح على تطبيع المحرمات حتى تكون جزءاً من حياة الناس اليوم، فتصبح تلك المحرمات محل تقديم وتعظيم لقدر فاعلها.



وأمام ذلك تزداد ظهوراً أهمية مقصد من أهم مقاصد الحج، وهو تعظيم حرمات الله جل وعلا وتعظيم شعائره سبحانه وتعالى، وتعظيم حرمات الله هو كما قال ابن القيم: «ما يجب احترامه وحفظه من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن، فتعظيمها توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة»[1].

وقد وردت الإشارة إلى هذا المقصد المهم في آيات الحج في سورة الحج، قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ * ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ * حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ * ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٢٨ - ٢٣].

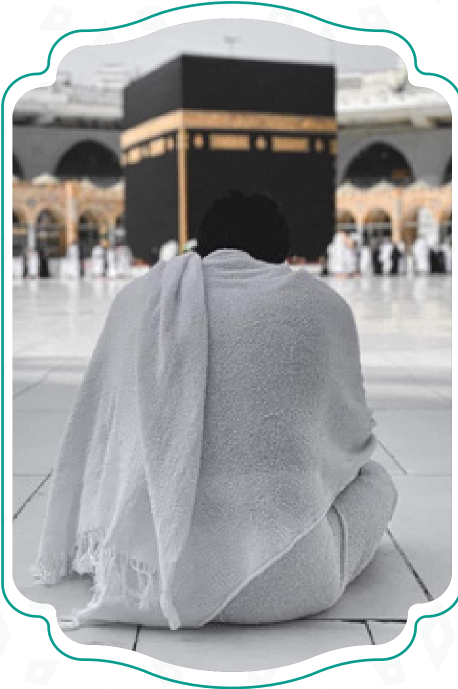
---

١. ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/٧٣.

لذا فإن التذكير في الحج على تعظيم حرمات الله تعالى يؤكد على:

١. أن موسم الحج من أعظم مواسم تعظيم حرمات الله:

فحج بيت الله الحرام من أهم الوسائل التي تعين على تعظيم حرمات الله وشعائره، ففي مكة: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [التوبة: ٣]، براءة جعلت مكة المكرمة حرماً لا يحجها مشرك ولا يدخلها كافر، فتعج تلك البقاع الطاهرة بالتلبية والتكبير والتهليل والتحميد، لله وحده لا شريك له، «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».



وفي الحج يحرص المرء على تمام الطاعة وحسن المتابعة لهدي النبي ﷺ، تعظيماً لأمره ورغبةً في ثواب الله جل وعلا.

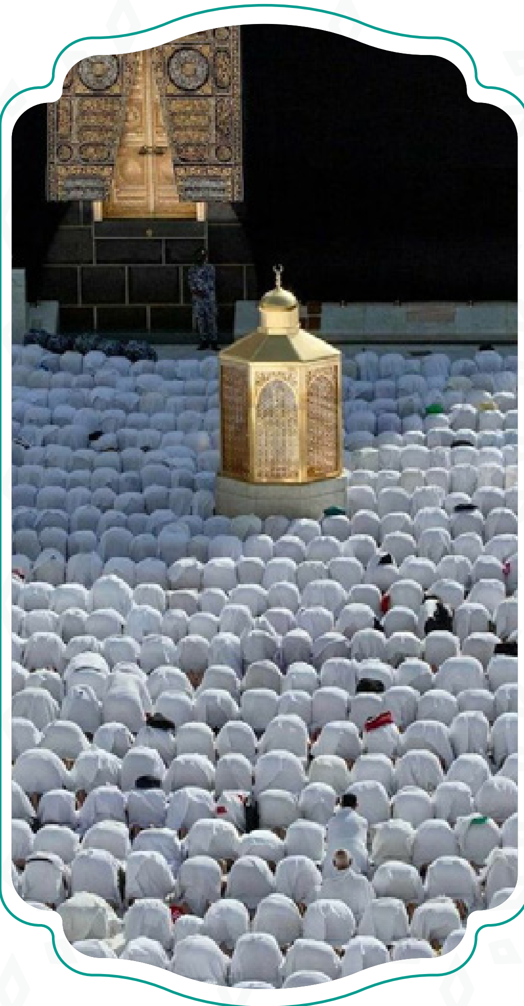
وعند تلك المشاعر المقدسة يزداد المسلم بعداً عن الرفث والفسوق والعصيان، ويخلع المرء ذنوبه ويغتسل من خطاياه ويفارق ما اقترفت يداه، عازماً على العودة من تلك الرحلة المباركة طاهراً مطهراً كيوم ولدته أمه.

٢. أن التحريم والتحليل حق لله جل وعلا لا ينازع فيه إلا مشرك.

فقد قرنت الآيات بين تعظيم حرمات الله، وتحليل الأنعام إلا ما استثني منها، واجتناب الرجس من الأوثان، والإخلاص لله جل وعلا، وعدم الإشراك به سبحانه؛ فقد كان المشركون يحرمون البحيرة

والسائبة والوصيلة والحام، وهي إبل وبقر وغنم على صفات معينة يحرمون ذبحها وأكلها، ويستبيحون الميتة والدم ولحم الخنزير، وهذا التحريم والتحليل منازعة لله جل وعلا في حكمه وشرك في الطاعة، فقد وصف الله جل وعلا من أطاع المشركين في تحليل ما حرمه الله من المطاعم بأنهم مشركون، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

فما تبيحه الجاهلية المعاصرة من المحرمات وما تحرمه من المباحات هو شرك بالله جل وعلا، لا يطيعهم المسلم في تحليلهم ولا تحريمهم مهما زخرفوه بسعار شهواتهم وعفن أهوائهم.



٣. أن تعظيم حرمات الله عبادة من أجلِّ العبادات.

فترك الحرام عبادة، وتعظيم هذا الترك عبادة لها ثوابها وأجرها، وهو خير للمرء ووسيلة لتقوى القلوب.

ويتكون تعظيم الحرمات من:

- تعظيم الحَكَم العدل مالك الملك الذي له الأمر والنهي، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].
- ومعرفة عِظم الأمانة التي كُلف بها الإنسان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

- واستشعار بشاعة وشناعة التجرؤ على ارتكاب المحرمات، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦].

- وبعد عن المعاصي ومفارقة لمسرح وقوعها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

- ومسارعة للندم والتوبة على ما اقترفت اليد من تجاوزات، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

- وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ودفاع عن الحرمات والمقدسات، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

فالقلب المعظم لحرمات الله عندما يرى فشو المحرمات في هذا العصر؛ يتحرك قلبه وتعمل جوارحه بما يستلزمه هذا التعظيم من: حب للطاعة وفرح بها وبغض للمعصية وحزن بسببها، وإقامة في أجواء الإيمان وهجرة من بيئة العصيان، وولاء للطائعين وبراء من المجرمين، ودعوة وتربية وتعليم وجهاد.. مردداً: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

فاللهم احفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا! والحمد لله رب العالمين.

الوحدة والاعتصام
في حج بيت الله الحرام


د. أنس عيروط

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

لا شك أن الاعتصام وتوحيد الصف مقصد من مقاصد الإسلام، بل أصل من أصوله، فإن التكاليف الإلهية التي تتعلق بالعقيدة والعبادات والمعاملات تقوم على هذا الأصل العظيم، وتدعو إليه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهذا الأصل العظيم، وهو الاعتصام بحبل الله جميعًا وألا نتفرق، هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمّه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة»[1].

ولعل هذا المعنى يتجلى في شعيرة الحج أكثر من غيرها، فكل أعمال الحج من وقوف وطواف وسعي وإفاضة ورمي تشير إلى هذا المعنى، فالله عز وجل نادى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يتجمعوا في هذا المكان الطاهر المقدس، قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].



ليس هناك من يجمعهم ويوحدهم في هذا المكان إلا نداء الله وأمر الله، وهناك يلبسون لباساً واحداً، ويطوفون ويسعون سعياً وطوافاً واحداً، ويفيضون إفاضة واحدة، ويلبون نداءً واحداً، ما أعظمها من وحدة واعتصام!

فالحج في حقيقة تشريعه هو المؤتمر السنوي للمسلمين، ولذلك عمد أعداء الإسلام إلى تقييد الحج بالأمور التعبدية فقط، ومنعوا المسلمين من الحديث فيه عن الابتلاءات والنكبات التي تمر بالمسلمين، وبث همومهم وأحزانهم، والتعبير عن آلامهم ونصرة بعضهم البعض، وكذلك الانتصار لهم، فهدفهم من كل ذلك مزيد من التفرقة والتمزيق والتقسيم لهذه الأمة، لذلك علينا أن نسعى لإعادة تمكين الأمة الإسلامية

١. مجموع الفتاوي، (٢٢/ ٤٥٩).

وإزالة تلك الحدود والحواجز، وإلغاء تلك القوانين، ولا يحصل ذلك إلا بتوحيد الكلمة، فنحن متعبدون بتوحيد الصف في كل الأوقات، وفي زمن الحروب والكوارث من باب أولى، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وهناك أسباب جمع الكلمة وتوحيد الصف، من أهمها:

١ التركيز على المتفق عليه في الشريعة والعمل على تقويته، وعدم الاسترسال في الأمور الاجتهادية التي تحتمل الرأي والرأي الآخر بغرض الجدال وانتقاص الآخر.

٢ قراءة التاريخ قراءة استلهام واستفادة، فنستلهم منهم المنهج في إعادة المجد لحضارة الإسلام، فكما تمر الآن الأمة الإسلامية بمرحلة ضعف واستضعاف وتمزق وتفتت فإنها قد مرت بمثلها في الماضي، ولكن على يد المجددين من أهل العلم والجهاد أعيد لها مجدها، وارتقت إلى أعلى الدرجات بين الأمم وأشرقت بحضارتها العريقة بعد ليل أسود دام.

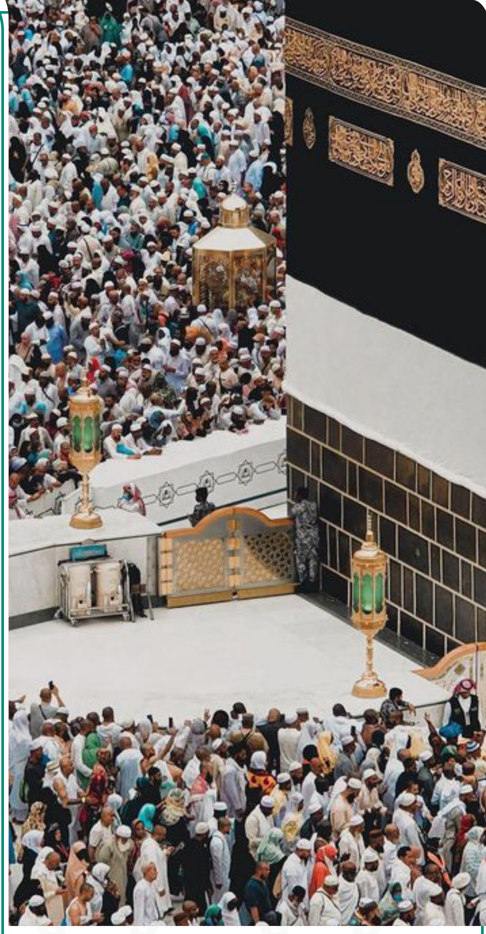


٣ تفعيل الدعوة إلى الله ونشر الفكر الإسلامي الصحيح، فهناك ضعف في هذه الجزئية لا ينكر، إذ الواقع الذي نعيشه من مضايقات وتقييد للدعوة بسبب السياسة العالمية المهيمنة والممنهجة؛ فلذلك يجب أن نعيَ خطورة هذه الممارسات والأجندات المتنفذة، ونعمل على رأب هذا الصدع وسد هذه الثغرة والعمل على تحقيق عالمية الإسلام.

٤ التوعية التعبدية، فلكل عبادة مقصدها الشرعي الذي يصب في فكرة اجتماع الأمة، فالله أمرنا بالعبادات بصيغة جماعية، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقال تعالى في شأن الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فترى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يصومون معاً ويفطرون معاً.

وفي شعيرة الحج: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. فتوحيد الشعائر في وقتها وهيئتها، وعدم مراعاة الفوارق فيه توحيد للصف والكلمة.



والحج الذي تتجلى فيه الوحدة بأجلى صورها وأسمى معانيها، من الوقوف في عرفة ثم الإفاضة والطواف والسعي بحركات محددة وموحدة.. وقد اختتم الرسول ﷺ آخر حياته مع المسلمين في الحج، فكان الصحابة وقد اجتمع بهم وخطب فيهم وقال:

«ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت»، قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد -ثلاثاً- ويلكم، أو ويحكم، انظروا، لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض»[٢].

٢. صحيح البخاري، رقم ٧٠٨٠.

فليعلم العالم أن الإسلام قادم وسيقود العالم، وهذا ما جرى على لسان المفكرين والمتنورين والمتعقلين؛ فهذا المفكر الفرنسي دياسكييه (DEEBCKEEH) يرشح الإسلام كمخلص ومنقذ وحيد للبشرية، فيقول: «ولا شك أن الإسلام هو الوحدانية التي يحتاج إليها العالم المعاصر؛ ليتخلص من متاهات الحضارة المادية المعاصرة، التي لابد إن استمرت أن تنتهي بتدمير الإنسان».



ويقول الأديب العالمي (ليو تولستوي): «أن شريعة محمد ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة».

فديننا الإسلامي دين إنساني يدعو للوحدة وجمع الكلمة، والاعتصام والتلاحم الاجتماعي والديني والسياسي.

أعز الله الإسلام بنا وأعزنا به وأظهره على الدنيا كلها!

عبودية الحج وثمرته


الشيخ حسين عبد العال
عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

ليست العبودية كلامًا يقال، ولا عبارات تُردد، بل العبودية سلوك دائم يجعل العبد خاضعًا ذليلًا لخالقه، وتلك هي العلاقة الطبيعية في العبادة.

فالرب رب والإله إله، وكذلك العبد عبد، ولابد أن يعرف حدود عبوديته فلا يتعداها، وأن يعلم أن العبودية التزام بالأمر، ورضا بالقلب، وذل وحب للمعبود في آن واحد، قال ربنا سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فإذا كان العبد يعترف بأن الله خالق، فلابد أن يلتزم بأمر الله سبحانه وتعالى، يلتزم أمر الله افعل ولا تفعل، دون تدخل بالعقل لقصد الرفض، إذ لا مانع من التدخل لمعرفة العلة بعد التزام الأمر.

توبة بشر بن الحارث



قال ابن قدامة: وحكي أن بشرًا كان في زمن لهوه في داره وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون، فاجتاز بهم رجل من الصالحين فدق الباب فخرجت إليه جارية، فقال: صاحب هذه الدار حر أو عبد؟ فقالت: بل حر! فقال: صدقتِ لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطرب. فسمع بشر محاورتهما فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا وقد ولّى الرجل؛ فقال للجارية: ويحك! مَن كلّمكِ على الباب؟ فأخبرتْه بما جرى، فقال: أي ناحية أخذ الرجل؟ فقالت: كذا.

فتبعه بشر حتى لحقه فقال له: يا سيدي! أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية؟ قال: نعم. قال: أعد عليَّ الكلام. فأعاده عليه، فمرغ بشر خديه على الأرض وقال: بل عبد! عبد! ثم هام على وجهه حافيًا حاسرًا حتى عُرف بالحفاء.

فقيل له: لم لا تلبس نعلاً؟ قال: لأني ما صالحني مولاي إلا وأنا حافٍ فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات[١].

فلقد فهم بشر حقيقة العبودية، وأنها في ترك اللهو المحرم، والاستجابة لأمر الخالق.

فهم بشر ما لم يفهمه إبليس، حين ظن أن الله أمره بعبادة آدم عليه السلام فتكبر ورفض السجود له، والحقيقة أن الله أمره بعبادة الله في الاستجابة لأمره، والصورة هي السجود لآدم عليه السلام.

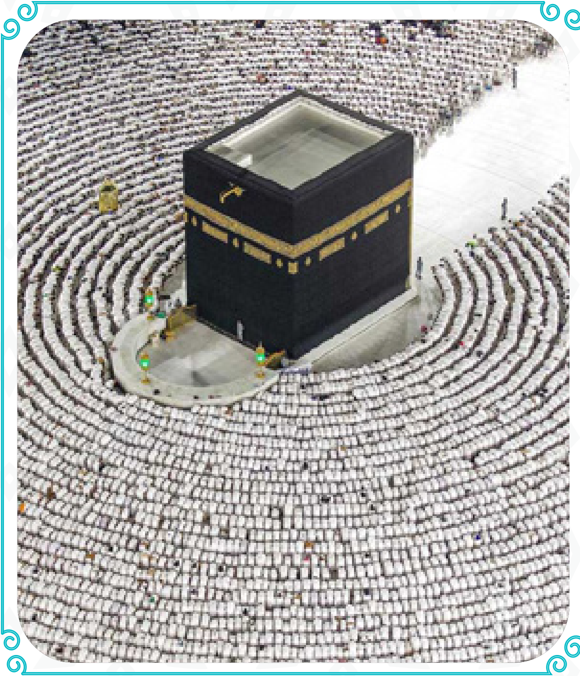
---

١. كتاب التوابين، لابن قدامة المقدسي ص١٢٩.

حقيقة الحج

ومن هنا نفهم حقيقة الحج، فالحج كله تحقيق لعبودية افعل ولا تفعل، ولربما لا يفهم العبد علة الفعل في كثير من المناسك، بل ولا يفهم العلة من الحج كلية، فالحج هو عبادة الله تعالى كما أراد المعبود سبحانه وتعالى، وليس كما يفهم أو يحب العابد، قال ربنا سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود: ١١٢] أي ولا تعدوا أمره إلى ما نهاكم عنه[٢].

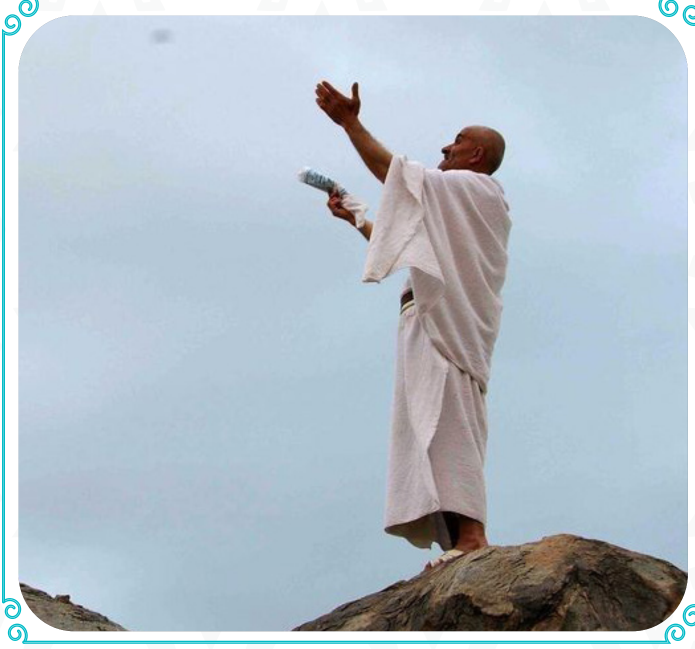
ومن هنا نفهم أن الحج عبودية، والتزام بما أمر الله تعالى، واجتناب لما نهى عنه، فالله تعالى أمر بالحج فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فالعبودية هي الالتزام بالحج كما أمر ربنا، ومن هنا وجب السفر طاعة لله عز وجل، ومصروفات الحج من المال الحلال، والإحرام من الميقات دون أن تتعداه، طاعةً لله سبحانه، والطواف كما أمر الله تعالى، فلا يصح أن تطوف عكس المراد، ولا أن تنقص من عدد الأشواط، كل ذلك من باب السمع والطاعة للمولى سبحانه، والسعي بين الصفا والمروة، دون أن تقول: لم؟ ولا أن تقلل من عدد الأشواط، وأن تقف على عرفات كما أُمرت وأن تنزل متى أمرت، وأن تبيت حيث أمرت، وأن ترمي الجمرات كيف ومتى وحيث أمرت، وأن تزبح وتحلق وتحلل كيف ومتى أمرت، كل ذلك امتثالًا لأمر الله تعالى، فهمت العلة أم لم تفهمها، فتلك هي العبودية.



---

٢. الطبري ج١٥، ص٥٠٠.

وفي ثنايا ذلك ينهانا الله عن شيء مبينًا لنا العلة، لنفهم العلة في باقي المناسك، فينهانا عن قتل الصيد ونحن حرم، بل ويبتلينا بقربه منا، قال ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] ثم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥]



مبينًا أن العلة ليعلم الله من يخافه بالغيب، ومن يلتزم أمر الله تعالى فينتهي عما نهى، وكذلك أعمال الحج، ليعلم الله من يطيع راضيًا منشرح الصدر بتنفيذ أمر الله تعالى، ممن يفعل ذلك -إن فعل- رياء، أو يراه عبثًا ولهوًا، فشتّان بين الفريقين.

ولهذا حج نبينا ﷺ ليبين للناس ما يفعلون، عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَرْمِي الْجَمْرَةَ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ عَامِي هَذَا»[٣].

ومن هنا فهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه معنى العبودية في الحج، وأن عليه فقط أن ينفذ ما أمر به، امتثالًا لأمر الله تعالى، واتباعًا للنبي ﷺ، عَنْ سَالِمٍ، أَنّ أَبَاهُ، حَدَّثَهُ قَالَ: قَبَّلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْحَجَرَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَ وَاللهِ، لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ حَجَرٌ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ»[٤].

---

٣. النسائي، رقم ٣٠٦٢.

٤. مسلم رقم ١٢٧٠.



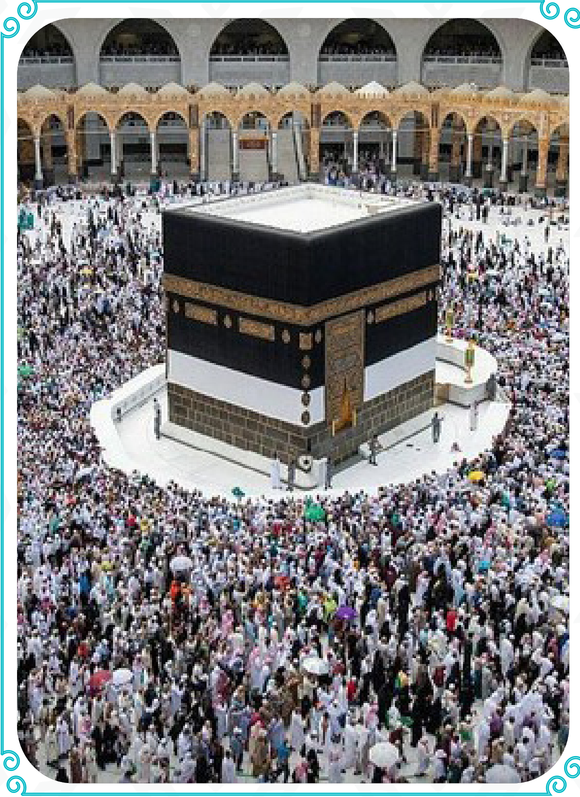
ثمرة الحج

وكما أن لكل عبادة ثمرة، فإن للحج ثمرةً، بل ثمرات أشهى وأحلى من كل فاكهة الدنيا، ومن هذه الثمرات:

تحقيق العبودية لله تعالى، والعبودية هي الاستسلام لأمر الله راضياً مختاراً، غير كاره ولا ساخط، العبودية هي إن ابتلاك الله ببلاء صبرت ورضيت، وإن أنعم عليك بنعمة صبرت وشكرت، نعم صبرت على النعمة فلم تحول بسببها للطغيان، والتعدي على حرمات الله، وشكرت ربك فجعلت النعمة لله تعالى راضياً بذلك، إن ابتلاك بمرض، بفقر، بفقد، أو غيره، صبرت راضياً، لا ساخطاً.

ويتعلم الحاج ذلك من مناسك الحج، فلما يصل الحاج للمكان الذي أسلم فيه إبراهيم عليه السلام لله تبارك وتعالى، وطرح فلذة كبده فيه على الأرض ليذبحه، واستسلم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لأمر الله عز وجل، عندها كانا قد استجابا لأمر الله حقًا، فجاءهما الفرج، وكسبا الأجر، وزيادة من الله تعالى لهما، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [١٠٣-١٠٧]

تحقيق وحدة الأمة، فإن الحاج عندما يذهب للحج يشعر بأن الأمة كلها معه، تلبية واحدة، ومناسك واحدة، ولباس واحد، كل هذا لعبادة رب واحد، وعلى ملة واحدة، وبهدي واحد، سبحان الله، فالذي



وحد كل ذلك سبحانه يريد منا أن نكون أمة واحدة، أمة متماسكة، يعطف بعضها على بعض، وينتصر بعضها لبعض، ويغضب بعضها لبعض، ويفرح ويحزن بعضها لبعض، فليست الوحدة في أسبوع الحج وفقط، بل هي وحدة دائمة بدوام الأمة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

تلك الوحدة التي نادى بها رسول الله ﷺ منذ أن بعثه الله تعالى، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ». قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ[٥].

ولا ننسى كيف آخى بين المهاجرين والأنصار، وكيف جعل بلالًا سيدًا على العرب، بعد كونه عبدًا حبشيًا، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، أَخْبَرَنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا» يَعْنِي بِلَالًا[٦].

كل هذا يشعر بوحدة الأمة، وكون الحاج يرى هذا الجمع اللفيف يشتاق لوحدة الأمة.

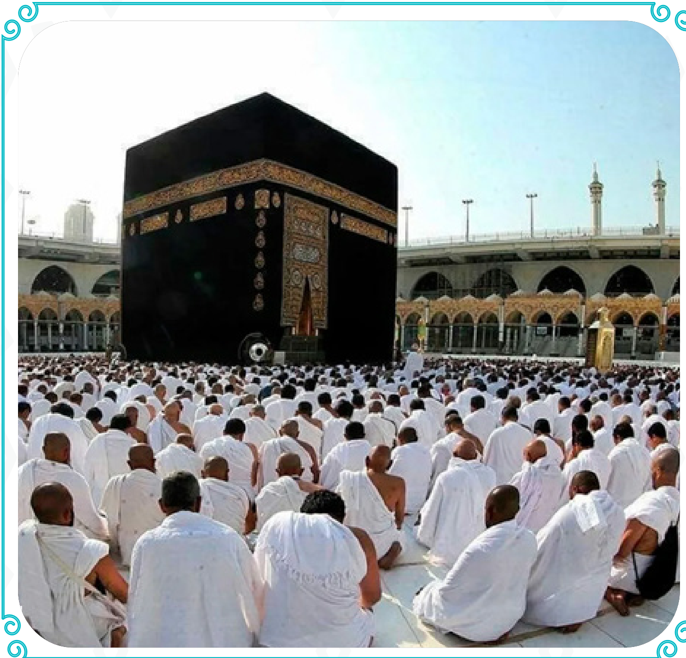
---

٥. مسند أحمد رقم ٢٣٤٨٩.

٦. البخاري، رقم ٣٧٥٤.

تذكُّر القيامة والموقف بين يدي الله تبارك وتعالى، فالحاج بلباسه الأبيض، الذي يشبه الكفن، والجمع الغفير والزحام الشديد، والموقف الواحد، كل هذا يذكر بالحشر، وبالوقوف بين يدي الله تعالى، ومن تذكر هذا سارع بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى.

تعظيم حرمات الله تعالى في قلب العبد، فمن يعظم الشعائر، ويسعى بقلبه قبل جوارحه إلى الله تعالى، يُحرم لله متحريًا الميقات، ويسعى بين الصفا والمروة كما يؤدي الصلوات، ويقف بعرفة في تمام الميقات، وينام ويبيت بمِنى ويستجيب لرمي الجمرات، وينحر ويطوف طواف الإفاضة، بل وكما أُمِرَ يحلق الشعرات، حري بهذا أن يعظم الحرمات، وكما يطيع الله علنًا يطيعه في الخلوات، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠] ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].



التواضع وحب الفقراء، فإن من ثمرات الحج التواضع، فالحاج يبيت كما يبيت الفقراء، ويؤدي النسك مع الفقراء سواء بسواء، لا فرق بين غني وفقير، ولا وزير وخفير، فهذا يورث التواضع، ومن النسك أن يجلس للحلاق ويحلق شعره، تُرى.. لمَ هذا النسك بالذات؟ هكذا أراد وأمر الله تعالى، ليشعر الناس بالتواضع، وأنهم سواسية أمام الله تعالى، ثم ينحر الحاج هدْيه ليطعم الفقراء، فإذا كان الله تعالى فرض عليه ذلك لأجل الفقراء، إذن هو يحب الفقراء، ومن هنا وجب عليه أن يحب مَن أحبهم الله تعالى، فتلك ثمرة من ثمرات الحج.

ذلك هو الحج، وتلك هي العبودية لله تعالى، وتلك هي العبادة التي أمرنا الله تعالى بها، وهي التي عرفها ابن تيمية قدس الله روحه بقوله:

«الْعِبَادَة هِيَ اسْم جَامع لكل مَا يُحِبهُ الله ويرضاه من الْأَقْوَال والأعمال الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة. فَالصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام وَالْحج وَصدق الحَدِيث وَأَدَاء الْأَمَانَة وبرّ الْوَالِدين وصلَة الْأَرْحَام وَالْوَفَاء بالعهود وَالْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر وَالْجهَاد للْكفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَان للْجَار واليتيم والمسكين وَابْن السَّبِيل والمملوك من الْآدَمِيّين والبهائم وَالدُّعَاء وَالذكر وَالْقِرَاءَة وأمثال ذَلِك من الْعِبَادَة. وَكَذَلِكَ حب الله وَرَسُوله وخشية الله والإنابة إِلَيْهِ وإخلاص الدّين لَهُ وَالصَّبْر لحكمه وَالشُّكْر لنعمه وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ والتوكل عَلَيْهِ والرجاء لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْف من عَذَابه وأمثال ذَلِك هِيَ من الْعِبَادَة لله».

وَذَلِكَ أَن الْعِبَادَة لله هِيَ الْغَايَة المحبوبة لَهُ والمرضية لَهُ الَّتِي خَلَق الْخلق لَهَا كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا خلقت الْجِنّ وَالْإِنْس إِلَّا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦]. وَبهَا أرسل جَمِيع الرُّسُل كَمَا قَالَ نوح لِقَوْمِه: ﴿اعبدوا الله مَا لكم من إِلَه غَيره﴾ [الْأَعْرَاف: ٥٩]. وَكَذَلِكَ قَالَ هود وَصَالح وَشُعَيْب وَغَيرهم لقومهم، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَد بعثنَا فِي كل أمة رَسُولا أَن اعبدوا الله وَاجْتَنبُوا الطاغوت فَمنهمْ من هدى الله وَمِنْهُم من حقت عَلَيْهِ الضَّلَالَة﴾ [النَّحْل: ٣٦]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَمَا أرسلنَا من قبلك من رَسُول إِلَّا نوحي إِلَيْهِ أَنه لَا إِلَه إِلَّا أَنا فاعبدون﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن هَذِه أمتكُم أمة وَاحِدَة وَأَنا ربكُم فاعبدون﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٩٢]، كَمَا قَالَ فِي الْآيَة الْأُخْرَى: ﴿يَا أَيهَا الرُّسُل كلوا من الطَّيِّبَات وَاعْمَلُوا صَالحا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عليم * وَإِن هَذِه أمتكُم أمة وَاحِدَة وَأَنا ربكُم فاتقون﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٥١-٥٢]»[٧].

---

٧. كتاب العبودية، لابن تيمية ٤٤، ٤٥

الحج بعد خمسين سنة

عصف ذهني، وأسئلة تحتاج إجابات



د. عبد السلام البسيوني

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

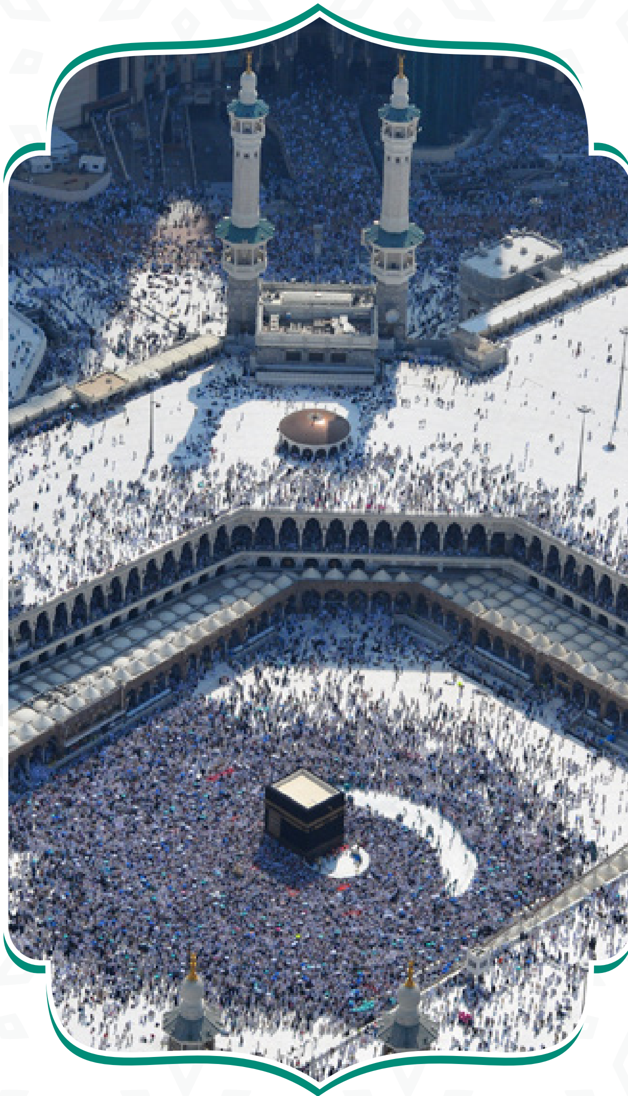
مقدمة ضرورية

الحج ركن من أركان الإسلام، وفريضة لازمة على المستطيع، وشعيرة لا بد من المحافظة عليها، والتعاون على إقامتها، وتيسير السبل لها.

وأعتقد أن (السعودية) قد بذلت من الجهود، والأموال، والخبرات، ما نسأل الله تعالى أن يجعله في موازين مَن أمر بذلك، أو قام عليه، يحس بهذا من أدى الفريضة قبل أربعين أو خمسين سنة مثلي، ثم أداها هذه الأعوام، ليدرك الفرق العظيم. وكلنا يرى التوسِعات، والطرق، والأنفاق، والمرافق، والأموال المرصودة، وجيوش الرعاية للحرمين، وخدمة الحجاج في الموسم.

لكن -مع هذا كله- لا بد من التسليم ببعض الحقائق التي تحتاج موقفًا، ومنها:

زيادة أعداد الحجاج بصورة ضاقت بها منى ومزدلفة -في الأعوام الفائتة- ويكتظ الحرم الشريف بهم، بشكل لافت، لا يمكن إنكاره.



ولمعرفة مدى تصاعد نسبة الحجاج باضطراد، ننقل ما ذكرته وكالة الأنباء السعودية من أن:

- عدد الحجاج سنة ١٩٥٠ كان أقل من ١٠٠,٠٠٠ نسمة.
- ثم تضاعف العدد سنة ١٩٥٥.
- وفي عام ١٩٧٢ بلغ ٦٤٥,٠٠٠ حاج.
- وبلغ الرقم مليونًا لأول مرة في تاريخ الحج سنة ١٩٨٣.

وبسبب هذه الزيادة المضطردة اقترحت منظمة المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٨٨ أن يُتعامل مع حجاج كل دولة بحسب تعدادها.

بناءً على النسب السابقة، يمكننا توقع تضاعف هذه الأعداد، خلال العقود الخمسة القادمة، فإذا كان عدد الحجاج الآن قد بلغ أحياناً ثلاثة ملايين، فهل نتوقع أن يصل إلى سبعة ملايين سنة ٢٠٥٠ مثلاً؟ وإذا صح هذا التوقع، فهل طاقة الحرمين تحتمل هذا العدد؟ أم إننا في حاجة إلى التفاكر، وعصف الذهن؛ لتيسير الأمور للحجاج؛ كما فعل ساداتنا فقهاء السلف، رضي الله تعالى عنهم، الذين كانوا يفترضون النوازل، ويقترحون لها المخارج: (أرأيت لو أن كذا)؟



منذ عقود لا يكاد عام يخلو من كوارث ضخمة، يروح ضحيتها عدد كبير من الحجاج، والمعتمرين، واللائذين بحرم الله تعالى، مع أن الله الحكيم أمرنا في كتابه بتأمين الحجيج، وخدمتهم، والقيام على راحتهم. وكلنا يذكر حريق ١٩٧٥، وحريق منًى قبل ١٩٩٧ -وقد شهدت كلتيهما- وقتلى نفق المعيصم في يوليو ١٩٩٠ عندما قتل ١٤٢٦ حاجاً سحقاً داخل نفق المعيصم قرب مكة، وقتلى عام (١٤٢٤هـ) -وما قبلهما وما بينهما وما بعدهما- وغير ذلك من الأحداث المروّعة المذهلة!

وحتى إذا لم نتوقع الحوادث (اللهم آمين) فسيبقى الزحام شديدًا، وتبقى صعوبة إقامة الصلاة، وأداء المناسك، واختلاط الرجال بالنساء بصعوبة، ويبقى بطء أداء الشعائر؛ داخل الحرم وخارجه، والإنهاك الذي يصيب الناس؛ خصوصًا أيام التاسع والعاشر من ذي الحجة، رغم الجهود المضنية، والأموال الطائلة المبذولة.

ولا بد من التسليم بأن قطاعًا كبيرًا ممن يحجون، يجهلون الشيء الكثير عن الشعائر والمشاعر، ويقعون في أخطاء فادحة، وإساءات مزعجة، قد تفسد حجهم، أو تحرمهم الكثير من أجره، أو تعيدهم إلى بلادهم مأزورين لا مأجورين.

أحسب أن الكلام مع الناس عن الحج بسننه وتفاصيله - بشكل لا يمكن عمليًّا تطبيقه - وحثهم على شيء كالرمل والهرولة وصلاة ركعتين خلف المقام، وما شابه، يحُدث الكثير من الأعطال والخسائر. والواقع العملي يقول إن كثيرًا من هذه التفاصيل قد تُرك، أو تُرخِّص فيه؛ تحت مطارق الواقع والممارسة، وإشكالات الزحام، وعموم البلوى بالجهل.

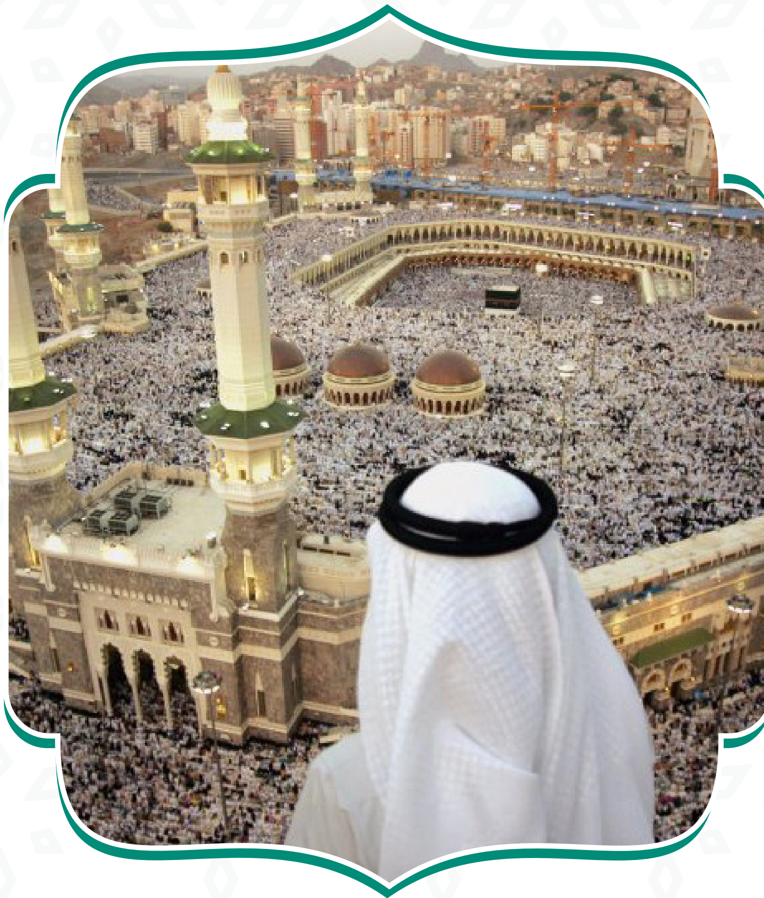


الموسم مناسبة تتأملها كل الأمم، والإساءات فيه تشيع، وتُتَناقل، وتحوَّل ضد الإسلام لا لصالحه، وإذا لم نحسن تعظيم شعائر الله تعالى، وحرماته في الحرمين، وإذا لم نحسن تنظيم الموسم، والخروج بالناس بحج مبرور؛ فما نصيبنا من تقوى القلوب؟ وما حظنا من حسن البلاغ؟ وما معرفتنا بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومنها حفظ الآدميين، وحسن التنظيم، وتيسير الشعائر، وإكرام المشاعر؟

رغم أن أم القرى ينبغي أن تكون أجمل مدن الدنيا لأنها حرم الله تعالى، فإنها أثناء موسم الحج ومواسم العمرة، تكون قذرة، متعبة، مرهقة، مع أن من عواصم الدنيا من يدخله خمسون مليونًا في العام، وتبقى أنيقة مزدهية مزدهرة!

ولا أحتاج أن أقول في هذا المقام إن فريضة الحج -مع التغالي في أثمانها- صارت بعيدة عن متناول فقراء الناس ومتوسطيهم، وصارت في أيدي الأغنياء المتبطرين، الذين لا يحجون -غالبًا- احتسابًا، وتدينًا.

لهذه الأسباب وغيرها استعنت الله تعالى، أطرح هذه الأسئلة على أصحاب الفضيلة من ذوي الفقه، والمعرفة بواقع المناسك والمشاعر، وممن قادوا حملات الحج إرشادًا وخدمة، لعلنا نصل إلى قناعات وحلول ينفع الله تعالى بها، كما استشرفت مشافهة بعض آراء العلامة القرضاوي، والشيخ العالم الكريم حسن عيسى عبد الظاهر، وغيرهما، فوافقوني، فكانت هذه الأسئلة، وهذا العصف الذهني، الذي أطرحه من باب إثارة الفِكَر، واستخلاص العبر، وتوقع ما سيكون - مستدعيًا المدارس الفقهية المختلفة، غير مقتصر على أهل مذهب واحد - فأنا ضد تحجير الإسلام - ولا يعني هذا العصف أنني أتبنى كل ما فيه، أو أنني أرفضه، وأعلم أن كثيرين سيوافقون، وآخرين سيرفضون، وربما غضب فريق ثالث؛ لكن حسبي أن أحرك المياه، وأنبه الأذهان، ليسفر هذا العصف الذهني عن نتائج أرجو ثوابها. وأسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكشف به عن حلولٍ مما ينفع الناس ويمكث في الأرض، اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.



مع الشكر والامتنان، أرجو من فضيلتكم وضع علامة صح أو خطأ، أو الإجابة - بتركيز، واختصار، وتدليل - عن الأسئلة المرافقة:

واقع الناس.. والتوقعات / الأعداد الآن:

السـؤال	نعم	لا	أتوقف
هل ترون معي أن الأعداد كبيرة، وأن الزحام شديد؟			
هل ترون أن الحرم يضيق؛ خصوصًا في الحج، ومواسم العمرة البارزة، كعمرة رجب، وأيام رمضان؟			
هل تتوقعون أن يتضاعف العدد بعد ٣٠ سنة ؟			
هل تعتقدون أن هناك من يُكثرون من الحج والعمرة بشكل زائد؟			
هل ترون تقييد حج السعوديين والخليجيين الذين يستكثرون من الذهاب للحرمين أيام الزحام؟			
هل ترون أن تلتزم الدول بحجة لكل مواطن؛ من باب تيسير الحج؟			
وإذا أراد الحاج التكرار، فبعد كم من السنين؟	٥ س	١٠ س	.. س
هل ترون أن هناك نوعًا من الجهل العام بالأحكام المتعلقة بالحج والعمرة؟ وأن أكثر الحجاج يأتون غير مدركين لما يفعلون؟			

وهل ترون أن الحل يكمن في:

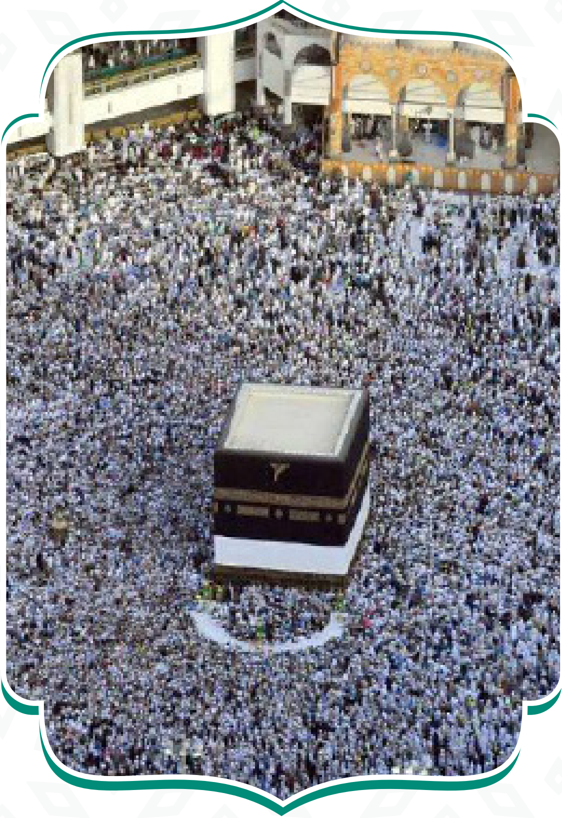
السؤال	نعم	لا	أتوقف
دورات إلزامية للحجاج قبل مجيئهم، يعرفون بها المناسك؟			
عقد هذه الدورات بمعرفة المملكة قبل الموسم، بحيث يدخل الحجاج مبكرين أسبوعًا، يرون فيه المشاعر، وتعقد لهم الدورات في مخيماتهم؟			
منع من تجاوز سنًّا معينة من المجيء؛ باعتبار الشيخوخة - مع الزحام - وتوقع الضرر، من باب عدم الاستطاعة؟			
ضرورة/ عدم ضرورة إلزام المرأة بمحرم يصحبها، من باب التيسير على الحجاج، والتقليل من مشكلات وجود النساء وحدهن؟			
هل تعتقدون أن تكرر الحوادث المروعة في الموسم زائد عن المعتاد؟			
هل تعتقدون أن عدد الحوادث سيتضاعف بتضاعف الأعداد، خلال العقود القادمة؟			
هل تعتقدون أنه كان يمكن تفادي هذه الحوادث؛ بمراعاة بعض الترتيبات والنظم؟			
هل تعتقدون أنه كان يمكن التقليل من حجمها ونتائجها؟			

الذين يموتون دهسًا أو حرقًا أو غير ذلك: ما حكمهم:

لا بد أن يُودَوْا المدهوس جُبار على المفرِّط (المقاول/ الشرطة / الداهسين)؟

إذا كان دم المسلم لا يطل: من ترى يلتزم بدفع ديات القتلى:

بلادهم - المملكة - مجموع الحجاج؛ بأن يفرض على كل حاج ١٠ ريالات مثلاً، لسداد الديات (ويكونون هم العاقلة)؟



واقع المكان / الحرم في وضعه الحالي:

هل هو عملي؟ هل هو ضيق؟ هل هو كافٍ مطلقًا؟ هل هو كافٍ مع تفويج الناس؟

المقام: ليس مكانه الحالي هو مكانه زمن النبي ﷺ، بل قد نقله سيدنا عمر رضي الله عنه - تيسيرًا وتخفيفًا - وأعتقد أنه لا بد من تغيير مكانه؛ لأنه يخنق المطاف، ويشل الحركة في كثير من الأحيان، فهل ترون أن:

السؤال	نعم	لا	أتوقف
يُرجَع لآخر المسجد قريبًا من الصفا، وبعيدًا عن المطاف؛ ما سيمكِّن الناس من الصلاة خلفه، وعدم تعويق الحركة؟			
يزال، ويشار إلى مكانه، كما حصل مع بئر زمزم؟			
يبقى مكانه اتباعًا لفقه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه؟			

يلصق بالكعبة كما كان في عهد النبي ﷺ؟			

(لاحظ: حرص الناس على صلاة ركعتين خلفه، وهو -بلصقه بالكعبة- سيزيد الزحام)

- مبنى الحرم: وأعني به المسجد الحرام كله: بأبوابه ومنائره، وقبابه ومعالمه، وساحاته وطوابقه، ومصاعده وسلالمه، وعمارته القديمة والحديثة، هل هو:

عملي تسهل فيه حركة الحجاج والمعتمرين؟			
أثقلته الفخامة، ونقصت من مرونة الحركة فيه وحوله؟			
ينبغي أن يزال جل المباني، وتبقى المرافق الضرورية، في دائرة قطرها ثلاثة كيلو مترات، وتكون الفنادق، والمباني الأخرى، بعد ذلك			

- فيه مساحات عملية، وأخرى تحتاج تطويراً مثل: المباني والفنادق حول الحرم الشريف: هل هي:

ضرورية لإيواء الحجاج وخدمتهم؟			
لا ينتفع منها إلا القادرون فقط، وسائر الناس محرومون؟			
تبقى، ولا بأس بها؟			
ينبغي أن يزال جل المباني، وتبقى المرافق الضرورية، في دائرة قطرها ثلاثة كيلو مترات، وتكون الفنادق، والمباني الأخرى، بعد ذلك			

- **منطقة منى:**

تضيق عن استيعاب الحجاج بشكل مطرد؟			
الإبقاء عليها بحجمها الحالي أمر مهم؟			
لا بد من توسعتها عن طريق نسف الجبال حولها؟			
يمكن استحداث توسعة رأسية وأفقية؛ لأن الحجيج يستحقون؟			
التوسعة الرأسية هي الحل، عن طريق بناء طوابق مفتوحة وشاسعة تقام عليها خيام، وبها مرافق، وبذلك يمكن مضاعفة المساحة مرتين أو ثلاثًا، ما سيحل المشكلة؟			

- **الجمرات: مشعر تكثر عنده - سنويًّا - الحوادث والإشكالات، وحالات الموت المرعبة، فهل ترون أن:**

الكبارى والطرق غير كافية وتحتاج زيادة، وتخطيطًا جديدًا ؟			
الكبارى والطرق كافية، والأخطاء من التنظيم والإشراف؟			
تُحل مشاكلها برفع الكباري عدة طوابق، وتفويج الناس؟			
بإلغاء الكباري، وتفويج الناس؟			
بتعديد الطرق التي تؤدي إليها؛ حتى لا يأتي الحجاج من طريق واحد؟			

- مزدلفة: ضاقت مزدلفة فعلاً بالحجاج، وخيم الناس على أطراف منى في أعوام سابقة، فهل توافق على أنها:

تضيق عن استيعاب الحجاج بشكل مطرد؟			
الإبقاء عليها بحجمها الحالي أمر مهم؟			
لا بد من توسعتها عن طريق نسف الجبال حولها؟			
التوسعة الرأسية لها هي الحل، عن طريق بناء طوابق مفتوحة وشاسعة، ومرافق كافية؟			

- عرفات: ليس في عرفات أزمة بالمكان - فيما أزعم - لكن:

هل توافقون على أنها لا تضيق؟			
هل تعتقدون أنها ستضيق في المستقبل القريب؟			
هل التوسع فيها ممكن؟			
التلال الصغيرة التي تضيّق المكان: هل تُنسَف وتزال؟			
المعالم الأخرى التي يقصدها العامة في عرفة: هل تزال؟			

- المعالم التاريخية في الحرمين: في مكة المكرمة والمدينة المنورة معالم مختلفة، كانت مسرحًا لأحداث تاريخية فاصلة، يجهل الناس عنها كل شيء، رغم أنها تمس تاريخ دينهم وعقيدتهم، وسيرة نبيهم صلى الله عليه وآله وصحبه، والصحابة الكرام من بعده، ومنها مكان ميلاد النبي ﷺ، وشعاب وتلال مكة، وكذا بيوته ﷺ وأصحابه، والأماكن التي قامت عليها مساجد كالسبق والقبلتين وقباء والغمامة، ومساجد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، والجن، والسقيفة، وثنية الوداع، والآبار المعروفة، وغيرها، فهل:

تُظهَر هذه المعالم لارتباطها بأحداث وأشخاص، ولربط الناس بها، وبالسيرة العطرة؟	
هل تهمل؛ سدًّا للذرائع؟	
هل توضع دلائل عليها مع تنبيه الناس وتعليمهم، فهذا أولى؟	
هل نُظهر بعضها، ونهمل ما يُظن أنه ذريعة لفساد؟	

الأحكام:

لا شك أن النظر الفقهي يتغير بتغير الزمان والمكان والحال والشخص.

ولا شك أنه -في ظل تزايد الأعداد، وضيق المكان، وكثرة الحوادث، وتوقع تضاعف الأعداد، وانتشار الجهل بين الحجيج، والحوادث المتكررة في أماكن بعينها- تحتاج بعض الفتاوى لإعادة نظر، ورؤية فقهية جديدة، تعتمد التيسير والمرونة.

ولا شك أنه قد حصلت تراجعات عن فتاوى تبناها العلماء زمانًا، ثم رئي أنها لم تعد مناسبة؛ لسبب ما، ومن ذلك:



- الرمل في الطواف: فقد بات الزحام الشديد حائلاً دون الرمل في الطواف، بل إن مجرد المشي أثناء طواف الإفاضة أو القدوم أو الوداع -مع الزحام- صار صعبًا، بل صار الإنسان لا يتحكم في خُطاه. أفلا يعد هذا من السنن، التي تركت -غالبًا- تحت طائلة الضرورة؟

(ملاحظة: أنا لا أدعو هنا إلى ترك السنة، أو الاتفاق على تجاوزها؛ بل أقرأ الواقع)!

- الذبح: وقد شهدت بنفسي كيف كان الفقهاء يشددون في لزوم النحر في منى، عند المنحر، فكانت تلالٌ من اللحم المهدر والمنتن تتراكم على مساحة شاسعة، جالبة الهواء الفاسد، والأوبئة، والإزعاج، ثم رئي -بعدُ- إمكانُ الذبح والتبريد والنقل؛ أفلا يعد هذا من السنن التي تُركت -غالبًا- تحت طائلة الضرورة؟

ألم يكن الشرب من زمزم -على اختلاف أشكال عمارتها، وأغطيتها العلوية- سنة لازمة، فلما غطيت، صار الناس يشربون من صنابير، ومبردات منتشرة في أرجاء الحرم؛ أفلا يعد هذا من السنن التي تركت غالبًا تحت طائلة الضرورة؟

ثم لماذا لا نتساهل في عدم المبيت بمنًى يوم التروية، وقد اضطررنا لذلك عامين أو ثلاثة، بعد الحريق الشهير؟ وإذا قلنا إن ذلك كان لضرورة الحريق، فإن ضرورة حماية الحجاج، والتخفيف عن مكة، قد تقتضي هذا وأكثر!

ومما بدأ المعاصرون يميلون إليه – إثر تشديد وتضييق - الرمي قبل الزوال؛ بعد وقوع لعديد من حوادث الدهس الشنيعة، وهو ما أتبنّاه، وأدعو إليه - فهل الحل في رأي فضيلتكم:

الإذن بالرمي قبل الزوال؛ أخذًا بآراء بعض فقهاء السلف، وهو ما استحسنه عدد من المعاصرين؟

....

أم ننبه الناس على اتساع وقت الرمى –بإلحاح– من بعد الزوال، إلى فجر اليوم التالي؛ مع الإبقاء على سنة الرمي بعد الزوال؟ ....

....

أم نترك الأمر للناس مفتوحًا؛ فمن شاء هذا فعله أو ذاك، مع الاحتمال الكبير لاستمرار الحوادث المروعة؟ ....

....

ضيق مزدلفة: ومما تُكلم فيه: ضيق مزدلفة بالناس، واعتبار امتدادها جزءًا منها، فهل:

نلغي هذا الاعتبار، ونمد مزدلفة أفقيًا ورأسيًّا؟..

أم نعتبر هذا المعنى، ويبقى الحال على ما هو عليه؟...

وهل يستتبع هذا الإذنَ للناس بالإفاضة في أي جزء من الليل؟................................

من الأحكام التي تحتاج إلى نظر فقهي:

هذه جملة من الأحكام تحتاج تأملاً وتيسيرًا، حتى لا نحرج الأمة في العقود القادمة، إذا وافقتني فضيلتكم الرأي:

هل نلزم الناس -عن طريق مقاوليهم- بالنزول بالمحصب (أو محال إقامتهم) وعدم تكرار الدخول للحرم، إقامة للسنة، ودفعًا للبلاء، وتخفيفًا من الزحام؟...

....

هل يمكننا اعتماد جدة ميقاتًا، كما ذهب إليه عدد من المعاصرين كابن محمود والقرضاوي؟

....

هل يمكننا استحداث مواقيت جديدة محاذية للمواقيت الحالية، مع تعدد الطرق، وكثرة الواردين؟

....

هل تقبلون بنقل المقام، أو لصقه بالكعبة المشرفة؟...

هل تقبلون بمضاعفة عرض المسعى؟...

مع معرفة أنه ﷺ أدى الفريضة عام حجة الوداع راكبًا، هل تقبلون بميكنة الحرم كله -باستثناء المطاف حول الكعبة مباشرة- لتيسير أداء الشعائر؟ ....

الســـــؤال	نعم	لا	أتوقف
ميكنة الطواف:			
ميكنة السعي:			
ميكنة الرمي:			



هل تقبلون بالقول بالخروج من عرفات قبل الغروب كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء، وكما ورد بعض النصوص: (أي ساعة من ليل أو نهار)؟...

هل تقبلون بالقول بمجرد حط الرحال في مزدلفة ثم الانصراف للتخفيف؟............................

....

هل تقبلون بالقول بالتوسع في الإنابة؟...

هل تقبلون بالقول بتفويج الناس لطواف الإفاضة؟..

هل تؤيدون العمارة الرأسية في منى ومزدلفة؟...

هل تؤيدون نسف الجبال في عرفات، وحول مزدلفة، ومنى؛ عند الاقتضاء؟.......................

هل ترون في تفويج الحجاج مخرجًا لكثير من المشاكل؟...

السـؤال	نعم	لا	أتوقف
تفويجهم للدخول للحرم للزيارة والإفاضة؟			
تفويجهم من عرفة؟			
تفويجهم من مزدلفة؟			
تفويجهم للوداع؟			

أحسن الله إليكم، وجزاكم خير الجزاء، وصل الله، وسلم، وبارك على سيدنا رسول الله، وآله، وصحبه.

الأضحية

شعيرة تربوية



د. سعد الدين حسنين

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

للإسلام شعائر كثيرة موزعة على مدار العام، وهذه الشعائر إما عامة: وتشمل الحج والصيام والزكاة وغيرها، يشترك فيها المسلمون جميعاً، وإما شعائر تخص الفرد في مناسبات معينة خاصة به، وذلك مثل: العقيقة والوليمة والأضحية، وهذه الشعائر لابد من تعظيمها وممارستها، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وتعظيمها يدل على الاستسلام التام والخضوع لله تعالى واتباع سنة رسوله ﷺ.

وبعد انتهاء شهر رمضان تهل علينا شهور الحج، وفيها يستعد الناس لاستقبال موسم الحج وعيد الأضحى، والذي يتميز بذبح الأضاحي فيستبشر المسلمون خيراً بقدومه.



وتفضل الله تعالى علينا بشعيرة الأضحية وجعلها فرحة وتكافلاً ومحبة ونجاحاً اقتصادياً؛ فرحة بالعيد وفضل الله تعالى، وتكافل لما فيها من إشراك الفقير والغني والقريب والبعيد فيها، ومحبة بين الأسر افتقدناها في هذه الآونة، وفيها رفعة ونجاح لاقتصاد البلاد والعباد، ويكون ذلك بالتخطيط للأضحية قبل وقتها بأشهر، فنبدأ بتسمين هذه الأضاحي فتنشط صناعة الأعلاف والتجارة فيها، فيزداد الطلب على الأيدي العاملة والسيارات الناقلة، وتعمل المصانع وتدور حركة اقتصاد البلاد، وتروج الثروات خاصة على الفلاحين الذين يعود عليهم هذا العيد بأموال وثروة ربما تكفيهم طيلة العام؛ فيكون بذلك هذا العيد فرحة كبيرة لهم.. قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]

فالأضحية شعيرة وبرنامج اقتصادي، ويتعلم منها وبها المسلم فقه الادخار، فإذا علم أن الأضحية مستحبة وهي عبادة في وقت معين لا يقوم غيرها من العبادات مقامها، وحض عليها النبي ﷺ بقوله: «ما عمل ابن آدم يوم النحر أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع بالأرض؛ فطيبوا بها نفساً»[١].

١. رواه الترمذي وابن ماجه، قال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في تحقيق مشكاة المصابيح: صحيح.



فيبدأ بالتوفير لشراء ما يُحب الله فيه، وما وصاه به رسوله ﷺ، واتباعاً وإحياءً لسنة أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي هو مثَل أعلى للبشر ورمز التوحيد ومحاربة الشرك.

والأضحية إنما هي توثيق للصلة بيننا وبين سيدنا إبراهيم عليه السلام، كما قال الدكتور الصلابي إن ذكر هذا النبي عليه السلام لابد وأن يكون حاضراً في الذهن، وقد ذكر اسمه في ٢٥ سورة من سور القرآن على مدار ١٧ جزءاً، فيكون الاقتداء به كما أمر ربنا تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]

والأضحية عند المسلم المقتدر الموسر تعني وتعبر عن شكره لله على نعمه المتعدِّدة، منها: نعمة الهُدى، ونعمة البقاء على قيد الحياة من عامٍ إلى عام، ونعمة السلامة والصحَّة، ونعمة التوسعة في الرزق، وهو فضلاً عن ذلك تكفيرٌ لِما وقع من الذنوب، وتوسعةٌ على أسرة المُضَحّي وأقربائه وأصدقائه وجيرانه وفقراء المسلمين.

ومن مقاصد هذه الشعيرة الجميلة والتي يتبعها العيد: التذكير بحق الضعفاء والعاجزين، ومواساة أهل الفاقة والمحتاجين، وإغناؤهم عن ذل السؤال في هذا اليوم، حتى تشمل الفرحةُ كلّ بيتٍ، وتعمّ كل أسرة، ولذلك شُرِعت الأضحية كما شرعت صدقة الفطر.

وبالأضحية يكتمل الجو الإيماني العام؛ فيسهل على الداعية والمدعو أن يقوموا بعملية تغيير أنفسهم وأخلاقهم السيئة أو السلبية وعاداتهم المرفوضة، إلى نفوس نقية للخلق جميعاً، وأخلاق تتشبه بأخلاق نبيهم ﷺ، وعادات إيمانية طيبة، ويخلعوا عن أنفسهم أخلاق وعادات الجاهلية والنفعية، وما يتعلق بحب النفس والرغبة في العلو على الآخرين، وبذلك يصلح الفرد والأسرة والمجتمع.



سبحان الله! المسلم يجد أن الأضحية تمثل أعظم الصور الواقعية للتعاون والتمسك بالمنهج والهدف بين المسلمين شرقاً وغرباً، على الرغم من أنها من السنن المؤكدة ولكن يتهافت المسلمون على أدائها وممارستها ولو في أحلك الظروف؛ ليرتفع بمستوى إيمانه من الأقوال إلى التطبيق العملي للإسلام، والتدليل على وضوح الرؤيا، وعصيان الشيطان الرجيم أكبر الأعداء، وأن البركة تكون بسبب الطاعة قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ [الصافات: ١١٣]

بيت الله الحرام

ومقامات الإكرام

بادية شكاط



كاتبة من الجزائر

قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا﴾ [الكهف: ١١٠]

فالعمل الصالح لقاء بين العبد وربه، بين مملوك أذن له الملِك بأن يصل إلى مقام اللقاء، وهو الذي إن شاء ذَهب به قبل أن يَذْهب إليه، ولا يعجزه ذلك وكل شيء في قبضته وبين يديه.

غير أن الودود أذن له أن يسمع أذانًا يُرفع، بأن الله أكبر من كل جاه وسلطان، وأكبر من كل خوف وحرمان، ليُقبل بقلبه إلى قِبلة ربه وصراطه المستقيم، راكعاً وساجداً، فيصطفيه تبارك وتعالى بنداء ليأتيه إلى بيته الحرام ويلبيه.

قال جلّ وعز: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج ٢٧-٢٩].

إنه البيت الذي شرّفه الله بأن جعل الأفئدة تهوي إليه تاركة جميع الأهواء، التي دارت بالرؤوس كما دارت بالمخمور الخمر في الكؤوس، فتناجي أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين الذي دعاها ثم أراد أن يستجيب دُعاها، فعند بيته جل في علاه تنقطع عن المستكبر أوصال كبره، فيدرك ضآلة حجمه وحقيقة هويته.



فلا زهو هنا بأفخر الثياب، ولا بما لذ وطاب، فالجميع تجرد من كل ذلك وأصبح لا يرجو سوى الفوز بالحسنات التي تورده الجنات، ولا فضل عند بيت الله لغني على فقير، فالفقير من لم يذهب بفقره إلى الله، والغني ذاك الذي لم يستغنِ عن الله، ولا فضل عنده لعربي على عجمي إلا بذكر الله، ولا لأبيض على أسود إلا بالذي قد نجاه الله يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، قال تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران ١٠٦].

ولا تكاثر هنا في الأموال ولا الأولاد ولا الحقائب ولا المناصب، إنما هو التكاثر في الأجور، فتلك التجارة التي لن تبور، فتتحرك كل ذرة من جسد المسلم حول بيت الله الحرام باحتساب ليوم الحساب، وبانعطاف إلى ربه لنيل رحمته وعطفه.



وأما الذكر والأنثى، فالمرأة وإن كانت بوصلة قلبها واحدة كالرجل، إلا أن قالبها بقي المصون عن ما زاغ من العيون، وفي ذاك تجلٍ مشرق لصبغة الله في الحرام والحلال، يجلى به ما غشي الفطرة من زيغ وضلال، كما أنه لا فضل لعربي على عجمي، ولا تباين بين الأعراق والأصول؛ فالكل بربه موصول، بخلاف بقية الأديان التي ترسخ للعنصرية المقيتة؛ فاليهودية مثلاً قد جعلت شعب بني إسرائيل شعب الله المختار الذي منحهم دون العالمين محبته ورحمته، وجعلهم سادة على جميع خلقه، ونذكر من نصوصهم:

«وَمَحَبَّةً أَبَدِيَّةً أَحْبَبْتُكِ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَدَمْتُ لَكِ الرَّحْمَةَ». [ارميا: ٣١:٣]

«وَيَقِفُ الأَجَانِبُ وَيَرْعَوْنَ غَنَمَكُمْ،وَيَكُونُ بَنُو الْغَرِيبِ حَرَّاثِيكُمْ وَكَرَّامِيكُمْ أَمَّا أَنْتُمْ ... تَأْكُلُونَ ثَرْوَةَ الأُمَمِ، وَعَلَى مَجْدِهِمْ تَتَأَمَّرُونَ» [سفر أشعياء: ٦١/٥٦]

وكذلك نجد هذه العنصرية والفوقية متجذرة بعمق في العقيدة المسيحية، حيث إنهم صفوة الخلق عند الله وأولاده الأنقياء الذين خصهم وابنه بالمحبة -تقدس في عليائه وحده لا شريك له- فهو تبارك وتعالى وإن كان خالق البشرية جمعاء لكن أبوته حسب زعمهم لهم خاصة، وبموجبها سيتحمل شقاوته كما يتحمل الأب أبناءه، كما ورد في هذه النصوص:

«لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» [رومية: ٨/١٤].

«الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله ووارثون مع المسيح». [رومية: ٨]

«وأما أنتم فجنس مختار، وكهنوت ملوكي، أمة مقدسة شعب اقتناء، لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب». [١بطرس ٢: ٩]



«وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه» [يوحنا: ١/١٢]، «أيها الأحباء، الآن نحن أولاد الله» [يوحنا].

فكانت لهم بعقيدتهم حظ الحظوة والتميز الإلهي المقدس.

في حين ديننا الإسلامي الحنيف قد جعل الناس سواء ورسالته للناس كافة، حيث يقول تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]

فأصبح بذلك انقياد الإنسان لأداء هذه المناسك أشبه بانقياد مريض لأوامر الطبيب، وأشبه بمن لاح له الفجر بعد ظلام، أو فارق الموات ليعانق الحياة، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [**الأنفال: ٢٤**].

فالحياة الحقيقية هي الحياة الموصولة بالله من خلال أوامره ونواهيه، وبمناجاته والبكاء بين يديه، تلك الحياة التي تجعله يعيش باسم الله ويموت بأن إليه منتهاه، يقول عز وجل: ﴿وأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى * وأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وأنّه هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٢- ٤٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُل إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٢٦١].

فيرتقي بهذا الدين عن البهائمية بكل ما أوتي من إنسانية، أما الذين انقطعت بهم السبل عن سبيله عز وجل فهم في وادٍ من التيه سحيق، غير مدركين ما تركوا من أنوار لها أن تقلب ليلهم إلى نهار.

وفي حديث النبي ﷺ أنه قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبِلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قِيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقُه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِم وعَلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به»».

إنما ينبغي أن يكون غاية كل ذلك مرضاة وجهه الكريم وحده، بما تتشرب الروح والجوارح من منابع الإخلاص، كي يتم قصد النفس من الانعتاق والخلاص، يقول الإمام الغزالي رحمه الله: «ليجعل الحاج عزمه خالصًا لوجه الله سبحانه وتعالى، بعيدًا عن شوائب الرياء والسمعة، وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص، وإنّ مِن أفحش الفواحش أنْ يقصد بيت الله وحرمه والمقصود غيره، فليصحّح مع نفسه العزم وتصحيحه بإخلاصه، وإخلاصه باجتناب كلّ ما فيه رياء وسمعة، فليحذَر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير».

نحو علم
للشمائل النبوية (٣/١)



د. وصفي عاشور أبو زيد

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فالشمائل النبوية هي التي يكون موضوع الحديث فيها رسولَ الله ﷺ خَلقاً وخُلقاً، سيرةً ومسيرة، آداباً وأخلاقاً، وكل ما يتعلق بالنّبي ﷺ، ونحنُ في هذا العصر، وفي هذه الظروف التي يُسَاءُ فيها إلى النّبي ﷺ، وإلى رسالته وإلى المؤمنين[١]، حريٌّ بالمسلمين أن يجددوا إيمانهم بهذا النّبي الأمين، وأن يجدّدوا

١. المقصود هنا هو الأحداث التي جرت في فرنسا، وما قاله الرئيس ماكرون في ربيع الأول ١٤٤٢هـ الموافق أكتوبر ونوفمبر ٢٠٢٠م.

العهد والبيعة مع النّبي ﷺ، وأن يُثبتوا للعالم حقيقةً لا ادعاءً أن المسلمين وحدهم يملكون الدّواء والعلاج لهذه البشرية كلّها، بما لديهم من مصادر غنية، ومن مرجعيّةٍ ثرية تمثل في القرآن الكريم وفي السنة النّبوية المشرفة، وأنّ هذا النّبي شهد له الأعداء قبل الأصدقاء، هذا النّبي قد بلغ من الكمال البشري مالم يبلغه بشر.

ولقد كتب العلماء قديماً وحديثاً عن الشمائل النبوية، وهذه الكّتابات يمكنها أن تشكل فناً علمياً مستقلاً بذاته، من خلال تناول المبادئ العشرة التي ذكرها العلماء للعلوم.

١ علم الشمائل النبوية في ضوء المبادئ العشرة

إذا أردنا أن نتحدث عن الشمائل: الشّمائلُ عِلمٌ من العلوم، كان العلماء يأتون بالشمائل بعد الانتهاء من السيرة النبوية بأحداثها وبمسيرتها، والآن أو بعد أن كانت جزءاً من السيرة النبوية أصبحت علماً مستقلاً ضمن علوم السنّة والحديث الشريف، ونحن سنتناوَلُ الشّمائل من خلال مقدّمة قبل أن نشرع في المقصود بإذن الله تعالى لأهمية هذه المقدمة؛ كمقدمةٍ ضرورية، استكشافية تأصيليّة لما يسمى بالشّمائل النّبوية، نحن كما تعوّدنا في شرح العلوم نعتمد قول العلامة الصبّان الذي صاغ مبادئ العلوم في عشرة مبادئ حيثُ قال:

إن مبادئ كلّ علـم عشرة •• الحدّ والموضـوع ثم الثمـرة
ونسبـة وفضـله والواضـع •• والاسم الاستمداد حكم الشارع
مسائلٌ والبعضُ بالبعض اكتفى •• ومَن درى الجميع حاز الشّرفا

الشمائل كما قلنا علمٌ من علوم السيرة، ومن علوم السنة النبوية في وقتٍ واحد، وإذا بدأنا بالتعريف طبقاً لأبيات العلامة الصبان:



أولاً: حدُّ علم الشّمائل النبوية

الحدّ: هو التعريف، وهو هنا متعلق بالشمائل النبوية، والشمائل: جمع مفردها شميلة، والشميلة هي الخصلة أو الخصيصة أو الطّبع أو العلامة التي يتميز بها المشمول عن غيره، والمقصود هنا المشمول هنا هو: النّبي محمدٌ ﷺ، فالشّمائل النّبوية هو ذلك العلم أو الفنّ في التاريخ أو في السيرة أو في علوم السنّة، والحديث الذي يبحث في أخلاق النّبي ﷺ، وفي خلقته وفي أوصافه، وفي آدابه وفي أخلاقه، وفي صفاته الخلقية، وكلّ ما يتعلق بالنّبي ﷺ.

جاء في موسوعة الشمائل النبوية: «والشمائل النبوية: الخصال الحسنة والطبائع الجميلة التي تتعلق بصفات النبي ﷺ الباطنة والظاهرة، ويدخل في شمائله ﷺ جميع أحواله الحياتية من أسمائه وصفاته الجبلية وصفاته الخلقية»[٢].

ثانياً: موضوع علم الشّمائل النّبوية

موضوع هذا العلم: هو أخلاق النّبي ﷺ، وخِلقة النّبي ﷺ، والآداب، وكيف كان يتعامل؟ كيف كان يعبد الله تعالى؟ كيف كان يتعامل مع نفسه؟ ومع ربه ومع الناس أجمعين؟ هذا هو موضوع علم الشمائل النّبوية.

ثالثاً: مقاصد أو ثمرات سماع الشّمائل النّبوية



الثمرة: ثمرة هذا العلم يعني مقاصد هذا العلم، فوائد هذا العلم، ما العوائد والفوائد والمقاصد التي تعود علينا وتتحقق لنا حينما ندرس أو نسمع عن الشمائل النبوية؟

ونحن باعتبارنا مسلمين «نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله» والبحث في أحوال النّبي ﷺ، وأخلاقه، التي هي جزء من الشهادة التي يدخل بها الناس الإسلام، يعني هي شطر الشّهادة، هي: شهادة التوحيد، تتضمن ركنين: الركن الأول: الشهادة لله بالوحدانية والألوهية والرّبوبية، والركن الثاني: الشّهادة للنّبي ﷺ بالرّسالة، ومن مقتضى هذه الشهادة أن نبحث في سيرة هذا النّبي الذي نشهد أنه عبد الله ورسوله، ومن ذلك بيان الفوائد التي تعود علينا من دراسة شمائله وخصائصه، ومنها[٢]:

- **الفائدة الأولى:** أن نحقق في قلوبنا الشّهادة التي دخلنا بها الإسلام.

- **الفائدة الثانية:** أن معرفة الشمائل والخصائل المصطفوية تزيدنا محبةً للنبي ﷺ؛ فحينما تعرف أخلاق النّبي، صفات النّبي؛ حتى جسد النّبي، وجه النّبي، رأس النّبي، عين النّبي، ذراع النّبي، قدمي النّبي، جسم النّبي، كلّ هذا يقربك من رسول الله ﷺ، يجعلك كأنك تراه رأي العين؛ كأنما أنت تُعايشه وتُعاصره،

٢.همام عبد الرحيم سعيد - محمد همام عبد الرحيم، موسوعة أحاديث الشمائل النبوية الشريفة، مجلة البيان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م: ١/ ٨، وقد استفدنا السرد التاريخي السابق من هذه الموسوعة وغيرها من الكتب، وبالتأمل والبحث الخاص.

وتجلس بين يديه، وترى علامات وجهه عند الرّضا، عند السّرور، وعند الغضب، وعند المشاعر المختلفة، فدراسة الشّمائل النّبوية التي هي الآداب والأخلاق النّبوية هي التي تجعلنا نزداد حُبّاً لرسول الله ﷺ.



- **الفائدة الثالثة:** أيضاً معرفة الشّمائل النّبوية تجعلنا أقدر على اتباع النّبي ﷺ. ونحن مأمورون باتباع النّبي ومأمورون بمحبة النّبي ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف ١٥٧] هذا طبعاً بشأن الأمم السّابقة، فاتّباع النّبي محّمد ﷺ واجب، قبل وبعد بعثته ﷺ، وواجب على هذه الأمة أن تتّبعه.

وهنا وقفة: كيف نتبع النّبي ﷺ؟ ما هي المجالات التي نتبعه فيه، هذا هو موضوع علم الشمائل النبوية، تبين لنا كيف كان النّبي يتصرف؟ كيف كان يفعل؟ كيف كان يتعامل؟ كيف كانت علاقته بالله؟ علاقته بأهل بيته؟ علاقته بأولاده؟ بأحفاده؟ بأبيه؟ وأمه؟ علاقاته أو تعاملاته وتصرفاته في الحياة العامة بشكلٍ عام، حينما نقرأ الشمائل النبوية والآداب المتعلقة بالنّبي محمد ﷺ هذا يبعثنا

٣. ذكرت موسوعة أحاديث الشمائل النبوية الشريفة ثلاث فوائد، هي: تعزيز الإيمان به، أن حبه فريضة ويتحقق بالعلم بالشمائل، وأن الشمائل هي التطبيق العملي للإسلام، انظر: ١/ ٨-٩.

على أن نتبع رسول الله ﷺ في كل أفعاله، وكل أقواله وتصرفاته، وإلاّ فإننا إذا لم نقرأ ذلك ونتمثله نكون بعيدين عن اتباع النبي ﷺ، واتباعُه فرضٌ فرضه الله على هذه الأمّة.



- **الفائدة الرّابعة:** أنّ دراسة الشّمائل تزيدنا إيماناً بالنّبي ﷺ، والمؤمن مأمورٌ بأن يؤمن بالغيب، والنّبي ﷺ بالنّسبة لنا نحن الذين لم نره ولم نصْحَبه، الإيمان به غيب كالإيمان بالله سبحانه وتعالى، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالحياة البرزخية، والإيمان بالجنّة والنّار، لكنّنا حينما نقرأ الشّمائل النّبوية التي تحدث عن خصائص النّبي وأخلاقه وآدابه نقترب من النّبي ﷺ، نقترب منه حقيقةً لا مجازاً، كأنّه يعيشُ معنا، وكأنّنا نعيش معه، كأنّنا نحدثه ويحدثنا، وحينما نقرأ أقواله في كتب السّنة النّبوية كأنّ شخصَ النّبي ﷺ ماثلٌ أمامنا، موجودٌ بين أيدينا، لأنّ هذه الشّمائل وَصفت النّبي ﷺ وصفاً دقيقاً، وصفاً مُفَصّلاً، وصفه به الصّحابة الكرام، وأهل بيته رضوان الله عليهم، فحينما نقترب من النّبي هذا يزيدنا إيماناً بالنّبي ﷺ، ويوثق العلاقة بيننا وبينه ﷺ، يوثق روابط الإيمان، روابط المحبة، وروابط التقدير لهذا النّبي الكريم.

- **الفائدة الخامسة:** أن نعرف الفضل لله سبحانه وتعالى الذي أنعم علينا ببعثة هذا النّبي، وبإرسال هذا الرّسول ﷺ، فالرّسول هو نعمة من الله تعالى علينا وعلى النّاس أجمعين، لما نقرأ هذه الشمائل وتلك الأخلاق، ونعلم أنّ الله تعالى أرسل رسولاً على هذا المستوى من الأخلاق، من الفضائل، من المحامد،

من الشّمائل، من الرّشد، من الحلم، من كل الأخلاق، لا شك أنّ هذا يزيدنا محبةً في الله سبحانه وتعالى، ويجعلنا كذلك نحمد الله عز وجل أن صيَّر لنا هذا النّبي الأمين رسولاً.

ومما زادني شرفا وتيها •• وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي •• وأن صيرت أحمد لي نبيا

اللّهم صلّ وسلّم على سيّدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

- **الفائدة السّادسة والأخيرة:** هي أن دراسة الشّمائل تجعلنا نقف على الجهد الكبير الذي بذله علماء هذه الأمة وبذله أهل الحديث الذين هيّأهم الله تعالى؛ لأن يدوّنُوا كلّ شيءٍ عن رسول الله ﷺ، لم يتركوا صغيرةً ولا كبيرة، لم يتركوا قولاً ولا فعلاً، لم يتركوا تقريراً أونهياً أو أمراً أو أي شيء؛ حتى وصف الشّخص الشّريف نُقِل إلينا من خلال هؤلاء العلماء عن الصّحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فهذا يجعلنا نزداد تقديراً لهؤلاء العلماء، ونحترمهم، ونجلهم، ونضعهم في المكانة اللائقة بهم، وقد نقلوا لنا هذا الشرف، وهذه السّيرة العطرة رضي الله تعالى عن علمائنا أجمعين.



هذا العلم له فضلٌ الفضل، طبعاً واضح أن فضل أي علم يتوقف على موضوع هذا العلم ما يدرس في هذا العلم، وما يدرس في هذا العلم هو: شخصُ النّبي ﷺ، وأخلاقه وفضائله، ولا شك أنّ هذا فيه من الفوائد، ومن المكانة، ومن الشّرف، ومن السّؤدد ما فيه.

رابعاً: نسبة علم الشّمائل النّبوية

نسبة هذا العلم، هل هذا العلم هو علم نقلي أم عقلي؟ علم غايات أم وسائل؟

لا شك أنه علمٌ نقلي؛ لأنّه موقوفٌ على النّقل، على ما نقله الصّحابة بروايتهم الصّحيحة الممحّصة عن النّبي ﷺ، وتناقلته الأمة بعدهم جيلاً بعد جيل، وكذلك هو علم وسائل؛ لماذا علم وسائل؟ لأننا ندرُس هذا العلم لكي تحقق لنا بدراسته أهداف وغايات، وهي التي ذكرناها قبل قليل، الاقتداء بالنّبي ﷺ، محبة النّبي، زيادة الإيمان به، الاعتراف بالفضل لله سبحانه وتعالى... إلى آخر كل هذه الفوائد، فهذه هي نسبة علم الشّمائل.

خامساً: فضل علم الشمائل

ليس هناك من فضل للشمائل النبوية ومدارستها ومطالعتها وقراءتها أفضل من أنه يتعلق بأعظم إنسان عرفته البشرية، إمام الأنبياء وسيد المرسلين، الذي صلى إماما بالأنبياء، فهو إمامهم، وهو سيد أولي العزم من الرسل الذين هم صفوة الأنبياء، وهؤلاء الأنبياء هم صفوة الله من البشرية، فالنبي صفوة من صفوة من صفوة.



ومطالعة هذه الشمائل إذا امتثلها المسلم فإنها تحقق له الاتباع والاقتداء، وهذا هو طريق محبة النبي ﷺ، وبوابة الأجر العظيم والثواب الجزيل.

سادساً: الواضع لعلم الشّمائل النّبوية

من الذي وضع هذا العلم؟ في الحقيقة حينما نتحدث عن من وضع هذا العلم لا يمكن أن نَنسب وضع هذا العلم لواحدٍ بعينه، لأنّ هناك من العلماء الكثيرين جداً الذين أسهموا في هذا العلم، وهناك كتُبٌ لم تصلنا، لكن أبرزها ومن أوائلها «الشمائل المحمدية» لأبي عيسى الترمذي، رحمه الله تعالى، وسيأتي الحديث عنه.

سابعاً: الاسم

عرفنا أنه علم الشمائل النبوية، وقد كان يسمى الشمائل النبوية، بابا من أبواب التصنيف في السنة النبوية، وفي السيرة النبوية، واليوم نطلق عليه «علمًا» بكل اطمئنان؛ لأنه أصبح مستقلا، له مصنفاته وتاريخه وتطوره، وإن كان ضمن علوم السنة النبوية، وعلوم السيرة النبوية.

ثامناً: الاستمداد

أما الاستمداد، فاستُمد من سيرة ﷺ وسنته الشريفة.

تاسعاً: حكم الشّارع في تعلّم الشّمائل النبوية

ما حكم الشارع في تعلم الشمائل النبوية ما هو الحكم التكليف علينا نحن الأمة المسلمة؟

لا أريد أن أفتئت القول وأقول إنّ معرفة هذا العلم واجبٌ على كلّ مسلم، ولكن لا ينزل حكم تعلم الشّمائل النبوية والآداب النّبوية عن المندوب أو المستحب استحباباً مؤكداً، سُنّة مؤكدة في أن يتعرف كلُّ مسلمٍ على رسوله ﷺ، والذي بمعرفة شمائله وأخلاقه وسلوكه يتعرف المسلمون على دينهم.



مخطوطة مزخرفة من أوائل القرن الثامن عشر للشمائل المحمدية منسوخة بالخط المغربي بفاس.

عاشراً: مسائل علم الشمائل

نتعرف إلى أخلاقه إلى آدابه إلى شمائله حتى يتمثل هذه بقدر ما يستطيع في واقعه، نحن نقول إن الموضوع هو: يعني شمائل النّبي ﷺ، خصائص النّبي، أخلاق النّبي، آداب النّبي، لكن المسائل تبقى متعددة ومتنوعة، ومنها مئة وألف عنوان وردت في الموضوع، التي وصلنا إليها الآن، هي عبارة عن مسائل هذا العلم.

ونستكمل في العدد القادم إن شاء الله

أكاديمية أنصار النبي صلى الله عليه وسلم
SUPPORTERS OF THE PROPHET ACADEMY



دورة علمية يقدمها الدكتور/ **حاتم عبدالعظيم**، تتناول الحديث عن زوجات النبي ﷺ، ونسبهن وإسلامهن، وقصة زواج النبي بكل واحدة منهن، وكذلك الحديث عن التعاملات الأسرية في بيوت النبي ﷺ، والقواعد النبوية لبناء البيت المسلم، كما تستهدف رد الشبهات حول تعدد زوجات النبي ﷺ، وبيان الغاية والحكمة من ذلك.

يمكنك الاشتراك في هذه الدورة من هنا

بيوت النبي

16 محاضرة — 8 ساعات

أهداف الدورة

- التعريف بزوجات النبي ﷺ، ونسبهن.
- التعريف بقصة زواج النبي ﷺ بكل زوجة من زوجاته.
- بيان أهم المواقف في حياة كل زوجة من زوجات النبي ﷺ.
- بيان كيف تعامل النبي ﷺ مع زوجاته.
- بيان كيف تعاملت زوجات النبي ﷺ معه كزوج.
- بيان كيف تعاملت زوجات النبي ﷺ فيما بينهن.
- دفع الشبهات حول تعدد زوجات النبي ﷺ.

كيف عاملهم

دورة علمية قدمها ثلة من العلماء المعتبرين تتناول الحديث عن أخلاق النبي ﷺ ومعاملاته مع كافة شرائح الناس، مثل تعامله مع أهل بيته، وأصحابه وأتباعه، وكذلك مع الشرائح الدعوية المختلفة، وكيف كانت أخلاقه مع مختلف أصناف البشر، وحتى مع غير البشر، من الجن والدواب وحتى الجمادات.

أهداف الدورة

- تكوين صورة متكاملة لأخلاق النبي ﷺ، ولكيفية تعامله مع الناس جميعًا.
- بيان كيف تعامل النبي ﷺ مع أهله وأقاربه.
- بيان كيف تعامل النبي ﷺ مع الشرائح الاجتماعية المختلفة.
- بيان كيف تعامل النبي ﷺ مع الشرائح الدعوية المختلفة.
- بيان كيف تعامل النبي ﷺ مع عموم النساء وكبار السن والصغار.
- بيان كيف تعامل النبي ﷺ مع غير البشر.
- بيان مركزية الأخلاق في الإسلام.
- تعميق محبة النبي ﷺ في قلوب المسلمين.
- تعظيم قيمة الاقتداء بالنبي ﷺ في قلوب المسلمين.
- بيان الأسس النبوية لبناء البيت المسلم.



22 محاضرة — 10 ساعات

كيف عاملهم

الدورات العلمية القادمة



السيرة النبوية



غزوات النبي ﷺ



فـقـه الزكـاة

لمتابعة كل جديد يرجى الاشتراك في صفحات التواصل الاجتماعي

@ansaracademy_

مناشط الأكاديمية في شهر رمضان



أكاديمية أنصار النبي صلى الله عليه وسلم

SUPPORTERS OF THE PROPHET ACADEMY











- ندوة هدي النبي في شعبان.
- برنامج هدي رسول الله في رمضان.
- دورة فقه الصيام.
- ندوة الاستثمار الأمثل لرمضان.
- ندوة هدي النبي في العشر الأواخر من رمضان.
- ندوة زكاة الفطر؛ الحِكَم والأحكام.

مساحة إعلانية



سلسلة السيرة النبوية

الشيخ د. محمد الصغير

رئيس الهيئة العالمية
لنصرة نبي الإسلام ﷺ

استعراض لوقائع السيرة النبوية التي نحتاجها في واقعنا المعاصر

- من نبعته إلى بعثته ﷺ
- من بعثته إلى هجرته ﷺ
- من هجرته إلى وفاته ﷺ
- الغزوات النبوية



سلسلة السيرة النبوية الفرنسية

محمد إلهامي

عضو الأمانة العامة
للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

استعراض لسيرة النبي ﷺ من خلال دراسات ومؤلفات المستشرقين والمؤرخين الفرنسيين، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾

- السيرة النبوية الفرنسية

مساحة إعلانية



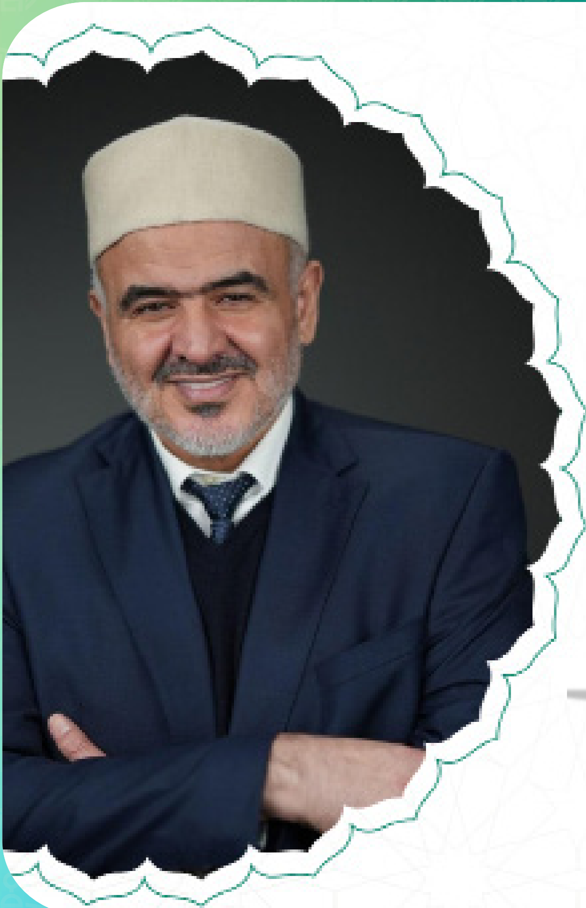
سلسلة شرح كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى

الشيخ د. عبد الحي يوسف

عضو مجلس أمناء
الهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

وقفات مع الكتاب الأفخر الأشهر للقاضي عياض، للتعريف بحقوق النبي ﷺ والواجب على أمته نحوه.


سلسلة شرح كتاب الشفا



كتاب السيرة النبوية بعدة لغات

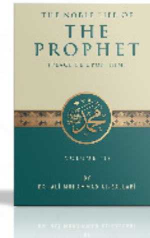
الشيخ د. علي محمد الصلابي

المؤرخ الإسلامي



١ ٢





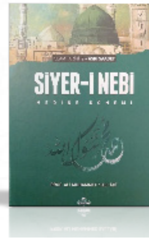
١ ٢ ٣





١ ٢





١ ٢



مساحة إعلانية



الأرجوزة الميئية في ذكر حال أشرف البرية

التعليق على الأرجوزة الميئية في ذكر حال أشرف البرية لابن أبي العز الحنفي

تعليق الشيخ: مختار بن العربي مؤمن الجزائري الشنقيطي

عضو مجلس الأمناء

للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

 الأرجوزة الميئية في ذكر حال أشرف البرية



كتاب رياض الصالحين

للإمام النووي (صوتيا)

زبدة أحاديث السنة النبوية كما جمعها الإمام الكبير محيي الدين شرف النووي

بصوت الدكتور: بسام صهيوني

عضو مجلس الأمناء

للهيئة العالمية لنصرة نبي الإسلام ﷺ

 رابط الكتاب المسموع

 يمكنك تحميله كتطبيق على الهاتف من هنا

أئمة الهدى

﴿قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾

•• من تراث علمائنا الراحلين ••

لبَّيك اللهم لبيك



الإمام الشهيد حسن البنا

رحمه الله*

ما أجلّ عظمة الربوبية، وما أعظم فضل الألوهية، وما أجمل أن يتفضل الله على عباده فيدعوهم إلى بيته العتيق؛ ليغفر ذنوبهم، ويطهر قلوبهم، ويضاعف أجورهم، ويجدد أرواحهم، ويمنحهم من فيض فضله ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وما أجمل أن يتفتح قلب المؤمن على هذا النداء العلوي، ويتلقاه كما تتلقى الزهرة الناضرة قطرات الندى؛ فيحيا به ويسعد، ويتجهز من فوره لإجابة دعوة الله والانضمام إلى وفده الكريم، مهاجرًا إلى حرمه المقدس وبيته الأمين، هاتفًا من أعماق قلبه: لبيك اللهم لبيك.

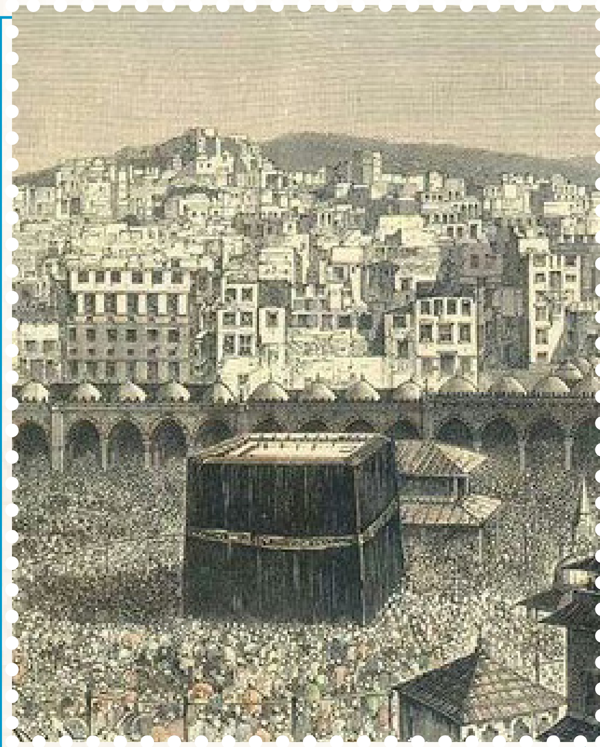
---

* المقال يجمع كلمات متفرقة عن الحج للأستاذ الشيخ حسن البنا، منشور بموقع: (إخوان أونلاين)، ٢٠٢٢م، بعنوان: حديث الإمام البنا عن فريضة الحج والعمرة.

أيها الأخ الكريم، إن كنت ممن سمعوا هذا النداء فأجابوا الدعاء، وقُدِّر لهم أن يكونوا في وفد الله تبارك وتعالى؛ فاعلم أنها غرة السعادة، وفاتحة الخير كله، وعنوان رضوان الله، فما دعاك إلا وهو يحبك، وما ناداك إلا ليمنحك، ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فَهَنِّئ نفسك بهذا الفضل المبين، وتقبل منا تهنئة الإخوان المحبين، وسترى في هذه الكلمات صورة موجزة من السنة المطهرة في أداء الفريضة، فاذكرنا بصالح الدعوات في تلك الأوقات الكريمة والأماكن المشرفة، وإن حالت دون ذلك الحوائل فصاحب الحجاج بقلبك، ورافقهم في أداء المناسك بروحك، فإن لك مثل ثوابهم إن شاء الله، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد القائل لأصحابه ما معناه: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم». قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «حبسهم العذر».

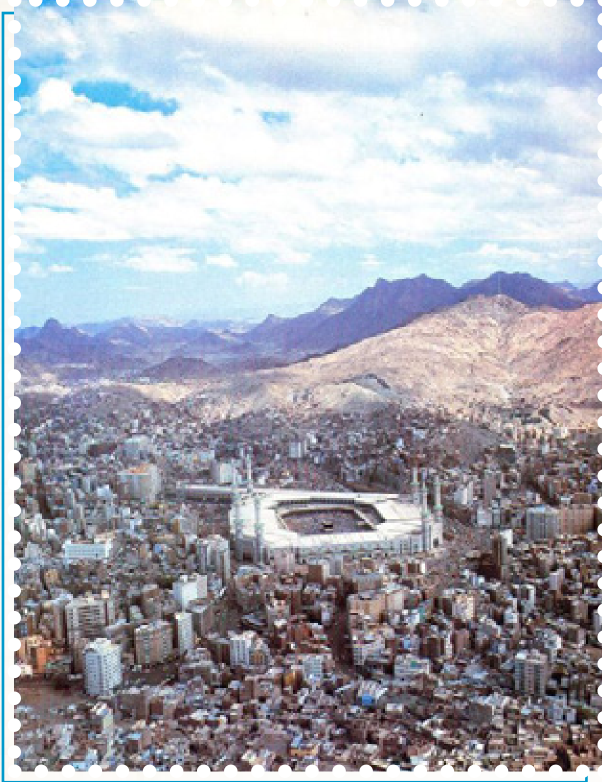
وفقنا الله وإياك إلى حج بيته، وزيارة رسوله، وكتب لنا ولك القبول.



الحج والعمرة في الإسلام

الحج فريضة من فرائض الله، أمر بها عباده وكلَّفهم أداءها، وأعد لهم جزيل الثواب إن فعلوها، وتوعد بأشد العقوبة من تركها، وهو عليها قادر ولها مستطيع، وهو ركن من أركان الدين الخمسة، يتم بتمامه وينقص بنقصه،

وهو من بين هذه الأركان عبادة العمر وتمام الأمر، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقد وردت بذلك آيات الكتاب الكريم وأحاديث الرسول العظيم، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].



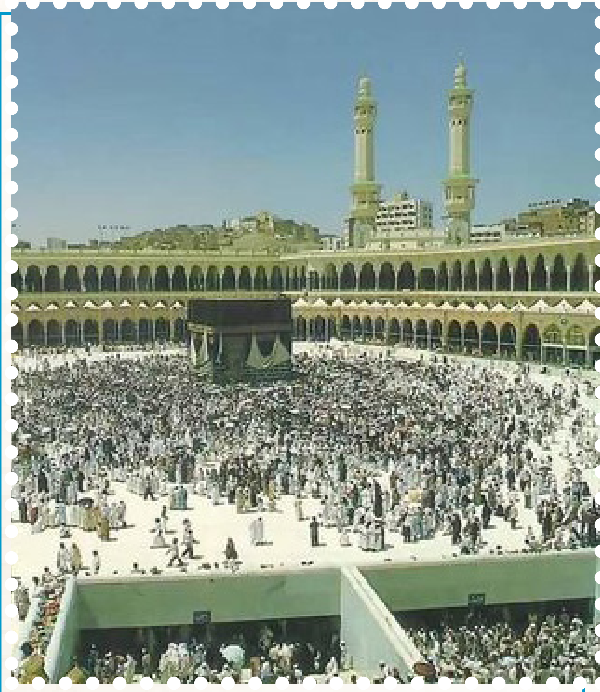
وهذا تركيب يدل على عظيم العناية بالحج وتأكُّد فرضيته، ألست ترى أن الحق تبارك وتعالى اعتبره دينًا له على عباده في قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾؟ وألست ترى أنه تبارك وتعالى جعل مقابل القعود عن أدائه الكفر، وهو أشد المقت، فقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾؟ ولم يعهد هذا التركيب في فريضة أخرى في كتاب الله غير الحج تنبيهًا على عظيم قدره وجليل أهميته.

١ قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، والمعنى: أكملوا الحج والعمرة خالصين لله، وأنتم ممتثلين لأوامر الله مجيبين دعوة الله، ولعلك لاحظت هنا أيضًا في هذه الآية أنه تبارك وتعالى جعل الحج والعمرة ملكًا له تأكيدًا للمعنى الأول، وتنبيهًا على مزيد العناية بهذين العملين الجليلين.

٢ وقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

والمعنى أن الله تبارك وتعالى أمر خليله إبراهيم عليه السلام بعد أن أتمَّ بناء البيت أن يُعلن فرضية الحج منذ تلك الساعة، فامتثل أمر ربه، ونادى في الناس: «أيها الناس إنَّ ربكم بنى بيتًا فحجوه»، وكان ذلك بمنزلة إعلان ما كان في وقته عليه السلام وما سيكون بعده إلى يوم القيامة من تقديس البيت والمبادرة إلى حجه وعمارته.

وذهب بعضهم إلى أن الأمر في ذلك للنبي عليه وعلى آله وصحبه الصلاة والسلام، وتكون الآية بذلك إعلامًا بفرضية الحج في الشريعة المحمدية، ولكلٍ وجهة، والأول هو الذي عليه جمهور العلماء، وفي الآيات الكريمة بيان بعض فوائد الحج من المنافع الدنيوية والأخروية ودوام ذكر الله، وهو صقال النفوس، ونور الأفئدة، وطمأنينة القلوب، والطهارة الحسية والمعنوية، والوفاء بنذور البر، والطواف بالكعبة المشرفة، وتعظيم حرمات الله تبارك وتعالى وشعائره.



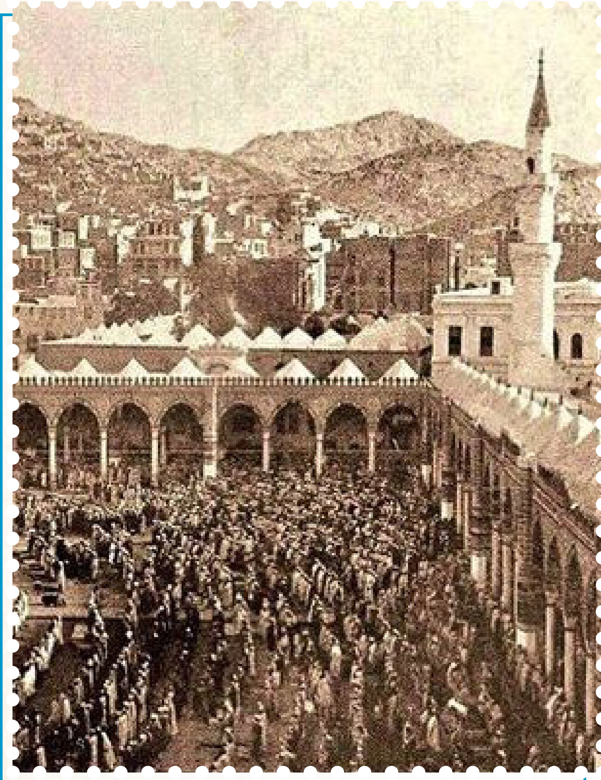
٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[١].

٤ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»[٢].

---

١. أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه.
٢. أخرجه النسائي.

ومعنى المتابعة بين الحج والعمرة: تكرارهما مرات لمن يستطيع ذلك حرصًا على هذه المزية -مزية التطهير من الذنوب والآثام- أو المتابعة بينهما بمعنى الجمع بينهما؛ فيحج ثم يعتمر مرة أو مرات؛ فتحصل له هذه الفضيلة، كل ذلك مندرج تحت هذا اللفظ الجامع، ومن استكثر من الخير استكثر من ثوابه.



٥ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن حجّ لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[٣]. والمعنى أنَّ مَن حافظ على آداب الحج فترك اللغو والحرام؛ فقد تطهر من ذنوبه، وغفر الله له خطاياه فيعود نقيًا تقيًّا مغفورًا له.

٦ وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «الحجاج والعمار وفد الله عز وجل وزواره، إن سألوه أعطاهم، وإن استغفروه غفر لهم، وإن دعوا استجيب لهم، وإن شَفَعوا شُفِّعوا»[٤].

٧ وعنه رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله وبرسوله»، قال: ثم ماذا؟ قال: «ثم الجهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «ثم حج مبرور»[٥]. والحج المبرور هو الذي لا يعقبه معصية لله.

---

٣. رواه البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجه.

٤. رواه ابن ماجه وابن حبان.

٥. رواه البخاري ومسلم.

٨ وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًّا وإن شاء نصرانيًّا»[٦]. وفي ذلك أشد الوعيد للذين يستطيعون الحج ويقعدون عنه تكاسلاً عن أدائه، وإهمالاً لشأنه، وتضييعًا لحقه، وغفلة عن تأكد فرضيته، وفي الحديث روايات، وقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار، فينظروا كل مَن كان له جِدَّةٌ ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين»[٧].

٩ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «استمتعوا من هذا البيت؛ فإنه هُدِمَ مرتين، ويرفع في الثالثة»[٨].

والمعنى: أن النبي ﷺ يأمر أمته باغتنام فضل وجود الكعبة المشرفة التي جعلها الله بركةً وهدًى ورحمةً وأمنًا، قبل أن تذهب بها حوادث الدهر إذا ما أَذِنَ الله بانقراض الدنيا؛ فقد هدمت قبل البعثة ثم بُنيت، بناها العمالقة مرةً وبنو جرهم مرةً أخرى، ثم هدمها قصي بن كلاب جد النبي ﷺ في القرن الثاني قبل الهجرة، وشيدها تشييدًا محكمًا وسقفها بخشب الدوم وجذوع النخل، وبنى بجانبها دار الندوة، ثم هدمها السيل وبنتها قريش، والنبي ﷺ معهم وسِنُّه ٣٥ سنة في قصة الرداء المشهورة.

ولعل الإشارة في الحديث إلى هاتين المرتين لأهميتهما، وما عداهما كان ترميمًا واستكمالا لأسباب متانتها، أو أن العددَ في الحديث يفيد التكرار فحسب دون الحصر.

---

٦. أخرجه الترمذي.
٧. رواه سعيد في سننه.
٨. رواه البزار وابن حبان والحاكم وصححه.



ويوشِك أن يهمل الناس أمر الحج؛ فيرفع الله بيته، ويستأثر به، وينزع البركة السابغة من أهل الأرض الذين أغفلوا نداء ربهم، وأهملوا فريضة حجهم، وهجروا سيدهم.

ومن ذلك تعلم تأكد فريضة الحج وعظيم ثواب الله لَمَن أداها، وشديد العقوبة لَمَن تركها وتكاسل عن أدائها.

لهذا أجمعت الأمة على فرضية الحج على القادر المستطيع، ثم ذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد وبعض أصحاب الشافعي، ومن أهل البيت زيد بن علي والهادي والمؤيد بالله والناصر، إلى أنه واجب على الفور؛ فمن استطاع لزمه الأداء لوقته.

ودليلهم في ذلك ما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «تعجلوا إلى الحج (يعني الفريضة) فإن أحدكم لا يدري ما يُعرض له»[٩].

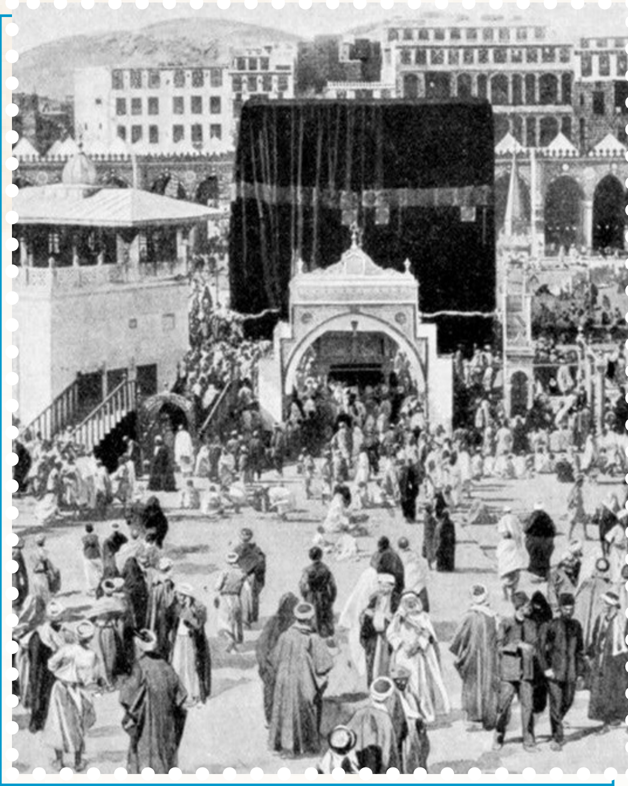
وما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس عن الفضل أو أحدهما عن الآخر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أراد الحج فليستعجل، فإنه قد يمرض المريض، وتضل الراحلة، وتعرض الحاجة»[١٠].

وذهب الشافعي والأوزاعي وأبو يوسف ومحمد، ومن أهل البيت القاسم بن إبراهيم وأبو طالب إلى أنه واجب على التراخي، واحتجوا بأن الرسول ﷺ حج سنة خمس أو ست. ولكلٍ وجهة هو موليها.

---

٩. رواه أحمد.
١٠. رواه أحمد وابن ماجه.

في الأرض المقدسة

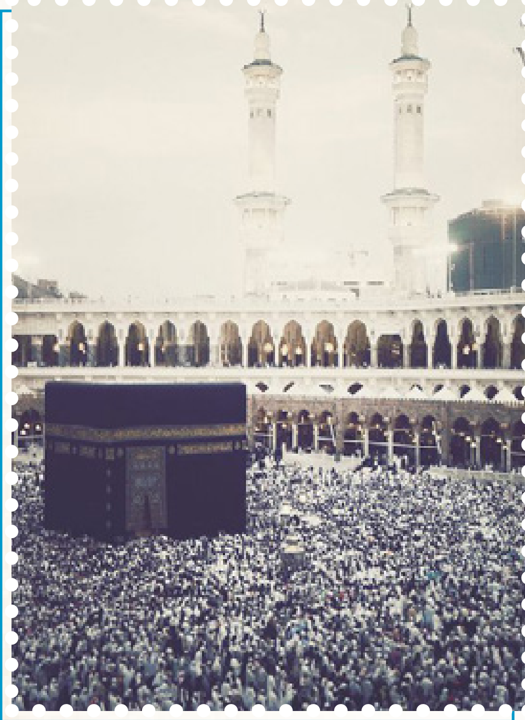


منذ عزمت على زيارة الأرض المقدسة كان يشيع في نفسي شعور غريب قوي فعال يهز روحي هزًّا قويًّا، ويتأثر به قلبي تأثرًا غريبًا، ومن العواطف القوية ما لا يُعرف لونه؛ فهو مزيج من الأمل، ومن الإشفاق، ومن الخوف، ومن الرجاء، ومن الحب، ومن الوله، ومن الشوق، ومن الحنين، وكذلك كان شعوري كلما تذكرت عزمي على زيارة الأرض المقدسة.

وكثيرًا ما تكون تلك العواطف المركبة أبعد أثرًا وأعمق غورًا مما يظن الناس؛ فلقد كنت أجلس إلى نفسي فأتمثل لها مكة ومقدساتها، وطيبة وأنوارها، وأصعد بها إلى الماضي البعيد؛ فتستعرض قريشًا وآثارها والدعوة الأولى وأسرارها، ثم تستمر سائرة مع تاريخ الإسلام الحي القوى، فإذا ساعات عظيمة وانتصارات تسمو على البشرية، وتتعالى على التاريخ نفسه، وتتحدى الأرض ومن فيها، وإذا ساعات من الضعف تُثير الشجون وتستدر العيون.

وكذلك كان شأني في هذه الجلسة التي أخلو فيها بنفسي قبل السفر؛ فأستعرض الخواطر جميعًا، وكثيرًا ما كنت أرى نفسي مندفعًا في بكاء صامت أو مغمورًا في فيض من الشعور بالسرور، أو ذاهلاً لا أذكر مما حولي إلا هذه الخواطر التي تجسمت أمامي، فتخيلتها الحقوق الماثلة.

ولبعض الألفاظ سلطان قوى على النفس لارتباطه القوى بذكريات مسميات هذه الألفاظ، ولصلته المتينة بشعورٍ سابقٍ ولاحق، تُثيره هذه الذكريات، فإذا ما ذكرت هذه الألفاظ أهاجت الساكن، وحركت الكامن، فاندفعت تتأثر للكلمة، وتبكي للفظ وما هو إلا المعنى الرمزي لكل ما تعلق به من مشاعر وذكريات، فالكعبة، والبيت الحرام، وحراء، وزمزم، ومقام إبراهيم، وغار ثور، وخيف منى، ووادي عرفة، ومسجد نمرة، وبطن الصفا، ومسجد بلال، ومصلى التنعيم، والمشعر الحرام، وشامة، وطفيل، ومزدلفة، وثبير، وحرة واقم، وبنى سالم بن عوف، ومسجد قباء، وبئر آريس، وجبل أحد، وروضة البقيع، والروضة بين القبر والمنبر، وآثار الخندق.

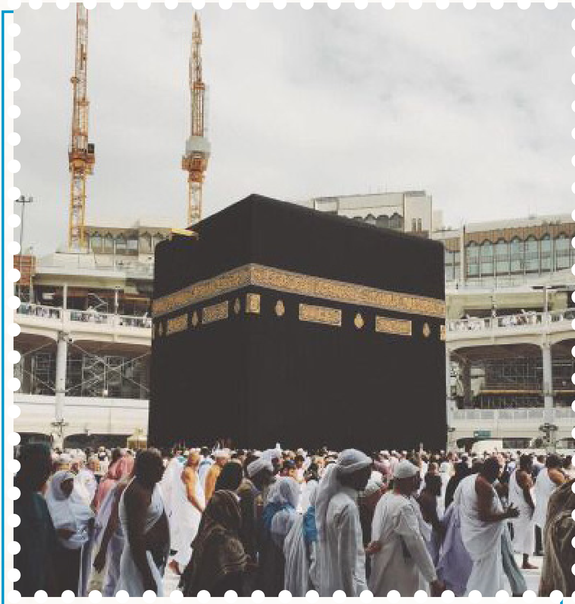


كل هذه الأسماء في مكة والمدينة، لها على نفسك سلطان أي سلطان، حين تذكرها، وحين تمثلها لنفسك، وحين تمنى نفسك برؤيتها ومشاهدتها، وما ذلك إلا لأنها تصور لك ما كان فيها من حادثات جسام تهتم لها وتتأثر بها.

ولا أطيل عليك ولا أسترسل في وصف شعور يتجدد كلما ذكر، ويستفيض كلما تجدد، وينهمر هذا الفيض حتى لا تكاد تشعر بنهاية أو تدرك مدى غاية.

ولكني أقول لك: إن أهم ما حدا بي إلى زيارة هذه البقعة المباركة غير ما يحدو بكثيرٍ من الناس، فإن أعظم ما يسير بالناس إلى هذه البقاع المطهرة الرغبة الملحة في أداء الفريضة والزيارة المباركة رجاء الثواب أو خوفًا من التبعة يوم القيامة، أو الرغبة الملحة في التمتع بما أفاضه الله على هذه الديار وساكنيها من بركة وخير، وذلك جميل حقًا، وذلك بعض ما حدا بي إلى الرحلة.

أما السبب الأول في الحقيقة فهو دعوة الإخوان المسلمين، ولعله يسبق إلى ذهنك من هذا الاعتراف أنه الرغبة في نشر دعوة الإخوان المسلمين وتلمس الأنصار والمؤمنين بها من آفاق الأرض، ومن القلوب الطاهرة التي تهوى إلى هذه الأرض المقدسة، وليس ذلك كذلك، وإن كان أملاً من الآمال، وفائدة من الفوائد المنتظرة، ولكن الذي أقصده أن دعوة الإخوان المسلمين، وهي دعوة خالصة لوجه الله من أول يوم، مؤسسة على تقواه، مستندة إلى عظمته سبحانه، هذه الدعوة أعتقد أنه لا بد لنجاحها من أمرين أساسيين:



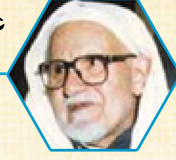
أولهما: طهارة القائمين بها، ونزاهة نفوسهم حتى تصلح لتلقي المعونة والنصر من الحق تبارك وتعالى.

وثانيهما: صلة هذه القلوب بالداعي الأول ﷺ، صلة روحية قوية تؤدي إلى حسن الاتباع والاستمساك بالسُّنة، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

فأما الطهارة النفسية فأول سبلها حج بيت الله الحرام؛ حيث تحط الذنوب والأوزار، وأما المدد الروحي من الداعي الأول ﷺ فسبيله زيارة حرمه والتمتع بروضته، ويلحق بهذه الأسباب جميعًا ما تستفيده روح الداعية من معاهدة مواطن الدعوة الأولى، واستعراض حوادثها استعراضًا عمليًّا على أديم الصحراء العربية لا في صفحات الكتب وآراء الرجال.

ذلك أهم ما أثار النفس وهفا بالقلب إلى أرض الوحي ومهابط التنزيل، والقلوب بيد الله يقلبها كيف شاء؛ فاللهم ثبت قلوبنا على دينك.

.. أشهر رحلات الحج ..



علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر

رحمه الله

لا يتسع المجال لأكثر من ذكر أهم رحلات الحج، التي في ميسور كل باحث الاطلاع عليها -مما يعد مكملاً لهذا البحث- وكثير من تلك الرحلات نشرت خلاصة ما يتعلق بالحج في مجلة «العرب».

رحلة ابن جبير

محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (٥٢٨\٦٠٧هـ).

كتب بعض مشاهداته في إحدى رحلاته إلى الشرق فيما بين سنتي ٥٧٨ و٥٨١هـ؛ فتولى أحد تلاميذه -فيما يقال- الرحلة المعروفة باسمه، وقد طبعت مراراً ونالت جانباً من الدراسة من بعض الباحثين. ومنهم الأستاذ الشيخ عبد القدوس الأنصاري، حيث ألف عنها (مع ابن جبير في رحلته).



* حمد الجاسر، أشهر رحلات الحج، ط١ (جدة: دار الرفاعي، ١٩٨٢م)، ص١٨ وما بعدها.

رحلة ابن رُشَيْد

هو محمد بن عمر بن رُشَيْد -بضم الراء- الفهري السّبتي الأندلسي (٦٥٧/٧٢١هـ).

زار مصر والشام والحجاز بحيث وصل المدينة المنورة بطريق الحج الشامي في ٢٣ ذي القعدة سنة ٦٨٤، وعاد منها بعد أن حج -عاد في ٢٨ ذي الحجة سنة ٦٨٤- بطريق الساحل ماراً بالعقبة في ٢٥ محرم سنة ٦٨٥.

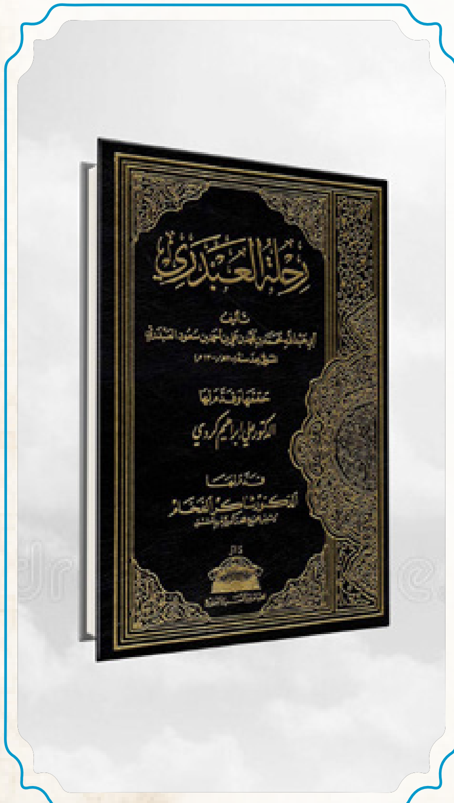
ومع عناية العلماء المتقدمين برحلة ابن رشيد، التي دعاها (ملء العيبة، فيما جمع بطول الغيبة، في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة)، إلا أنها لم تصل إلينا كاملة، وهي من أحفل الرحلات وأشملها والأجزاء الباقية منها على ما يظهر مسودة بخط المؤلف.

ويقوم الصديق الأستاذ الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة مفتي البلاد التونسية بتحقيق تلك الرحلة، وقد أخبرني في ١٤ شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٢هـ أنه تم طبع جزأين.

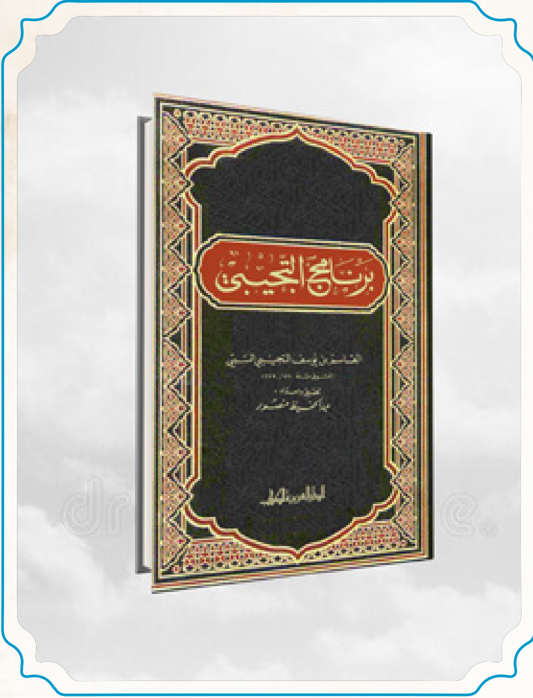
رحلة العبدري

هو محمد بن محمد بن علي العبدري الحيحي نسبة إلى حاحة -على غير قياس- قبيلة من البربر في المغرب الأقصى وهو من أهل القرن السابع.

حج سنة ٦٨٩ ماراً بمصر سالكاً طريق الحج الساحلي، فوصف ذلك الطريق منزلة منزلة، وقد استفاد من رحلة ابن جبير، وأتى بأشياء لم يذكرها ابن جبير في رحلته.



وقد طبعت رحلته في مدينة الرباط، بتحقيق الشيخ محمد الفاسي سنة ١٣٨٨هـ (١٩٨٦م).



رحلة التّجِيبي

القاسم بن يوسف بن علي السبتي التجيبي (٦٧٠\ ٧٣٠هـ).

وقد حج سنة ٦٩٦ -قادماً بطريق البحر من عيذاب، إلى مرسى أبحر من مواني جدة، فوصل في ٨ رمضان في تلك السنة بعد أن أمضى في البحر ٢٤ يوماً.

ولا تعرف نسخة كاملة من رحلته، والموجود قطعة يبدأ الحديث فيها عن مدينة القاهرة، وينتهي بالكلام على المبيت بمنى. وقد حقق هذا الجزء الأستاذ الصديق عبد الحفيظ منصور، فجاء في مجلد بلغت صفحاته ٥٥٧ مطبوعاً في تونس.

رحلة ابن بطوطة

وهو محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي (٧٠٣/٧٧٩هـ)، وبطوطة بتشديد الطاء الأولى المضمومة.ورحلته شاملة فقد زار الأقطار الإسلامية وبلاد الشرق في عهده، واستغرق في رحلته سبعاً وعشرين سنة، من سنة ٧٢٥.

ونقلها عنه محمد بن جزي الكلبي في مدينة فاس سنة ٧٥٦ وسماها: (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).

وفي تلك الرحلة بعض أوهام منها ما ذكر عن شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد تحدث عنه حديث من حضر مجلسه، مع أنه أدخل السجن قبل وصول ابن بطوطة إلى دمشق بأيام، ولم يخرج من السجن.

وتعتبر رحلة ابن بطوطة أشهر الرحلات لشمولها.

وقد وجدت عناية كبيرة من الباحثين وترجمت إلى عدد من اللغات وطبعت مرات.

رحلة البلوي

هو خالد بن عيسى بن أحمد البلوي الأندلسي من أهل القرن الثامن.

حج سنة ٧٣٨ ماراً بمصر ثم بالشام، فقد ركب مع الركب الكركي بطريق الحج الشامي فوصل المدينة في ١٩ ذي القعدة سنة ٧٣٧، وحج ثم عاد من المدينة في ٢٤ المحرم سنة ٧٣٨ ماراً بالعقبة، فالقدس فالقاهرة؛ حيث وصلها ١٤ صفر سنة ٧٣٨.

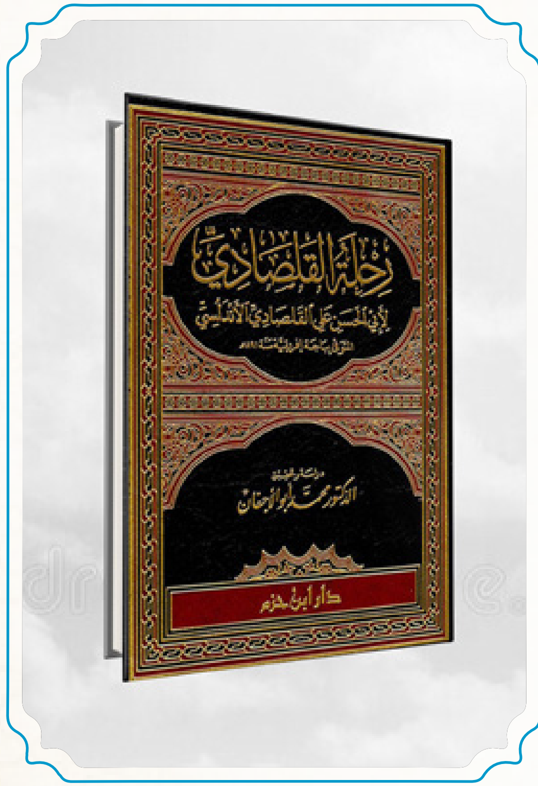
واسم رحلته (تاج المفرق في تحلية أهل الشرق) وقد وصفها صاحب (نفح الطيب) بأنها رحلة كبيرة كثيرة الفوائد. وقد طالعت نسخاً مخطوطة منها، ولخصت ما يتعلق بالحج فيها، ولاحظت اضطراباً في ترتيب منازل الحج، أشرت إلى ذلك في مجلة (العرب) س١١ ص٧٣١.

وقد علمت منذ عهد قريب بأن تلك الرحلة قد طبعت.

رحلة الصفدي

خليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ واسمها (حقيقة المجاز إلى الحجاز)، كانت منها نسخة مخطوطة في زاوية درعة في المغرب بخط المؤلف -على ما ذكر ابن عبد السلام في رحلته- ونقل عنها كما نقل صاحب (درر الفوائد المنظمة). وبلغني بأن في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة نسخة منها.

رحلة القلصادي



أبو الحسن على القلصادي الأندلسي المتوفى سنة ٨٩١هـ.

بلغ جده بطريق البحر في شعبان ٨٥١ وعاد بحراً -بعد أداء الحج- من رابغ إلى العقبة فمصر في المحرم ٨٥٢. وقد حقق رحلته صديقنا الأستاذ محمد أبو الأجفان، الأستاذ بجامعة الزيتونة في تونس، ونشرت سنة ١٣٩٩ (١٩٧٨م) في ٢٥٦ صفحة في تونس.

درر الفوائد المنظمة: هذا كتاب شامل كاسمه في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، للشيخ محمد بن عبد القادر الجزيري المصري الحنبلي، المتوفى سنة ٩٤٤.

وقد تضمن وصفاً لرحلاته من القاهرة إلى الحج، بطريق الساحل، فهو من هذه الناحية يدخل في نطاق رحلات الحج.

وقد طبع الكتاب عن نسخة ناقصة مع وجود مخطوطتين كاملتين إحداهما في (دار الكتب) في القاهرة، والأخرى في مكتبة القرويين في فاس، (انظر مجلة العرب س١٢ ص٣٣١).

رحلة البكري

البكريون العلماء كثيرون، ولبعضهم رحلات، ومما ينسب إلى أحدهم رحلة ذات أسلوب أدبي ممتع تضمنت وصف منازل الحج من البركة -المنزل الأول من القاهرة- إلى مكة المكرمة، بطريق سيناء فساحل البحر إلى ينبع، فبدر فرابغ. يصف الكاتب المنزل نثراً وشعراً دون تكلف.

وقد وصف العياشي تلك الرحلة بقوله: قد ظفرت بمصر برسالة للشيخ محمد البكري -وأظنه محمد بن الشيخ زين العابدين- ذكر فيها الحج ودياره ذهاباً وإياباً، وحقق قدر ما في كل مرحلة من الساعات والدرج والدقايق، وصعوبتها وسهولتها بنثر بليغ وعبارات رائقة. وذكر في كل منزلة شعراً يتعلق بأحوالها.

والبكري الذي ظنه العياشي صاحب تلك الرحلة هو زين الدين محمد بن زين العابدين محمد بن محمد البكري الصديقي المصري، له مؤلفان في تاريخ الدولة التركية ذكرهما الخير الزركلي في (الأعلام) وأرخ سنة وفاته (١٠٢٨هـ).

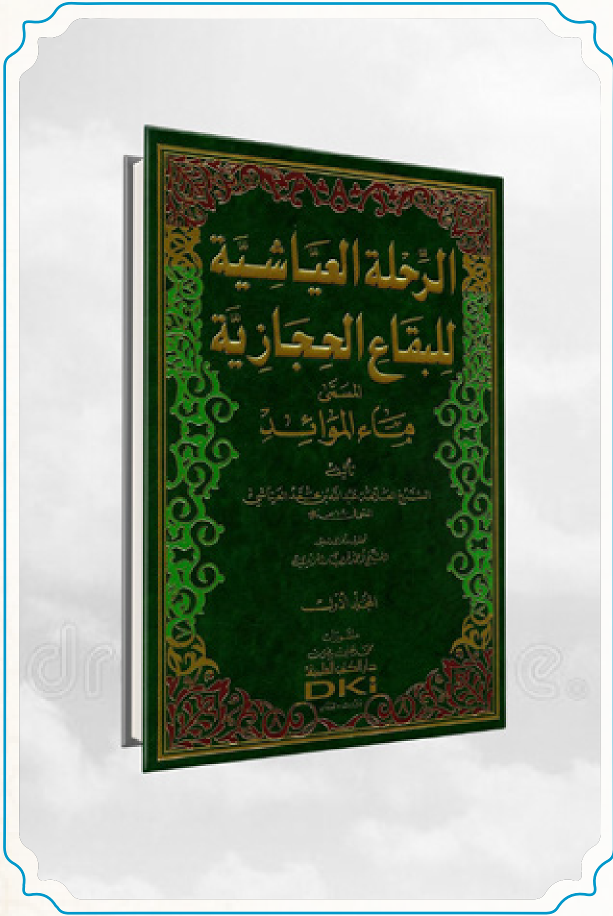


ولم أطلع على رحلته مفردة، ولكنني وجدت وصف المراحل تامة في رحلات العياشي وابن ناصر وابن عبد السلام وأبي مدين، فنشرتها في (العرب).

رحلة البكري

من أهل القرن الحادي عشر، لخصها الدكتور أحمد سامح الخالدي، ونشر الملخص في مجلة (الرسالة) التي كانت تصدر في القاهرة، واسم الرحلة (الحقيقة والمجاز) ومخطوطتها في دار الكتب المصرية.

الرحلة العياشية



أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي -نسبة إلى قبيلة آية عَيَّاش- الفاسي (١٠٣٧/ ١٠٩٠هـ) واسمها: (ماء الموائد) من أوفى رحلات الحج، بل هي أوفى رحلة اطلعت عليها، وقد ورد فيها: «وقصدي إن شاء الله -من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم، لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فذلك ادعى لنشاط الناظر فيها، سيما إن كل صاحب تلوين، وأما صاحب التمكين فلكل شيء عنده موقع ونفع لا يوجد غيره» انتهى.

والواقع أنها كما ذكر، فهي ديوان علم لما حوته من المباحث العلمية المتنوعة، ومن الكلام على منازل الحج ومشاعره المقدسة ومن وصف شامل للحجاز في القرن الحادي عشر الهجري في مختلف حالاته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والإدارية. ثم هي كتاب سمر ومحاضرة لما تخللها من مباحث أدبية وقصص وأخبار ومقطوعات شعرية.

وتعتبر رحلة العياشي مصدراً لكثير ممن جاء بعده من الرحالين المغاربة؛ كابن ناصر وابن عبد السلام والزبادي وغيرهم، ولهذا وصفه ابن ناصر في رحلته بأنه (إمام المرتحلين في زماننا)، ولخص كثيراً مما جاء في رحلته، حيناً يصرح بالنقل منها وأحياناً يفوته ذلك.

وقد حج سنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٤ و١٠٧٢، وجاور في الحرمين وفي القدس وفي الخليل، وله مؤلفات منها رحلته التي سماها «ماء الموائد». وقد طبعت طبعة حجرية بالخط المغربي في مدينة فاس، ١٣١٦هـ في جزئين صفحاتهما ٥٦٦+ ٤٢٢=٩٨٨ فهارس وتقاريظ وإصلاح تطبيع.

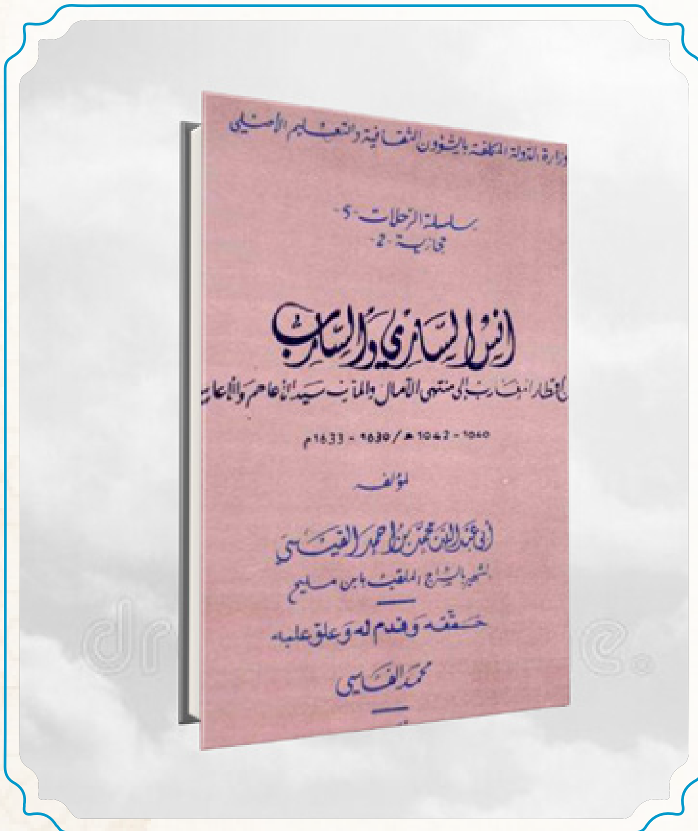
ثم أعيد نشرها -بطريقة التصوير سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م)، ووضع الأستاذ محمد حجّي أستاذ التاريخ في كلية الآداب في مدينة الرباط لها فهارس مفصلة عن أسماء الأعلام والمواضع والكتب، طبعت ملحقة بالجزء الثاني من تلك الرحلة في خمسين صفحة.

رحلة القيسي

محمد بن أحمد القيسي، من أهل القرن الحادي عشر، ويُعرف بابن مليح.

واسم رحلته (أنس الساري السارب، من أقطار المغارب، إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب).

وقد طبعت في الرباط سنة ١٣٨٨هـ بتحقيق الشيخ محمد الفاسي.



رحلة الهشتوكي



هو أحمد بن محمد بن داود بن يعزي، الجرولي نسباً، الهشتوكي شهرةً، المتوفَّى سنة ١٠٩٦.

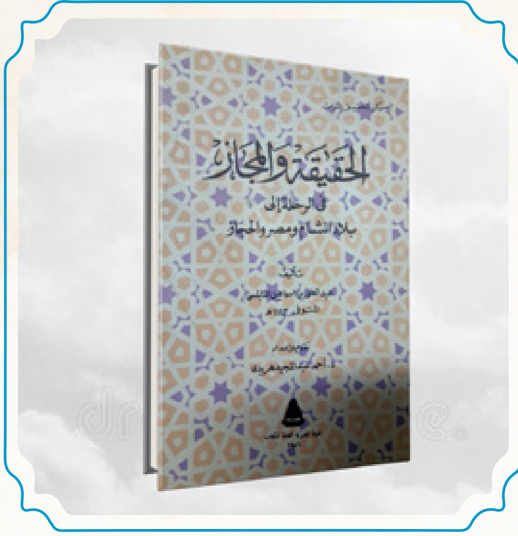
يوجد في الخزانة العامة رحلة مخطوطة يرى الصديق محمد بن إبراهيم الكتاني أنها للهشتوكي المذكور، ولكنني رأيت في أحد المواضع منها ذكر تاريخ سنة ١٠٩٩، وأن مؤلفها معاصر للسلطان إسماعيل سلطان المغرب، الذي تولى الحكم من سنة ١٠٨٢ إلى ١١٣٩ لأنه يدعو له بالنصر، وأنه اجتمع بالشيخ عبد الله بن سالم البصري المتوفى سنة ١١٣٤.

وعلى كل حال فالمؤلف من أهل القرن الحادي عشرة الهجري، ويصف الشيخ العياشي بأنه شيخه، وأسلوب الرحلة يدل على عدم تمكن صاحبها من العلم، وإن كانت لا تخلو من الفوائد.

الرحلة الناصرية

مؤلفها الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (١٠٥٧- ١١٢٩).

تعتبر هذه الرحلة من أوفى الرحلات إلى الحج وأمتعها. وقد اعتمد فيها مؤلفها على رحلة شيخه أبي سالم العياشي الذي وصفه بأنه شيخ الرحالين، وقد رحل ابن ناصر هذا أربع رحلات إلى الحج إحداها سنة ١١٢١.



والرحلة مطبوعة طبعة حجرية بحروف مغربية في مدينة فاس سنة ١٣٢٠. وتقع في جزئين صفحاتها ٤٤٢.

رحلة النابلسي

هو الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي الدمشقي (١٠٥٠/ ١١٤٣هـ).

ذو المؤلفات الكثيرة في مختلف علوم عصره، والذي يعنينا منها ما يتعلق بالرحلات وله ثلاث مؤلفات فيها، أهمها وأغزرها فائدة: (الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز) في ثلاثة أجزاء، ثالثها عن الحجاز في وصف طريق الحج من مصر براً إلى المدينة ثم مكة، ثم عاد من المدينة إلى دمشق براً.

وقد ألف رحلته هذه على طريقة كتابة المذكرات يوماً فيوماً، منذ أن بدأ في الرحلة في بلاد الشام من مدينة دمشق حتى عاد إليها، وقد سجل مشاهداته عن الحجاز من اليوم الثالث والثمانين بعد المئة إلى يوم عودته إلى دمشق في اليوم الثامن والثمانين والثلاث مئة، أي في خلال مئتين وخمسة أيام، ابتداء من خروجه من مصر في سابع رجب سنة ١١٠٤ إلى يوم عودته إلى دمشق خامس صفر سنة ١١٠٥هـ، على ما جاء في تلك الرحلة.

وتعتبر رحلته -أو رحلاته- هذه من أمتع الرحلات، وأحفلها بالمعلومات، مع ما فيها من آراء لا تتفق مع روح عصرنا.

ولم تطبع هذه الرحلة بعد.

رحلة المنالي الزَّبَادِي

هو عبد المجيد بن علي الحسني الإدريسي الفاسي المتوفى سنة ١١٦٣، واسم رحلته (بلوغ المرام بالرحلة إلى البيت الحرام)، وكان حج سنة ١١٤٨ وضمن رحلته هذه قصيدة سماها (إتحاف المسكين الناسك لبيان المراحل والمناسك)، وله شعر من نمط شعر العلماء، منه قصيدة مطلعها:

سلام على نجد ومن حلّ في نجد •• سلام محب زائد الشوق والوجد

يتشوق فيها إلى مغاني الحجاز.

ورحلته هذه لا تزال مخطوطة ومنها نسخة في الخزانة العامة في مدينة الرباط، وقد عول كثيراً على رحلة العياشي وتعتبر رحلته متممة لرحلتي العياشي ابن ناصر، وكذا رحلة الدرعي.

رحلة السويدي

أبو بكر عبد الله بن حسين السويدي البغدادي (١١٠٤/ ١١٧٤هـ).

واسمها: (النفحة المسكية في الرحلة المكية)، ومن نسخها المخطوطة نسخة من مكتبة عارف حكمة شيخ الإسلام في المدينة.



رحلة ابن عبد السلام

هو محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصري الدرعي، المتوفى سنة ١٢٣٩، من بيت علم مشهور. وقد حج مرتين إحداهما سنة ١١٩٦ والثانية ١٢١١.

وعن الحجة الأولى ألف رحلته الكبرى وهي من أوسع الرحلات وأوفاها، وقد رجع فيها إلى كثير من الرحلات المؤلفة قبل عهده؛ كرحلة العياشي ورحلة العبدري ورحلة الصفدي ورحلة التجيبي ورحلة البكري والرحلة الناصرية.

أما عن حجته الثانية فقد ألف عنها الرحلة الصغرى.

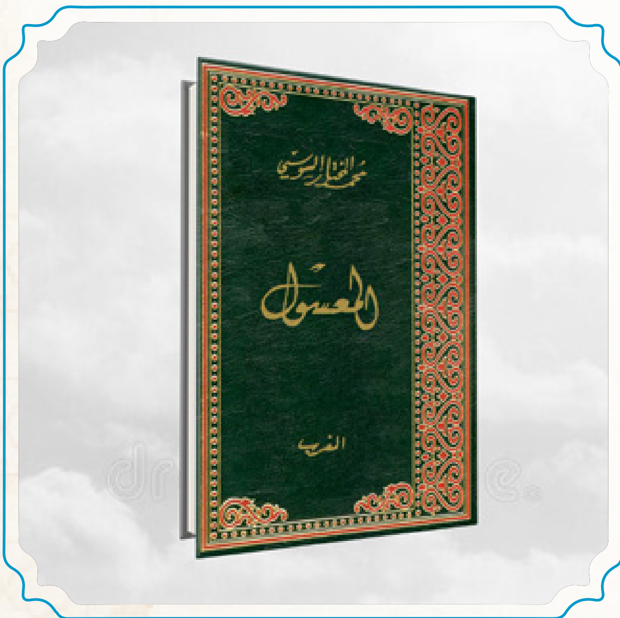
ولكن الرحلة الكبرى الأولى أوفى وأغزر فائدة من كثير من الرحلات ولا تزال مخطوطة، ومنها نسخة في الخزانة العامة في الرباط، مكتوبة في عهد المؤلف، وقد تكون مسوَّدة تأليفه.

وسيأتي تفصيل ما أجمل عن هذه الرحلة.

رحلة التامراوي

هو محمد بن محمد المزواري التامراوي، من المغرب الأقصى، حج سنة ١٢٤٢.

وقد أورد رحلته كاملة صاحب كتاب (المعسول) ج٨ ص ١٩٧.



وهي موجزة جداً ولكنها لا تخلو من فائدة، مع وقوع تحريف في أسماء المواضع.

رحلة إدريس العيسى

هو إدريس بن عبد الهادي العلوي الحسني الفاسي، المتوفى في المدينة سنة ١٣٣١.

وصف رحلته إلى الحج سنة ١٢٨٨. وقد أبحر من السويس إلى ينبع. وهي رحلة مختصرة جداً ومخطوطتها في خزانة الرباط.

رحلة ابن كيران

هو محمد بن الطيب بن كيران الفاسي، المتوفى سنة ١٣١٤ واسم رحلته: (الرحلة الفاسية الممزوجة بالمناسك المالكية)، وصف فيها رحلته إلى الحج سنة ١٢٩٣.



وقدم بطريق البحر في الباخرة. وهذه الرحلة مطبوعة في مدينة فاس، ولكنني اطلعت على مخطوطة في خزانة الرباط. وهي لا تخلو من فوائد، خاصة في وصف الطريق بين مكة والمدينة.

الرحلة الحميدية

مؤلفها اسماعيل الحميدي المالكي، وقد يكون مصرياً، وهو من أهل القرن الثالث عشر، حج سنة ١٢٩٧ عن طريق السويس إلى جدة.

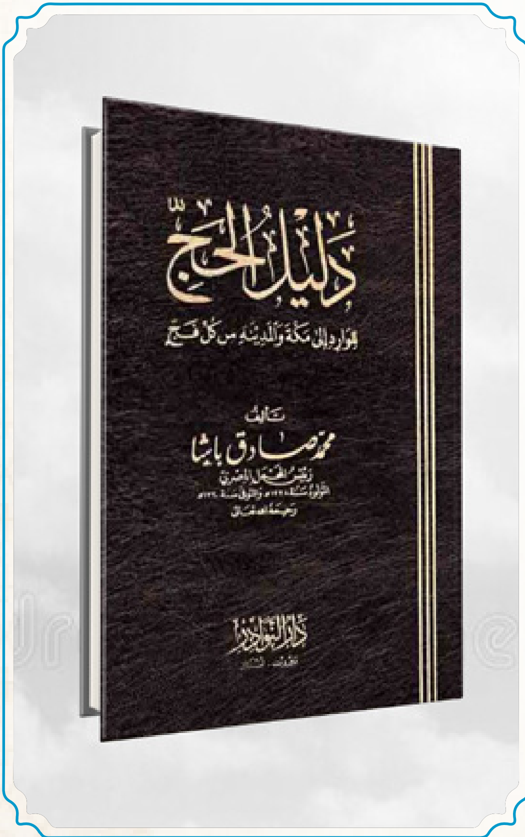
ومخطوطة هذه الرحلة التي اطلعت عليها موجودة في خزانة الرباط، وهي ممزوجة بالمناسك، ومع اختصارها ففيها فوائد.

رحلة التونسي

هو محمد بن عثمان السنوسي التونسي (١٢٦٦- ١٣١٨). وقد حج سنة ١٢٩٩. والتونسي من مشاهير علماء تونس، وقد بُدئ في نشر رحلته في تونس، فصدر منها جزء في التراجم.

ورحلته وافية المباحث وهو يُعنى بتواريخ العلماء وتراجمهم، مع تسجيل وافٍ لمشاهداته في مكة وفي المدينة، ووصف لمنازل الحج إلى الشام، حيث عاد مع الحاج الشامي.

- ومن رحلات أهل القرن الرابع عشر وهي كثيرة:



دليل الحج، للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج، تأليف محمد صادق، كتاب يشمل ثلاث رحلات للمؤلف:

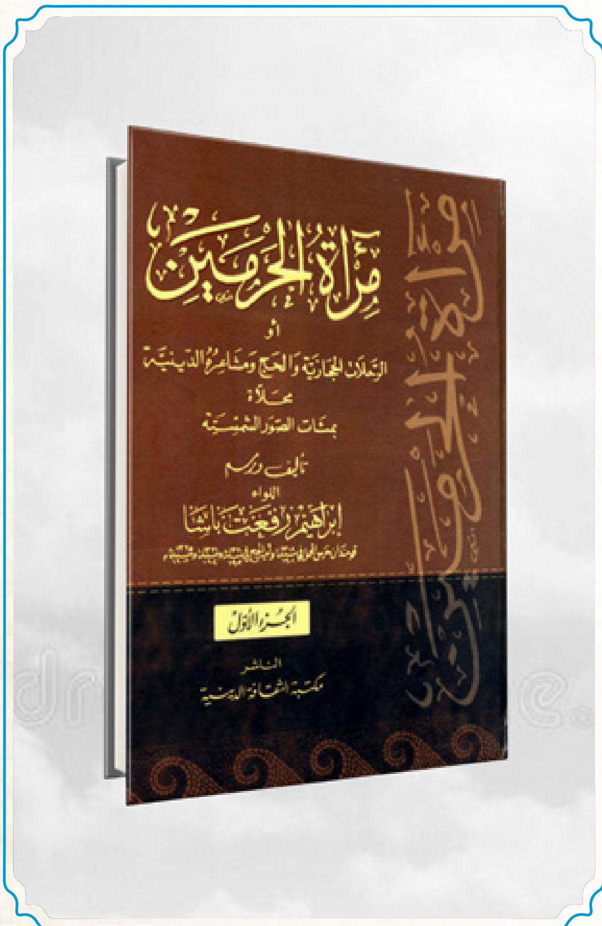
(١) من الوجه إلى المدينة المنورة ومنها إلى ينبع في سنة ١٢٧٧. (٢) للحج سنة ١٢٨٧هـ، أميناً للصرة وهذه الرحلة وصفها في كتاب سماه «مشعل المحمل». (٣) للحج سنة ١٣٠٢ وصفها بكتاب سماه (كوكب الحج).

جمع هذه الرحلات الثلاث في هذه الكتاب الذي طبع سنة ١٣١٣ (١٨٩٦م)، في ١٥٢ صفحة، وفيه صور.

- مشعل المحمل، تأليف محمد صادق، يصف في هذه الرحلة سير الحاج من مصر براً في الذهاب والإياب في سنة ١٢٩٧ هـ، مطبوع سنة ١٢٩٨ في ٦٠ صفحة (وقد ضمنه كتابه (دليل الحاج) المتقدم ذكره.

- التحفة اليمنية في الأخبار الحجازية: لمحمد اليمني بن علي بن عرعار محار العنابي الجزائري، مطبوعة في القاهرة سنة ١٣١١ في ٣٩ ص.

- الرحلة الوهبية إلى الأقطار الحجازية -تأليف أحمد علي الشاذلي- صاحب جريدة الإسلام: وصف موجز لرحلة المؤلف لأداء الحج سنة ١٣٢١هـ في ٨٦ ص صغيرة، وهي على إيجازها تحوي وصفاً مجملاً عما يسود الحجاز في ذلك العهد من الفوضى واختلال الأمن.



- مرشد الحجاج إلى الأماكن المقدسة، تأليف محمد حسن غالي، مطبوع في الرحمانية في القاهرة سنة ١٩٢٣م في ٢٠٠ ص.

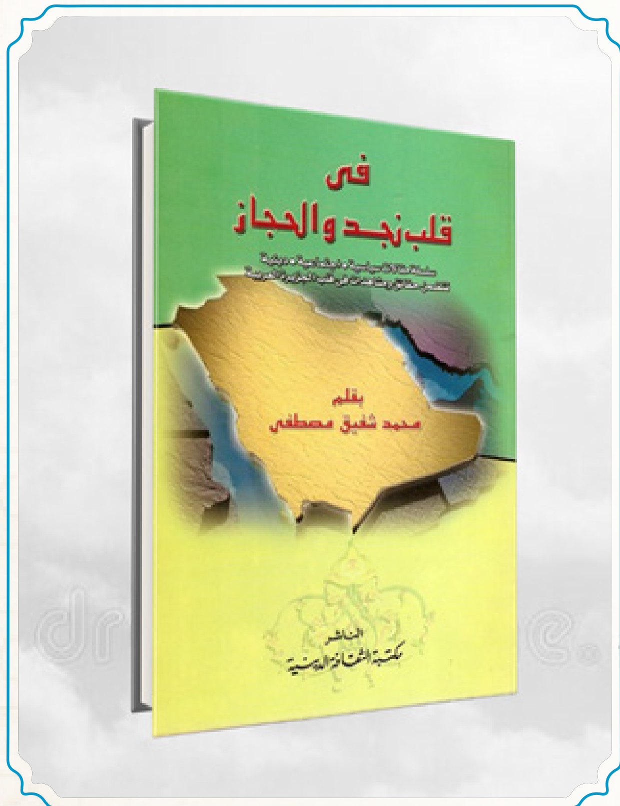
- مرآة الحرمين، تأليف اللواء إبراهيم رفعت باشا (١٢٧٣/ ١٣٥٣ هـ) أمير الحج المصري في سنة ١٣٢٠و١٣٢١و١٣٢٥، كتاب من أمتع كتب الرحلات وأوسعها يقع في مجلدين صفحاتهما ٥٢٨+ ٤٠٧ = ٩٣٥، يزدان بالصور والخرائط المتقنة، بطباعة أنيقة حقاً، مطبعة دار الكتب المصرية- سنة ١٣٤٤هـ.

- الرحلة الحجازية، تأليف محمد لبيب البتنوني، وصف فيها حج الخديوي عباس حلمي سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م)، وهي من أوفى الرحلات تفصيلاً عن أحوال الحجاز العامة في ذلك العهد -على ما فيها من أخطاء- وقد طبعت طباعة جيدة مصورة في سنة ١٣٢٩هـ في ٣٣٤ ص، عدا الصور والخرائط.

- سياحتي إلى الحجاز، منسوبة إلى غريب بن عجيب الهاشمي مطبوعة في القاهرة سنة ١٩١٥م في ٤٥٧ ص مصورة.

- تذكار الحجاز، رحلة موجزة لعبد العزيز صبري من مصر في آخر عهد الشريف الحسين، وهي على إيجازها ذات فوائد، مطبوعة سنة ١٣٤٢ بالمطبعة السلفية، وتقع في ٢٢٨ ص، وفيها صور.

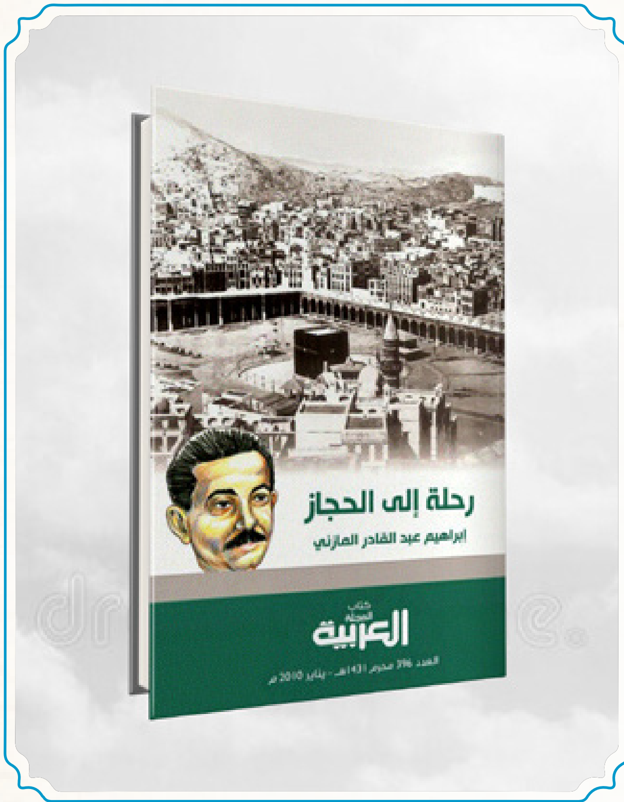
- في قلب نجد والحجاز، لمحمد شفيق مصطفى، صحفي مصري قام برحلة من القاهرة -بطريق فلسطين- إلى قريات الملح فالجوف فالقصيم فالرياض فمكة، في سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م)، ونشر وصف ما شاهده في جريدة السياسة، ثم قامت دار المنار بطبع تلك المقالات في كتيب بلغت صفحاته ٦٧، وفيه معلومات طريفة على إيجازها.



- مرشد الحاج، تأليف عبد الوهاب مظهر، سنة ١٣٤٧هـ، مطبوع في ١٠٣ ص.

- الارتسامات اللطاف، في خواطر الحاج إلى أقدس مطاف، للأمير شكيب أرسلان (١٢٨٦/ ١٣٦٦هـ) يصف رحلته للحج سنة ١٣٤٨ في ٣٠٤ ص، ويتطرق إلى وصف مكة والطائف وعمران الجزيرة ومختلف جوانب الحياة بتفصيل، بحيث تعتبر هذه الرحلة من أمتع الرحلات وأوفاها.

- رحلة الحجاز، لإبراهيم عبد القادر المازني (١٣٠٨\ ١٣٦٨هـ)، في سنة ١٣٤٩ (١٩٣٠م)، في وصف الاحتفال بجلوس الملك عبد العزيز -رحمه الله- مطبوعة سنة ١٩٣٠ في ١٦٦ صفحة مصورة.



- مشاهداتي في بلاد الحجاز، تأليف عبد الوهاب خضير، كتيب يقع في ٤٣ صفحة، يصف أول احتفال بجلوس الملك عبد العزيز رحمه الله، في سنة ١٣٤٩ (١٩٣٠م)، وهو مقدم بقلم أحمد زكي باشا ومصور ومطبوع.

- في المملكة الروحية للعالم الإسلامي (رحلة إلى الحجاز سنة ١٣٤٩-١٩٣١م) تأليف مصطفى محمد، في ٢٣٠ ص مصورة، مطبوعة بمطبعة المدينة المنورة.

الحج

أيها المستطيعون!



الشيخ محمد بهجة البيطار

رحمه الله*

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]

---

* محمد بهجة البيطار، مجلة المسلمون، السنة الثالثة، العدد العاشر، أغسطس ١٩٥٤م

وقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]

فلا عجب إذا لبى المسلمون هذا النداء، واستجابوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم، ويبث روح المودة والوئام فيهم، ويقيهم ضرر التقاطع، وفشل التنازع. وقد افتتح تعالى الآية الأولى بذكر محاسن البيت وعظيم شأنه فوصفه بأفضل الصفات، منها:



أنه أسبق بيوت العالم إلى عبادة الله تعالى وأنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدوم ولا أنفع للخلائق، ووصفه بالمصدر نفسه حتى كأنه نفس الهدى وفي وصفه بهذه الصفات ما يبعث النفوس على حجه، وإن شطت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار.

وقد جعل الله الكعبة قبلة المسلمين واختارها البلد الأمين وشرفه بأن أقسم به في كتابه فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين: ٣] وجعله حرماً آمناً لا يُسفك فيه دم، ولا يروّع فيه مسلم، ولا ينفر له صيد ولا تلتقط لُقطته إلا للتعريف، وجعل الحج المبرور ماحياً للذنوب والخطايا، موجباً لدخول الجنة بسلام، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من أتى هذا البيت فلم يَرفُث ولم يَفسُق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وثبت عن النبي ﷺ أن «الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف في غيره». وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». وقال رسول الله ﷺ: «من أراد الحج فليتعجل فإنه قد يمرض المريض وتضل الراحلة وتعرض الحاجة».



وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت يا رسول الله: هل على النساء من جهاد؟ قال: نعم، عليهن جهاد ولا قتال فيه: الحج والعمرة». وعن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاوس: «لو علمت رجلاً غنياً وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه» وكان بعضهم له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه.

فالحمد لله الذي جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمناً، وجعل الحج من بين أركان الإسلام فريضة العمر وأكمل تعالى به الدين، وأتم به النعمة وأنزل على نبيه صلوات الله عليه وسلامه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وإنما نزلت هذه الآية يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر والنبي ﷺ بعرفات على ناقته العضباء.

قال العلماء: إن الحج المبرور هو المقبول، وهو الذي جاء على الوجه الأكمل باستيفاء الأعمال البدنية والقلبية، ومن ذلك أن يكون المال الذي ينفقه حلالاً، وأنشدوا:

إذا حججت بمال أصله دنس •• فما حججت ولكن حجت العير

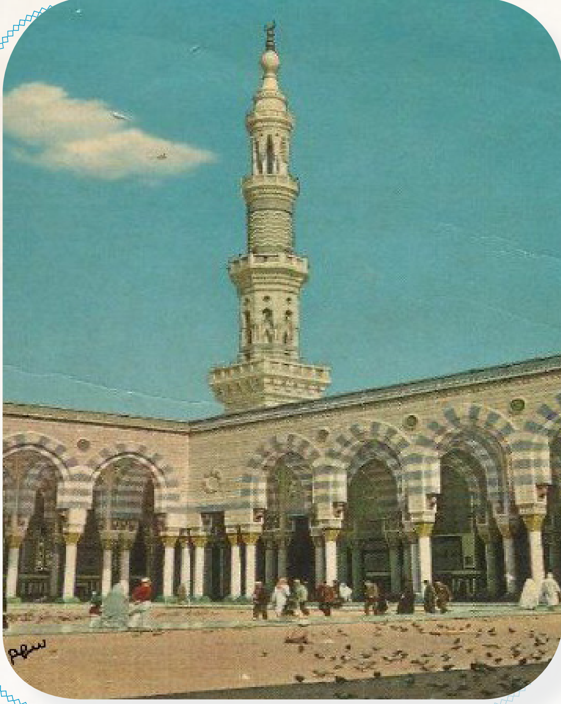
لا يقبل الله إلا كل طيبة •• ما كل من حج بيت الله مبرور



والحج المبرور الذي لا رفث فيه ولا فسوق -أي الذي ليس فيه كلام فاحش ولا خروج عن آداب الشريعة وحدودها- له في النفس وإصلاحها أكبر الآثار، لما فيه من انقطاع عن الأهل والوطن والأعمال الدنيوية، والإقبال على الله تعالى وإحياء شعائر أعظم المرشدين، والوقوف في مواقف أفضل المرسلين، والتذكر بتقلبهم في تلك المعاهد المقدسة تعبداً لله وتقرباً إليه وخضوعاً خالصاً لجلاله، لا حظ للنفس فيه.

فمن حج مثل هذا الحج المبرور، واستغرق قلبه بمثل هذا الإحساس والشعور، رُجِي أن يمحى ما كان علق بنفسه من آثار الذنوب الماضية، وعند ذلك تنبعث النفس إلى حسن الطاعة، والاستقامة على طريق الهداية، فتعمد إلى أداء ما عليها من الحقوق لله والناس بقدر الاستطاعة، فيصح أن يقال: إنها وُلدت ولادة جديدة، وأن يقال: إن السيئات الماضية قد كُفِّرت وسُترت، لأن الغفر والتكفير بمعنى تغطية الشيء، وقد غُطِّيت تلك الظلمة وسترت بهذا النور الحاضر.

حِكم الحج



حِكم الحج كثيرة، وفي كل واحد من أعمال المناسك تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر وقد شرف الله البيت الحرام بالإضافة إلى نفسه، ونصبه مقصداً لعباده، وجعل ما حوله حرماً لبيته تفخيماً لأمره، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، وفي الطواف بالبيت تشبه بالملائكة المقربين، الحافين حول العرش الطائفين حوله، وما القصد طواف الجسم فحسب، بل طواف القلب بذكر الرب، وفي السعي بين الصفا والمروة إظهار للخلوص في الخدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة وفي الوقوف بعرفة وازدحام الخلق وارتفاع الأصوات، باختلاف اللغات، تذكر لاجتماع الأمم بين يدي الله تعالى يوم القيامة، وفي رمي الجمرات طاعة للرحمن وانقياد لأمره، وإرغام للشيطان وقصم لظهره، وللرمي أذكار مخصوصة يقصد بها ما ذكرنا، فتكون الحصيات مع هذه الأذكار كالسبحة في إحصاء الأذكار المأثورة بالعدد المعين. وكانوا في الصدر الأول إذا عدوا يعدون على نحو الحصا والنوى.

هذا قليل من كثير من مقاصد الحج وحكمه وفوائده.

الله أكبر! ما أفضل الحج وشد الرحال إلى المسجد الحرام في البلد الحرام، موطن الرسول ومهبط الوحي ومطلع النور، وعاصمة الإسلام ومهوى أفئدة بنيه، ومجتمع المسلمين كل عام من جميع أقطار الأرض على تعدد أجناسهم وتنوع لغاتهم وتنائي بلدانهم يجتمعون هناك وكلمة التوحيد تجمعهم وراية الإسلام تظللهم ولغة

القرآن تربط بعضهم ببعض، يجتمعون ليشهدوا منافع لهم روحية وجسدية، دينية ودنيوية وليُحكموا بينهم أواصر المودة والرحمة فضلاً من الله ونعمة، والله ذو الفضل العظيم.

الله أكبر! ما أجمل رؤية الحجاج محرمين وملبين، ولله درهم طائفين وعاكفين وراكعين وساجدين، وساعين بين الصفا والمروة من شعائر الله، ومتعارفين متراحمين في بيت الله ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

الله أكبر! ما اعتزموا شد الرحال إلى مسجد الرسول وأداء الصلاة فيه، وزيارة صفوة العالم وسيد ولد آدم، سيدنا محمد ﷺ.

جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمنا، وإنك لتجد من الأمن هنالك ما يذكرك بعهد الخلفاء الراشدين والملوك العادلين، وحسبك أن زوّار مسجد رسول الله ﷺ يفدون إليه الآن زرافات ووحدانا، ولو ذهبت امرأة وحدها لكانت آمنة على نفسها ومالها وعرضها.

وهذه الطائرات توصل قاصد البلاد المقدسة في ساعات وهذه السيارات تطوى البيد طياً، وتحمل وفود الحج من ساحل جدة إلى مكة كل يوم بكرة وعشياً، وقد قرّبت البعيد، وخففت المشقة لا سيما على العاجز والضعيف، وصار الركب من جدة إلى مكة يصل في أقل من ساعتين، من بعد ما كان يطوى في الطريق مرحلتين، ويركب من جدة إلى المدينة في بضع عشرة ساعة من بعد ما كان يسير في الطريق بضعة عشر يوماً، ويبلغها جواً في أقل من ساعتين، فبشرى لحجيج بيت الله الحرام بشراهم اليوم!

الحج أكبر مؤتمر ديني إسلامي

فهل فهم المسلمون مغزاه؟



الشيخ محمد المختار بن محمود

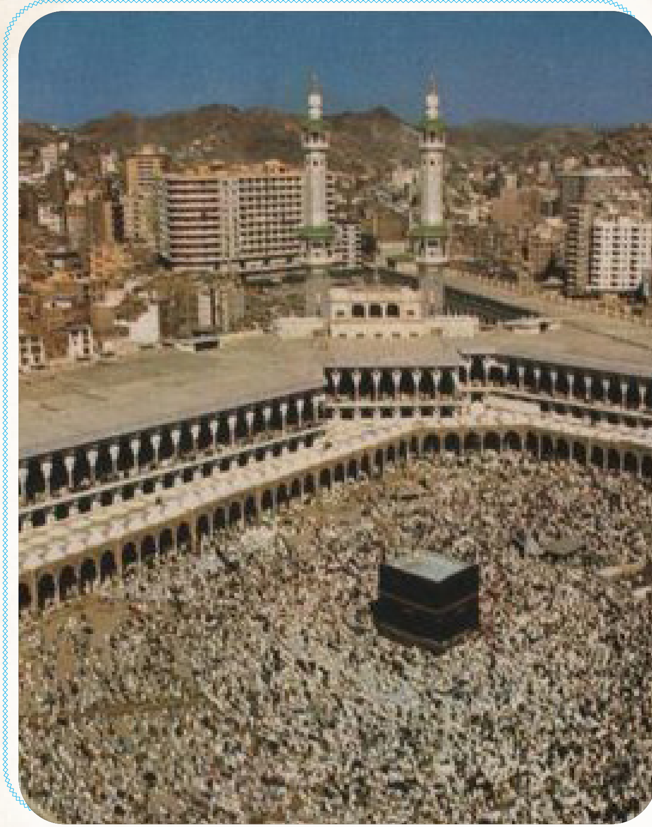
رحمه الله*

ما من شيء جاءت به هذه الشريعة الإسلامية إلا وفيه من الحِكم والفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يقف عند حد؛ فهي الشريعة التي لا تبلى جدتها، ولا ينفد معينها، ومهما بعُد العهد وتقادم الزمن إلا وتظهر للناس آياتها وتبهرهم معجزاتها وتنكشف لهم أسرارها وتشرق أنوارها.

---

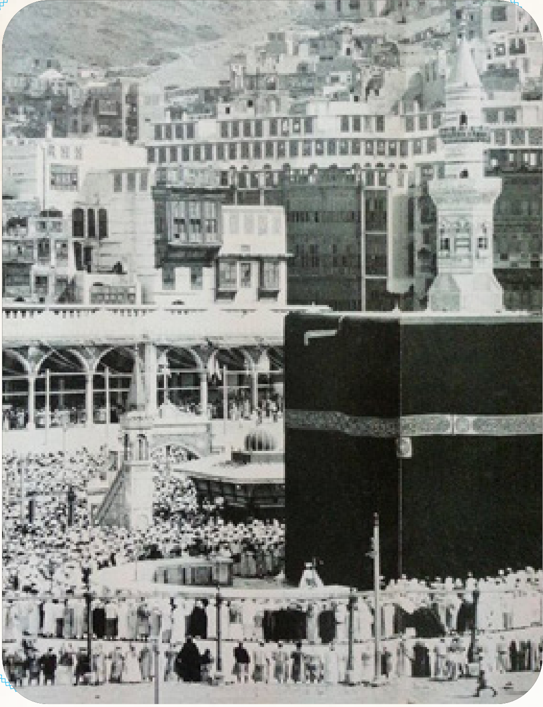
* الشيخ محمد المختار بن محمود، المجلة الزيتونية، ج٥، مجلد١، ذو القعدة ١٣٥٥، تونس.

فتأمل أيها الباحث الموفق في أي فرع من فروع الإسلام وفي أي جزئية من جزئياته، واهتدِ بنور الله فيما تقدم عليه من البحث والتأمل، فإنك لا محالة ترجع وقد مُلىء قلبك إجلالاً وإكباراً لهذا الدين القويم الذي له من كل شيء آية.



وسنحدثك في هذا المقال عن فريضة من فرائض الإسلام وهي الحج، ونذكر لك ما يشتمل عليه من المصالح الدينية والدنيوية، وفقنا الله جميعاً لأدائه وسهل لنا سبيل الوصول إليه! فنقول:

الإنسان في حياته مغمور في بحور الماديات، مشغول بها، صارف كل وقته وجهده في التحصيل عليها والمباهاة بها، والماديات تبعد الروح عن التلذذ بأهم ما خُلقت له وهو التفكر في الحياة الأخرى والاتصال بالعوالم العلوية، والوصول إلى الحقيقة الكبرى التي هي مطمح أنظار العباد المقربين إلى الله.. تلك الحقيقة التي هي الانقطاع إلى الله والإخلاص له في العبادة، والتقرب إليه بأنواع الطاعات، والانصراف إلى جانب الله وقصر الرجاء عليه، تلك الحقيقة التي تضمنها الحديث القدسي وأفصح عنها أيما إفصاح وهي قوله كما في صحيح البخاري: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضتهُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجله التي يمشي بها، ولئن سألني لَأعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنّه».



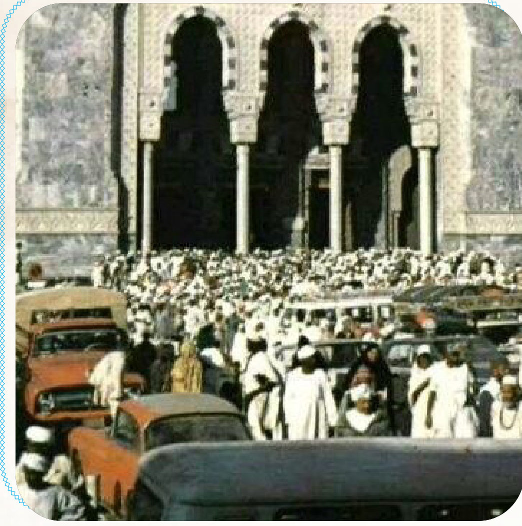
فحياتنا المادية بجميع ما فيها من المظاهر تبعدنا عن هذه الحقيقة الكبرى، وتحول بيننا وبين الوصول إليها، مع أنها أهم شيء يجب أن نسعى إليه ونحرص على حصوله.

فكان من عناية الله بعباده أن فرض عليهم أموراً تحول بين النفس وبين الاندفاع في تيار الشهوات المادية، وترجعها شيئاً فشيئاً إلى منطقة تلك الحقيقة السامية حتى تكون متهيئة للرجوع إلى الجادة المثلى والإحراز على ذلك الشرف الأسمى.

فرض الله الصلاة على عباده وجعل الإنسان في صلاته يناجي ربه، وجعله في سجوده أقرب ما يكون من ربه؛ فكانت الصلاة بصورتها وبمعناها من أنفع ما يعالج به الإنسان نفسه، ويهيئها لقبول الفتوحات الإلهية ويقربها إلى مراتب الكمال.

ثم لما كانت الحياة المادية متغلبة عن النفس وكانت شيئاً محسوساً -وللمحسوسات تغلب وتطاول على المعنويات- فقد فرض الله تعالى على عباده شيئاً آخر لمقاومتها وجعله من جنسها حتى يكون من مقاومة المثل بالمثل، وذلك هو الحج إلى بيت الله الحرام.

فإذا كان الإنسان في حياته قد تعود بالترف والبذخ في العيش والتفنن في أنواع الملاذ، والتنويع في الملبس والمأكل والتطيب والاشتغال بالأمور التي فيها قضاء لشهواته وتنفيذ لأغراضه، وتعود بالراحة وتباعد عن كل ما فيه تعب لنفسه؛ فقد جاء الحج بمقاومة ذلك كله.



ففيه السفر وركوب البحار واقتحام الأخطار، وبذلك تتعود النفس على تحمل الأتعاب وعدم الإخلاد إلى الراحة.

وفيه ترك المخيط من الثياب والاقتصار على ثوبين للتستر بقدر الحاجة، والرضا بما تيسر من الطعام والشراب، وبذلك تتعود النفس على مفارقة الحضارة التي تميت في النفس حاسية الإقدام والشجاعة، وتألف خشونة العيش وقوة العزيمة.

وفيه البعد عن الوسط الذي يعيش فيه الإنسان، بمفارقة أقاربه وأحبابه، وعدم الاشتغال بتلك السفاسف التي كان يشغل بها أوقاته، وبذلك يتعود الإنسان الاستقلال في رأيه والاعتماد على نفسه.

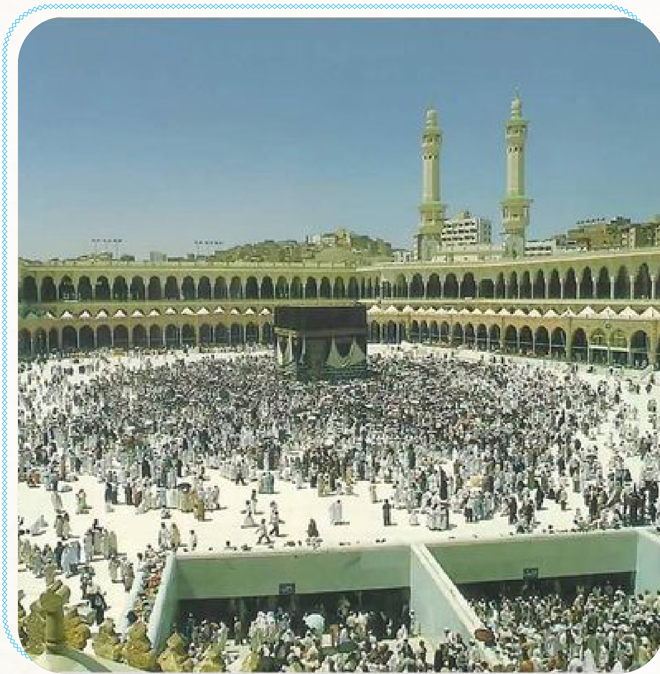
وفيه التباعد عن فتن الحياة ولهوها ومجونها، والانصراف إلى الله في مكان ليس فيه ما يشغل عن الله، ولا ما يلهي عن ذكره، وبذلك تتعود النفس الطاعة والإخلاص في العمل، وصرف الأوقات فيما ينفع.

وفيه ظهور الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم بمظهر واحد وعلى نمط واحد وفي صعيد واحد، وبذلك يُمحى الغرور من النفس وتُشفى من داء التعاظم والكبر والرياء.

فكان الحج بما اشتمل عليه من هذه الأعمال والتكاليف أنجح دواء يعالج النفوس المريضة ويصلح من شأنها، ويقاوم ذلك التيار المادي الذي كانت لا تشتغل إلا به ويقربها من تلك الحقيقة العظمى. فهذا معنى ما ذكرته من أن الحج فيه معالجة الداء بمثله، لأنه عبادة ذات أعمال كل واحد منها يقابل ناحية من نواحي الأعمال المادية الشاغلة للنفوس؛ فيقضي عليها أو يهذبها.

ومن أجل ما في الحج من هذه المعاني السامية التي قد أكون وُفقت إلى ذكر بعضها ولم أصل إلى كثير منها.. اعتنَى الشارع بأمره، ونوّه بشأنه، ورتَّب على فعله جزاء عظيماً، وجعله في صف واحد مع الجهاد في سبيل الله، ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «شدوا الرحال في الحج، فإنه أحد الجهادين».

وفيه عن أبي هريرة قال: سُئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»[1].



وفيه أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الجهاد حج مبرور».

وفيه أيضاً عن أبي هريرة قال سمعت النبي ﷺ يقول: «مَن حج فلم يَرفث ولم يَفسق رجع كيوم ولدته أمه»[2].

هذه فوائد الحج الدينية، فأما فوائده الدنيوية ومقاصده الاجتماعية:

١. معنى قوله «حج مبرور»: أي: لم يخالطه إثم، أو لم تقع فيه معصية أو لا رياء فيه، ووقع تفسير «الحج المبرور» في حديث جابر المروي في مسند أحمد ونصه: قالوا: يا رسول الله ما بر الحج؟ قال: «إطعام الطعام، وإفشاء السلام». لكن هذا الحديث حكموا على إسناده بأن فيه ضعفاً.

فالحج أعظم وسيلة لتعارف الشعوب الإسلامية واتصالها ببعضها، فالمسلمون على تباعد أقطارهم وتنائي ديارهم وتشتتهم في جميع أنحاء الأرض.. هيأ الله تعالى لهم مؤتمراً دينياً عاماً يجتمعون فيه، فيقع بينهم أولاً التعارف الذي دعا إليه القرآن في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

ثم بعد ذلك التعارف يقع التحدث عن حالة كل شعب من شعوب الإسلام، والبحث في تحسينها والنهوض بها إلى أعلى مراتب الكمال، وتبسط آمال كل شعب وآلامه وتوضع البرامج لتحقيقها، ويكون كل شعب متهيئاً لإعانة بقية الشعوب بما في طوقه وبما يقدر عليه، هذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه المسلمون في الحج وهذه هي الفرصة التي هيأها الله لهم.

فهل انتفع المسلمون بذلك؟ وهل فهموا هذا المغزى العظيم؟ وهل نظموا هذا المؤتمر الإلهي كما ينبغي أن يُنظم حتى يقع استغلاله والانتفاع به؟ نستطيع أن نجيب بالنفي عن جميع ذلك!

---

٢. الرفث: بتثليث العين في الماضي والمضارع، وأفصحها أن يكون من باب نصَر: معناه الفحش في القول، وقيل معناه إتيان النساء، والفسوق معناه المعصية. وبقي الجدال لم يذكر في الحديث، وهو مذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] ومعناه النزاع والتخاصم مع الرفقاء والمُكارين، وقوله: «رجع كيوم ولدته أمه» أي رجع مشابهاً لنفسه في أنه يخرج بلا ذنب كما خرج بالولادة، وهو يشمل الكبائر والصغائر والتبعات، قال ابن حجر: وهذا الحديث من أمتن الشواهد لحديث العباس بن مرداس الذي صرح فيه بتلك الأمور، وله شاهد آخر من حديث ابن عمر في تفسير الطبري اهـ. ويجب التنبيه هنا على أمرين، الأمر الأول: أن المراد بالمعاصي التي تغفر بالحج المعاصي التي بين الله وبين العبد، أما التي تكون ما بين العباد فإنه لا يغفرها إلا إرجاع الحق أو مسامحة المعتدى عليه، الأمر الثاني: أن المراد بمغفرة الذنوب التي بين العبد وربه العفو عن إثم تأخيرها لا إسقاطها بالمرة لأنها حقوق لا تسقط إلا بالفعل، فإثم تأخير العبادة المفروضة على العبد يسقط بالحج، أما العبادة نفسها فلا تسقط إلا بالفعل، حتى إن من كان مطالباً بصلاة مثلاً ثم حج يجب عليه قضاؤها إثر الحج، فإذا أخرها بعده تجدد له بإثم آخر، فالحج المبرور يسقط إثم المخالفة لا الحقوق. نبّه على ذلك شراح البخاري.



فالمسلمون لم ينتفعوا بهذا المؤتمر الانتفاع المطلوب، ولم يفهم هذا المغزى من الحج إلا القليل النادر منهم، ولم يكن أمر الحج في حالته الحاضرة منظماً بصورة تمكن من استغلاله وتعين على الانتفاع به. ويرجع ذلك لعدة أسباب، منها:

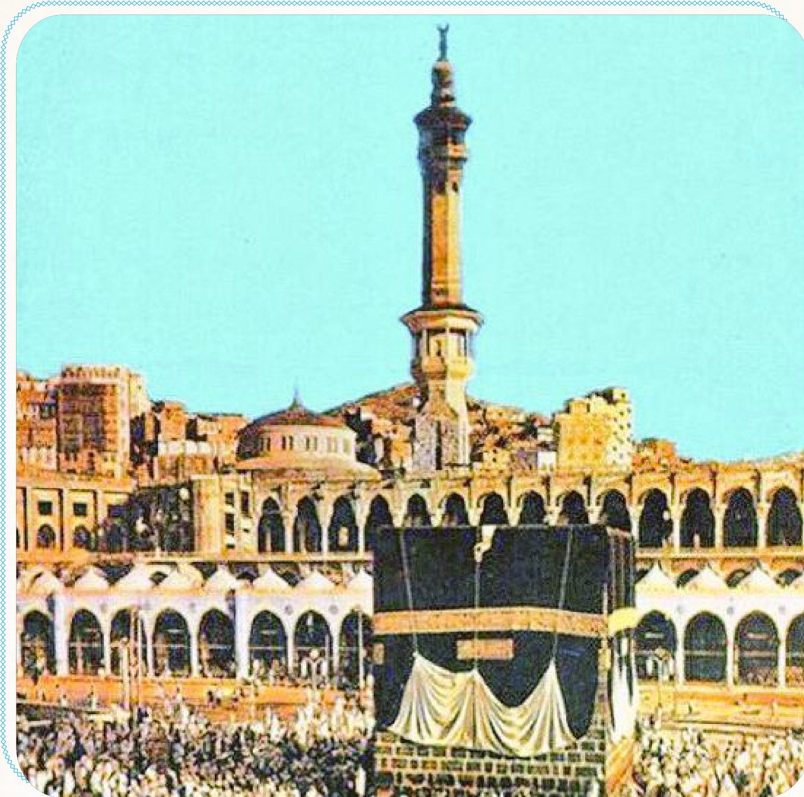
أن المسلمين إذا ذهبوا للحج، يبقى كل فريق منهم بعيداً عن الفريق الآخر، ولا يتمكن من الاجتماع به والتحدث معه؛ بل ولا يقع أصل التعارف.

ومنها أن المسلمين لغاتهم مختلفة؛ فمنهم من يتكلم بالعربية ومنهم من يتكلم بغيرها، والذين يتكلمون بالعربية لهم لهجات مختلفة وألفاظ دخيلة من لغات متعددة، فهم بذلك لا يمكن لهم التفاهم.

ولا نحتاج في إقامة الدليل على ذلك إلى شيء بعيد، فهذه الممالك الأربعة التي تعرف بالشمال الإفريقي (وهي تونس والجزائر وطرابلس الغرب والمغرب الأقصى)، على تقاربها من بعضها وتلاصق حدودها لكل واحدة منها لهجة خاصة تخالف لهجة البقية، حتى أن التونسي والجزائري يعسر بينهما التفاهم إذا خرجا عن العربية الفصحى؛ فمن أجل ذلك كان التفاهم بين الحجاج متعذراً أو متعسراً.

ولكن مقاومة ذلك في غاية السهولة، إذا صحت العزيمة على الانتفاع بهذا المؤتمر العظيم، وأمر ذلك موكول إلى الحكومة الحجازية التي على رأسها ذلك الملك المتبصر العادل الإمام عبد العزيز بن السعود، فهي إذا أرادت ذلك أمكن لها تنفيذه من غير تعب ولا عناء.

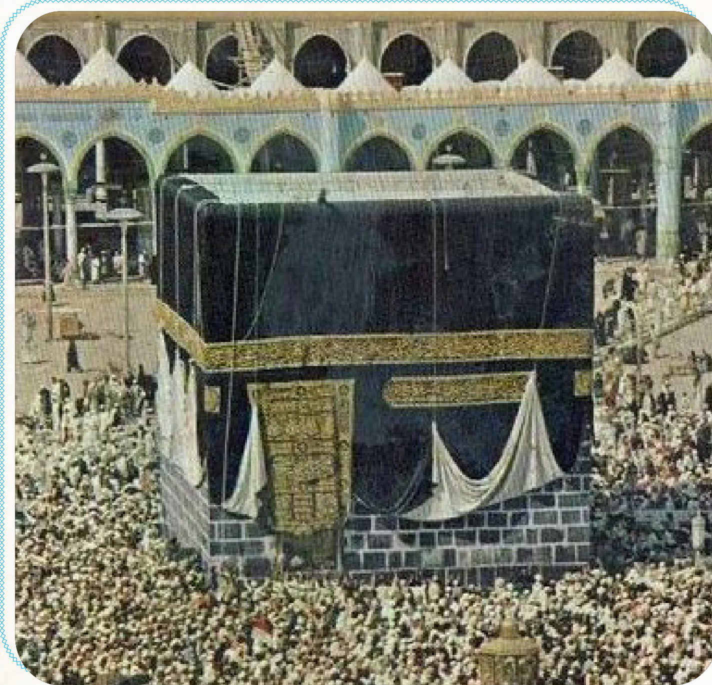
وبما لكل مسلم من الحق في إبداء رأيه والإصداع بما يراه صواباً في تنظيم شؤون الحج، فإني سأتقدم باقتراح يتضمن برنامجاً عملياً مختصراً يتكفل بتنظيم هذا المؤتمر وتحقيق الأغراض السامية التي يمكن استغلالها منه، ويقع تنفيذه ابتداء من هذا العام حيث لا تزال في الوقت فسحة.



فنقول: ينبغي أن تكلف حكومة الحجاز هيئة تشرف على الحجاج القادمين من جميع الأقطار، وهذه الهيئة تحصي عدد البلدان التي قدمت منها وفود بقصد الحج، وتخاطب أهل كل بلد ليختاروا من بينهم أربعة يمثلون تلك البلاد، ويُشترط في هؤلاء الأربعة أن يكونوا قادرين على التكلم بالعربية الفصحى -إن أمكن ذلك- ثم تعلن بتعيين يوم لانعقاد ذلك المؤتمر ومكانه وساعته، ويرأس هذا المؤتمر ملك الحجاز بنفسه، فإذا انعقد المؤتمر نودي على كل وفد بانفراده فيبسط للحاضرين حالة المسلمين في بلاده من جميع النواحي، ويعرض عليهم نقط الضعف التي عليها مسلمو تلك البلاد من ناحية الدين أو الاجتماع، حتى يقع السعي في تداركها كما يتعرض لحالة بلاده من ناحية الإنتاج ويلفت نظر بقية الوفود إلى بعض المنتجات التي قد يكون للاطلاع عليها أثر في تحسين الحالة التجارية، وتقوية الارتباط الاقتصادي بين مختلف بلدان الإسلام، وليس في ذلك ما يخل بأمر الحج من ناحية كونه عبادة؛ فقد قال المفسرون في قوله تعالى:

﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ [الحج: ٢٨] أن المراد بالمنافع: الدينية والدنيوية. واعتبر العلماء هذه الآية مرخصة للاتجار في الحج، وعليه فيكون لهذا المؤتمر نتيجة دينية ودنيوية.

ثم بعد انتهاء المؤتمر يجتمع كل وفد بأهل بلاده ويعلمهم بخلاصة ما دار فيه من الأبحاث. وبذلك تزداد الشعوب الإسلامية اتصالاً وتقوى أواصر المودة والتعارف بينها، ولا يبقى الاتصال بينها أمراً صورياً ظاهرياً بدون روح كما هو عليه الحال الآن.



هذا رأيي في هذا الأمر العظيم عرضته على عموم المسلمين، والذي أعتقد أنه سينال رضا الجميع وسيسعى كل واحد منهم في تحقيقه بقدر طاقته؛ لأن الدافع إلى عرضه عليهم هو المصلحة الكبرى التي أعتقد أننا نحصل عليها بتنظيم هذا المؤتمر على هذا الأسلوب إن شاء الله، وإن ظهر للبعض منهم مخالفة في بعض إجراءات في البرنامج الذي عرضته سابقاً فليُدلِ كل واحد برأيه وليكن هدفنا جميعاً خدمة الإسلام وترفيع شأن أهله بما بقي في طوقنا من الأعمال، وعلى الله بلوغ الآمال.

الرحلة إلى مكة



المفكر الألماني/ د. مراد هوفمان

رحمه الله*

بعد أن سلمنا أمتعتنا المتواضعة لكي تشحن إلى جدة، بعد انتظار طال في طابور بمطار الدار البيضاء، فوجئنا بموظف الخطوط الملكية المغربية يخبرنا، بدون مقدمات، أن علينا أن نختار بين العودة إلى الرباط، بما يعنيه ذلك من أنه يتعين علينا أن نقطع مسافة ١٢٥ كيلو متر، أو أن نمضي وقتنا في الدار البيضاء.

* مراد هوفمان، الطريق إلى مكة، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨م)، ص٧ وما بعدها.

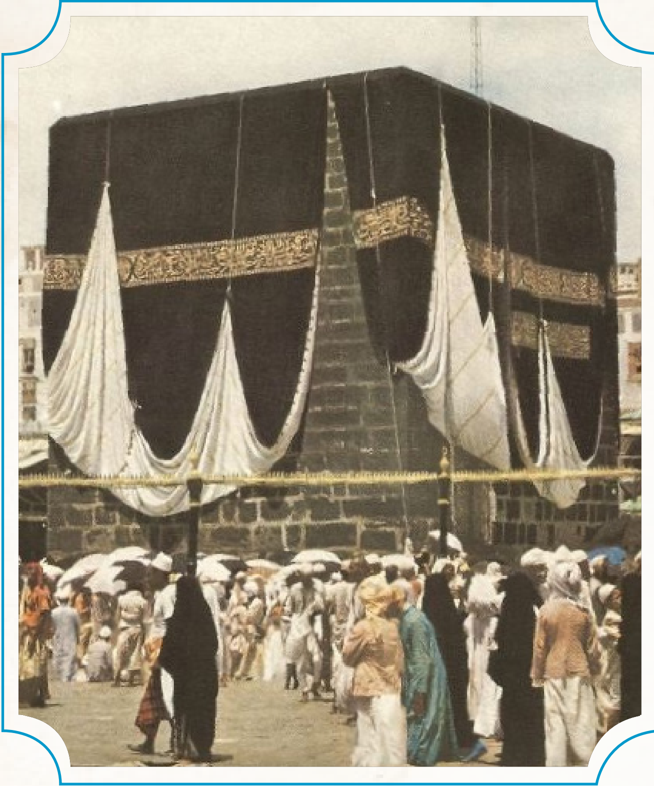
كانت هذه هي الطريقة التي رأى أن يخبرنا بها أن طائرة (الجامبو) التابعة للخطوط الجوية السعودية لم تصل إلى داكار بعد في طريقها إلى الدار البيضاء.

كان هذا الأمر كفيلاً، في ظروف عادية، باستفزاز الركاب وإثارة غضبهم. أما في هذه الظروف، وكل الركاب من الحجاج، وغالبيتهم من النساء، القاصدين مكة لأداء فريضة الحج فإن الأمر يختلف، لأن القرآن الكريم يعلمهم قائلاً: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ومعنى ذلك أن على الحاج أن يتحلى بالصبر، وأن يتفادى الدخول في خلاف أو حتى الشروع فيه. ناهيك عن أنه محرم عليه أن يجرح شخصاً أو شيئاً أو أن يقتلع نباتاً، أو يقتل حتى بعوضة.



لهذا السبب، بقيت الأمور هادئة، في إطار السلوك المتحضر. وانتهى الأمر بتأجيل سفرنا من مساء يوم ٢٨ من مايو عام ١٩٩٢، إلى صباح اليوم التالي. وعلى الرغم من ذلك، فإن أياً من الحجاج لم يرغب في مغادرة مطار محمد الخامس، فمن ذا الذي يجازف بتعريض نفسه لاحتمال التخلف عن أهم رحلة في حياته، خاصة وأنه كان قد ودّع بالفعل من قِبل أقاربه وأصدقائه؟! واستعادوا إلى الذاكرة أن رحلة المغربي إلى الأماكن المقدسة بالحجاز كانت تستغرق في الأزمنة السالفة حولاً كاملاً، ناهيك عن أنها كانت تعني للكثيرين رحلة بلا عودة!

لم يكن أحد ليرغب في العودة إلى الرباط قبل أن يؤدي فريضة الحج إلى بيت الله بمكة، ويعود مسلماً حاجاً.



وعند صلاة العشاء، يتحول مطار الدار البيضاء بصالة السفر وصالة كبار الزوار إلى مسجد كبير ممتد الأركان، ويتكرر هذا الأمر مرة أخرى عند صلاة الفجر. وتقوم فلاحة من الريف برعاية زوجها الكفيف بشكل مؤثر، أما هو فمستغرق في الصلاة على نحو يحتذي به البصير!

ونحاول في تلك الأثناء، والشحوب يكسو وجوهنا والكلام يندر بيننا، أن نحصل على شيء من الطعام من مطعم المطار. على المنضدة التي كنت أجلس عليها، كان شاب سعودي يجلس، تحدث بدون مقدمات، فقال: أتعرض في سفرياتي لإغراء احتساء الخمر، ولكن يمنعني ما تحدثني به نفسي: إنك من أهل مكة! وأتذكر بعضاً من الدبلوماسيين ورجال الأعمال السعوديين المخمورين، وأتمنى أن يسلكوا مسلك هذا الشاب، وأن يفرض عليهم انتماؤهم إلى مكة نوعا من الالتزام.

أخيراً، وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي، تقلع طائرة الخطوط الجوية السعودية من طراز (بوينج ٧٤٧) متجهة إلى جدة مروراً بـ(داكار) عبر كل من صحاري ليبيا الشاسعة والسودان. وبدلاً من الموسيقى «المخدرة» التي اعتدنا أن نسمعها عند إقلاع الطائرات، تنبعث من أجهزة الاستماع بالطائرة آيات من القرآن الكريم.

في داكار، ينضم إلى رحلتنا عدد من الحجاج، بينهم مختار ديوري نجل الرئيس السنغالي ضيوف. وننظر إليهم فنجدهم أمثلة مضيئة للحجاج، تشع وجوههم سعادة واطمئناناً.

تقترب الرحلة من نهايتها ويعلن قائدها قبل هبوطها بنصف ساعة أننا سنطير فوق منطقة الحرم حول مكة، وهي منطقة لا يدخلها الحاج، حتى وإن كان محلقاً في الفضاء إلا بملابس الإحرام. كان هذا الإعلان تنبيهاً لكل من عقد العزم والنية على أداء فريضة الحج وبدء مناسكه، لكي يرتدي ملابس الإحرام. ولم تلبث مقاعد الركاب أن أشرقت في الحال وتلألأت ببياض مبهر!

فالنساء جميعاً يرتدين ملابس بيضاء تغطي معاصمهن وأقدامهن ويضعن على رؤوسهن أغطية بيضاء، بينما يلف الرجال حول الكتف والخصر مناشف بيضاء، طولها ١٨٠ سنتيمتراً، وعرضها ١٠٠ سنتيمتر.

لم أبدل ثيابي، لأنني كنت عقدت العزم على التوجه أولاً إلى قبر محمد ﷺ بالمدينة، ثم أقوم بعد زيارته بمناسك الشروع في الحج قبل التوجه إلى مكة. كان كل ما يحتاج إليه الحاج في حقيبتي، وقد حصلت عليه من سوق سالي، مدينة القراصنة القديمة، ذلك السوق الذي يرجع تاريخه إلى العصور الوسطى. وكل متاع الحاج قطعتا قماش، وحافظة غير مخيطة لحمل القرآن الكريم وبعض من الماء، ومظلة بيضاء للوقاية من أشعة الشمس (شمسية) وحزام عريض من الجلد غير مخيط بل مبرشم، لتثبيت المنشفة وبه الجيوب الثلاثة المعتادة التي يُستخدم أحدها لحفظ جواز السفر، والثاني لحفظ



تذكرة الطائرة والثالث لحفظ بعض الأدوية. وكنت قد أحضرت معي عملاً بنصيحة الطبيبة الخبيرة بالحج أدوية لعلاج آلام الرأس (الصداع)، وآلام الأسنان، واضطرابات المعدة، والإسهال والقيء وارتفاع درجة الحرارة، إلى جانب ضمادات للأقدام الملتهبة ومصل للوقاية من الالتهاب السحائي.



وكان معي أيضاً بالإضافة إلى ما تقدم، زوجان من «الصنادل» غير مخيطين، صنعهما -بناء على طلبي- ولصقهما وضفرهما إسكافي شِبه كفيف في سوق سالي. ويبدو على الأرجح أن هذا الشيخ عمل طوال حياته في صناعة أحذية الحجاج وتزويدهم بها، غير أنه -على ما يبدو لي- لم يعد متمكناً من حرفته؛ فعند انصرافي من أمامه أومأ لي أحد جيرانه وأخذ مني الصنادل، وأصلحهما في صمت تام ودون أن يلحظ الشيخ المسكين شيئاً دون مقابل.

تمكن قائد الطائرة من الهبوط في المطار الصحيح بين مطارات جدة الخمسة. فهذا المطار يبدو -على الرغم من كونه بناء أسمنتياً- وكأنه مدينة خيام تنساب سابحة فوق الرمال.

تعهدني منذ وصولي -كما تعهد غيري- مطوّف يضطلع بمسئولية إقامتنا وانتقالاتنا، وطبعاً إرشادنا لمناسك الحج. وكان علمنا بهذا الأمر مبعث اطمئنان لنا، مع أن المرء منا كان قد حاول -فيما يشبه دراسة دينية- أن يحفظ كل ما عليه أن يفعله طبقاً لما ورد في القرآن والسنة حتى يتقبل الله منه إن شاء الله.

في الفندق الذي نزلت به حيث كنت أقيم تحت رعاية إدارة المراسم الملكية، التقيت بمسلمين من أنحاء العالم كافة، من جزر القمر إلى واشنطن العاصمة. وكانت أحاديثنا تدور حول شيء واحد هو الإسلام، وبفضل المناقشات الفكرية التي جرت بيننا بدت لي رحلة الحج وكأنها جامعة متنقلة. وكان أحد من تحاورت معهم هو الشيخ محفوظ نحناح من الجزائر. وقد قدر لي أن ألقاه أكثر من مرة أثناء رحلة الحج.



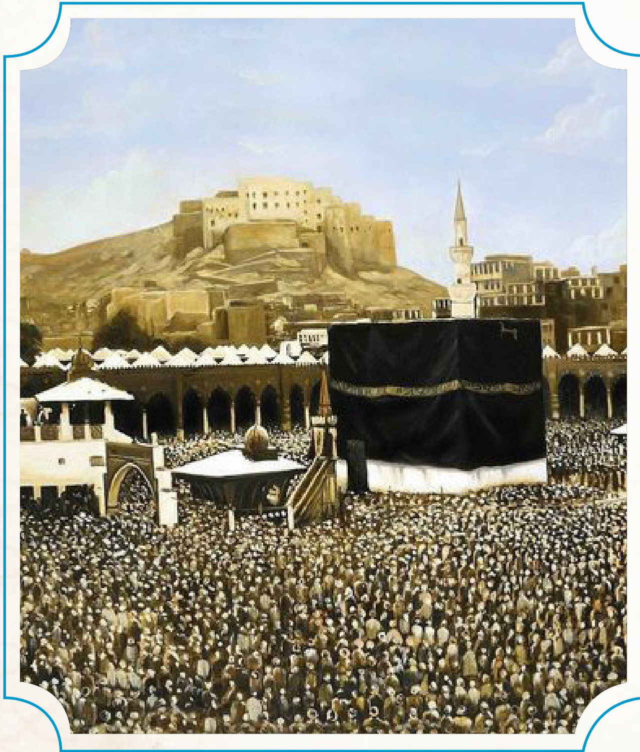
في طريقنا إلى المطار الحربي يوم ٣١ من مايو، اندفعت قافلتنا بسرعة جنونية مخترقةً شوارع جدة، حتى إننا فقدنا إحدى سياراتنا الليموزين. وحينما وصلنا إلى المطار قبل الموعد المحدد كان علينا أن ننتظر ركاب السيارة الليموزين المفقودة، في جو قائظ تصل حرارته ٤٠ درجة مئوية! ألم أقل من قبل إن الصبر هو أول فضائل الحج؟!

أقلتنا طائرة من طراز هرقل ١٣٠، تابعة للقوات الجوية السعودية في رحلة استغرقت ٥٠ دقيقة إلى المدينة المنورة، التي كانت ملجأ وملاذ محمد ﷺ ممن اضطهدوه من المكّيين، وفيها أصبح الإسلام ديناً ودولة، ووضع رسول الإسلام ﷺ أول دستور مكتوب لكيان فيدرالي -يحقق اتحاداً بين المسلمين واليهود- وفيها أكمل رسالته الخاتمة، وفيها تُوفي.

توجهت على الفور بصحبة الشيخ نحناح إلى مسجد الرسول ﷺ حيث قبره. ولقد أنشئ هذا المسجد بجوار إقامة محمد ﷺ، ومع الحفاظ على منازله ﷺ جرى توسيع المسجد أكثر من مرة. وتبدو كل المحاولات السابقة لتوسيعه شديدة التواضع بالمقارنة بالتوسعات الأخيرة كما يرى الجميع. ففي زيارتي الأخيرة في عام ١٩٨٢، كان هناك ٦ مآذن فقط، صارت الآن ١١ مئذنة، ومن المخطط له بناء ٣ مآذن أخرى. وفيما مضى كان المسجد يسع بضع مئات من المصلين، أما الآن فتبلغ مساحته حوالي ٧٠٠ ألف متر مربع، تسَع نحو ٦٠٠ ألف مصلّ.

أما أعمدته الكثيرة، فصورة مصغرة للمسجد الأُموي بقرطبة. ولقد زودتْ إحدى الشركات الهندسية التي يديرها مسلمون ألمان المساحات غير المسقوفة من المسجد بمظلات واقية من أشعة الشمس، يبلغ قطر كل منها حوالي ١٨ متراً، تُفتح وتُغلق حسب سقوط الشمس وتستدير في اتجاهها.

حينما حان موعد صلاة العشاء ودرجة الحرارة ٤٤ درجة مئوية، اجتمع في المسجد مئات الألوف من المصلين جاءوا من شتى الاتجاهات. وعندما تحاول سيارات الليموزين الأمريكية الفارهة التي تقل بعض الحجاج اختراق حشود المسلمين، لا تسمع كلمة غاضبة ولا تصدر أي إشارة قبيحة ولا يضرب أحد بيده على السيارة حقداً على أصحابها. ويبقى الانضباط والالتزام بهذا السلوك من جانب هذا الحشد من المسلمين



مثيرين للدهشة، حتى بالنظر إلى التزام الحجاج بمسألة الإنسان والحيوان والنبات. ولم أكن أعتقد قبل هذه التجربة أن التعاليم الدينية تستطيع أن تلغي بعض القوانين والقواعد الاجتماعية لفترة من الزمن.

كان يجاورني في الصلاة مواطن باكستاني يعمل في بنك بالبحرين، ومواطن تركي يعمل في (بوخوم). وهذا الالتقاء العالمي هو أحد أهداف الحج. وعلى الرغم من أن جوانب المسجد مفتوحة فإننا لم نكن نتوقع أن تكون درجة الحرارة داخل المسجد ٢٨ درجة مئوية فقط. وهو ما أثار دهشتنا التي لم تلبث أن تبددت حينما علمنا أن المسؤولين السعوديين يمررون ماء مثلجاً تحت المسجد. ولابد أن هذا الماء يأتي من مسافة بعيدة لأن الحرارة الناتجة عن عملية التبريد كانت كفيلة بأن تصل بهذه المدينة إلى درجة الغليان.

تمكنا عند منتصف الليل من زيارة قبر محمد ﷺ وقبري أبو بكر وعمر -أول وثاني الخلفاء الراشدين- في أقدم أجزاء المسجد، حيث كان منزل رسول الله ﷺ ومقر إقامته، ها هنا مثواه، حيث دُفن في منزل زوجته الشابة عائشة، التي تحظى باحترام كبير والمعروف عنها ذكاؤها الشديد وإليها يرجع الفضل في وصول عدد كبير من الأحاديث الصحيحة إلينا في صورتها الدقيقة.

إن الوجود حيث عاش الرسول ﷺ -الذي حظي باحترام شديد دون أن يؤلَّه على الإطلاق-وحيث خطط وعمل ووعظ وأحب وعانى سكرات الموت، لأمر يستحوذ على الأنفس كلها. وفي هذا المكان، الذي يفوح منه عبق التاريخ، هزت التجربة من الأعماق بعض الحجاج المصاحبين لي فأجهشوا ببكاء حار.

وحين انصرافنا من المسجد عند منتصف الليل، رأيت مجموعة من نساء ماليزيا ما تزال تحتل محرابه الوقور مع بساطته. إنهن لم يشبعن من أداء الصلاة في هذه البقعة الشريفة. ولم يخطر ببال أحد -حتى مسئولي النظافة- أن يبعدهن ولو بمجرد النظر إلى الساعة.



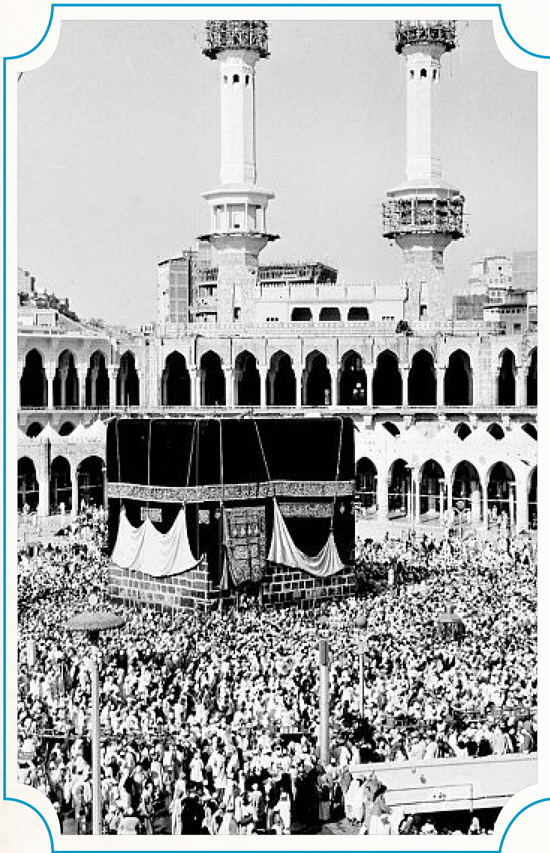
عقب انصرافنا من المسجد، شاركْنا حتى صلاة الفجر في نقاش مع مجموعة من طلاب الشريعة الجزائريين في مكان إقامتهم المتواضع النظيف الذي يطلقون عليه -بحق- اسم «النهضة». وكنت قد أدركت ونحن في الطريق إليهم الشعبية المنقطعة النظير التي يحظى بها رفيق رحلتي. فلم يكن الشيخ نحناح يسير ٥٠ متراً دون أن يلقاه أحد الجزائريين مرحباً ومعانقاً وسائلاً المشورة.

في اليوم التالي، زُرت البقيع -المقابر الشهيرة- حيث يرقد جثمان كثير من الصحابة وأهل بيت الرسول ﷺ الذين وافتْهم المنيّة بالمدينة. ومن بين من دُفن هنا: السيدة عائشة، والسيدة فاطمة ابنة الرسول ﷺ زوجة علي وأم حفيدَي رسول الله ﷺ الحسن والحسين. وتطبيقاً للفكر الوهابي لا توجد هنا مشاهد مميزة للمقابر، خلافاً لما عليه الحال في طراز المرابطين في المغرب. بل إن الأمر يختلف أيضاً اليوم عما كان عليه في عام ١٩٨٢م، حيث أمكننا آنذاك التعرف على قبر الخليفة عثمان، فالمقابر قد سُويت بالأرض، ولم يعد هناك اليوم من سبيل إلى قصدها للزيارة، وإحياء ذكرى من يرقدون بها من الموتى، ويمثل هذا المنع الجذري لمظاهر التأليه استفزازاً لمجموعة من الحجاج الشيعة من إيران وبصفة خاصة فيما يتعلق بفاطمة الزهراء.

وكان من وافاه أجله من الحجاج يُحمل إلى المسجد لتقام عليه صلاة الجنازة. ولم يكن يحزننا سوى أنهم لم يكملوا أداء مناسك الحج. ولكن أهناك موت أفضل من الموت بمكة أو في المدينة؟ أوَلا يأتي كثيرون إلى هنا بأمل قضاء أيامهم الأخيرة؟ لقد كنت أدرك احتمال أن أكون بين من يُحملون إلى المسجد في مرة قادمة، لكن لم يفزعني هذا الخاطر على الإطلاق.

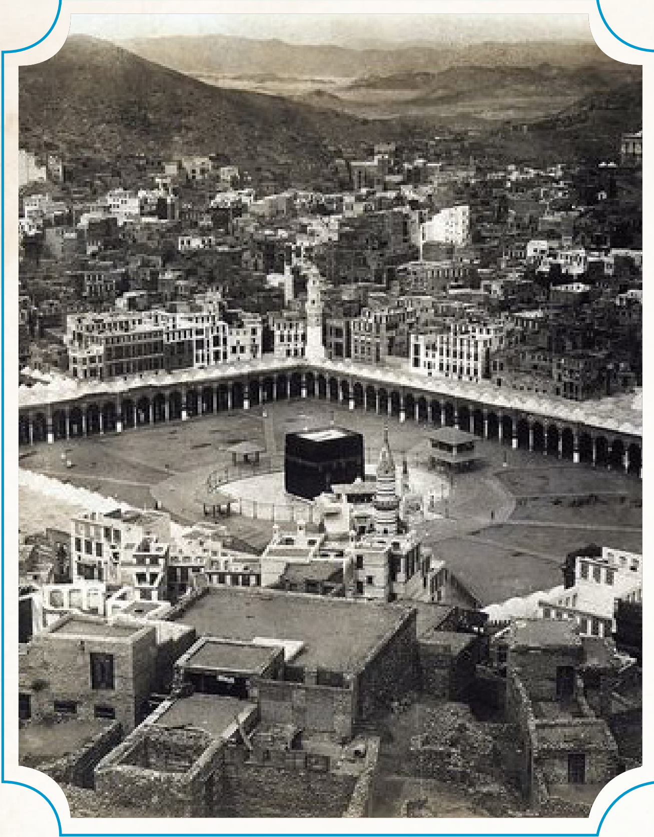
بعد زيارة البقيع، توجهنا إلى المسجدين التاريخيين: قباء والقبلتين، وإلى موقع معركة أُحد حيث مثوى سبعين من الصحابة، بينهم الفارس حمزة عم محمد ﷺ، وحيث مُني المسلمون الأوائل بهزيمتهم القاسية والوحيدة، بسبب ضعف الانضباط وعدم الالتزام التكتيكي، وحيث أُصيب محمد ﷺ بإصابات بالغة، وتعرض للموت.

إن منطقة أُحد لا تعدو اليوم أن تكون مكاناً مقفراً قاحلاً، لا زرع فيه ولا ضرع، ولا يتيح لسائح راغب في العلم أو المعرفة أن يحقق رغبته. أما المسجدان الموصوفان بأنهما تاريخيان فبلا تاريخ للأسف الشديد؛ فبسبب النظرة الوهابية والخوف الوهابي من أن يؤدي التقدير العظيم لما هو قديم إلى الشرك، أعيد بناء المسجدين -دون مراعاة لمكانتيهما- على نحوٍ طمَس معالمهما التاريخية. لقد كان باستطاعتي في عام ١٩٨٢ أن أرى القِبلتين في مسجد القبلتين. القبلة الأولى للمسلمين الأوائل باتجاه القدس، والقبلة الثانية للمسلمين الأوائل أيضاً باتجاه مكة.



في اليوم الثالث من شهر يونيو، عدنا إلى جدة على متن إحدى طائرات القوات الجوية السعودية. وكنا قبل العودة قد زرنا أحدث مطابع العالم عند طرف المدينة المنورة، حيث يطبع سنوياً ٣٨ مليون نسخة من القرآن الكريم تُوزع مجاناً، من بينها ملايين من النسخ من الترجمات الإنجليزية والفرنسية، وحتى الكورية للقرآن الكريم. ويحصل كل حاج على نسخة خاصة له.

عقدت النية على أداء فريضة الحج، وعلى نحو أقرب ما يكون للذي فعله الرسول ﷺ، أي:
أداء مناسك العمرة أولاً ثم أداء مناسك الحج. فاغتسلت وتلوتُ الأدعية الواجبة، وارتديت ملابس الإحرام، وبذلك أتممت استعدادي لأداء فريضة الحج قبل أن نتوجه إلى المطار بفترة قصيرة.. بفترة قصيرة؟ لقد انتظرنا لمدة ساعتين وصول السيارة التي كانت ستقلنا إلى المطار، حيث انتظرنا لمدة ساعتين أخريَين قبل أن تقلع بنا الطائرة. ومع ذلك لم ينبس أحد بكلمة.



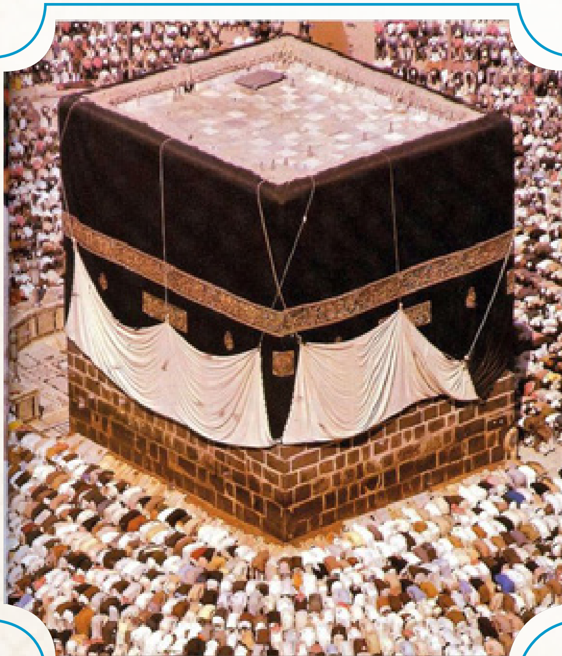
انتهزت فرصة وقت الانتظار للتحدث مع مجموعة من المتخصصين في الكمبيوتر من أمريكا الشمالية سرعان ما تبين أنهم من الشيعة. هل يمكن للمرء أن يتخيل عملاً يلقى نفوراً واستهجاناً أكثر من هذا لدى الرأي العام الأمريكي خاصة في ظل حرب الخليج الثانية؟!

على الرغم من أنني ارتديت ملابس الإحرام لمدة نصف يوم عندما أديت عمرتي الأولى -الحج الأصغر- في عام ١٩٨٢، فإنني لا أشعر بعد بالراحة في ملابس الإحرام هذه المرة. ومع ذلك يستطيع المرء أن يحمي نفسه من ضربة الشمس بواسطة الجزء العلوي الذي يتحرك دوماً من مكانه، كما أن نسيجها يمتص العرق، وإن كانت الأبدان تقشعر من البرد في الغرف المكيفة. ولكن أهم ما في الأمر هو أن الحجاج كافة يرتدون الثياب نفسها، يستوي في ذلك أغنياؤهم وفقراؤهم، أقوياؤهم وضعفاؤهم، أذكياؤهم وبسطاؤهم،

كبيرهم وصغيرهم. ولما كانت ملابس الإحرام خالية من النقوش أو الخياطات، فلا يمكن لأحد أن يتميز عن آخر، ولو بمجرد الخياطة الأنظف، ولا ترمز ملابس الإحرام فقط إلى تساوي البشر أمام الله، بل ترمز أيضاً إلى يوم القيامة، فلقد كنا نبدو -ونحن نقطع صالة المطار جيئة وذهاباً- كمن قام من الموت وما يزال يرتدي كفنه. بل إن كثيراً من الحجاج يحتفظون بالفعل بملابس إحرامهم كأكفان لهم.

عند إقلاع الطائرة، كان بعض مسئولي البروتوكول في المدينة المنورة يقفون هناك. كل حركاتهم وخطواتهم وقورة ومحسوبة، وهم جميعاً يتمتعون بقامات فارعة، وبروفيل نبيل معبر ذي أنف معقوفة قليلاً، ولحى قصيرة معتنى بها بشدة. وتوحي عباءاتهم الخفيفة السوداء ذات الحواشي الذهبية بجلال ملكي.. أي تناقض بين ما هم فيه وما نحن فيه من أكفاننا؟!

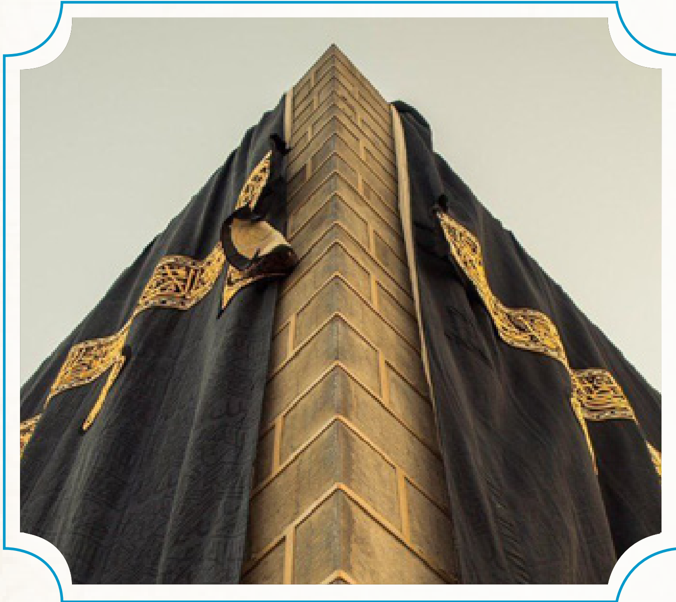
كان رفاق رحلة حجي من السنغاليين في الطائرة شديدي الحساسية تجاه العرب، الذين يعدون أنفسهم -تشبهاً باليهود – أفراد شعب الله المختار، كما هو الأمر في حالة قريش مكة وقبائل المدينة، وهم ليسوا كذلك وحدهم بطبيعة الحال. ومن جانبي، أقررت أنه لا بد للمرء من أن تدور رأسه غروراً إذا ما صادفه الحظ الأوفر مرتين في تاريخ العالم: أولاهما، عندما بعث خاتم الرسل في الأرض العربية برسالة بالعربية. والثانية: عند ظهور بركة النفط والغاز الطبيعي.



رفض جميع من بالطائرة القبول بأن العرب ينفردون بوضع يتيح لهم وحدهم فهم الرسالة الإلهية للقرآن؛ فالإسلام لا يعرف التفرقة العنصرية.

كان ضجيج الطائرة يجعل من مواصلة هذه الأحاديث أمراً شاقاً. ولم يكن الحال كذلك بالنسبة للتلبية، التي أخذنا نرددها كما فعل كل الحجاج قبلنا منذ ١٤٠٠ سنة: «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». ولسوف يظل هذا الدعاء يتردد على مسامعي حتى يوم عيد الأضحى، وإن لم يكن مني أنا فمن شخص على مقربة مني. وكنا قد علمنا في هذا اليوم بموعد العيد، فلقد ظهر هلال شهر ذي الحجة بالليل. ومعنى ذلك أن وقفة عرفات ستكون يوم العاشر من شهر يونيو، وسيكون عيد الأضحى يوم الحادي عشر منه، حيث نصل إلى نهاية المطاف.

في الرابع من شهر يونيو، أدّيت العمرة رفقةَ وزير الشئون الإسلامية السريلانكي وأسرته. ولقد كان انتظارنا في جدة طوال فترتي ما بعد الظهر والمساء، قبل أن نغادرها إلى مكة، أمراً مفيداً لأننا حينما وصلنا إلى مكة عند منتصف الليل كانت درجة الحرارة قد انخفضت إلى ٣٨ درجة مئوية.



وقبيل أن نصل إلى غايتنا عبرنا أحد الأنفاق التي شُقت في صخور مكة المكرمة. ولكم كانت المفاجأة مذهلة عندما خرجنا من النفق لنجد أمامنا المسجد الكبير الرائع! هانحن أولاء نقف في تقليد إبراهيمي أمام أقدم معابد التوحيد في العالم.. أمام الكعبة!

والكعبة مكعب مجوف خال تماماً، مبني بأحجار ضخمة. إنها صورة معمارية لكمال الله في أبسط تصوير بعيداً عن التعقيد الذي يبدو في الفن القوطي وفن الروكوكو. وهي تُكسى بمخمل أسود مطرز بآيات من

القرآن الكريم بخيوط من الذهب. ويجرى تغيير الكسوة سنوياً. وتتوفر مجموعة من المطرزين طوال العام على إعداد الكسوة في ثوب فني جميل. وفيما سلف من الزمان كانت كسوة الكعبة تأتي من القاهرة هدية من الخديوي. وترفع الكسوة عن الكعبة أثناء فترة الحج، حتى لا يتصور أحد أن بيت الله تحفة فنية أو يراد له أن تكون تحفة فنية.

عند دخولنا إلى الحرم المكي، خضعنا لعملية تفتيش سريعة للتأكد من أننا لا نحمل أسلحة، دلفنا بعدها إلى داخله برغبة تكاد تكون مقدسة للطواف سبعاً وتواعدنا على اللقاء بعد ساعتين.

بدأنا بعد ذلك نطوف حول الكعبة.. التي يتجه إليها مليار من البشر في صلواتهم اليومية. ولم يغِب عن خاطري طوال الطواف أننا نتوجه في طوافنا إلى الله، وأضفت إلى الأدعية المعتادة دعاء شخصياً مفاده: «اللهم اجعل الحق يقر في نفسي واجعل الحق حقيقتي الشخصية».

تذكرت أن هذا البيت كان في سنوات شباب محمد ﷺ مليئاً بالأصنام ومن بينها تمثالان: أحدهما للمسيح والآخر لمريم. أي أنه كان يعكس تعدداً دينياً اقتصادياً ناجحاً ومذهلاً، إذ كان يتطابق مع معنى أيديولوجي حديث ألا وهو «كل شيء يصلح». ولقد كانت مكة آنذاك مركزاً تجارياً عالمياً. أما اليوم فهي مركز حج عالمي. وكانت وقتها تستقبل في الأشهر الأربعة الحرم أي إنسان، بينما لا تستقبل اليوم سوى المسلمين من أرجاء العالم كافة[1].

---

١. لمتابعة بقية القصة.. يراجَع المصدر.

الصادعون بالحق

﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾

من إنتاج علمائنا الأسرى

من معاني الحج..

الاستجابة لله وحده



د. محمد بديع

فك الله أسره*

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومَن والاه، وبعد:

فقد قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨]، فكانت الاستجابة الفورية في نداء الأمة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

* د. محمد بديع، فكّ الله أسره، مقال: من معاني الحج الاستجابة لله وحده، ٢٠١٠م، رابط إلكتروني:ikhwan.site/p-166084.

فالتلبية هي الاستجابة، والاستجابة لله تعالى هي جوهر العقيدة وأساس العبادة، فما أمرنا الله إلا بما في وُسعنا عمله وتنفيذه، وهو السهل اليسير الطيب الجميل، والثواب الجليل والعطاء الجزيل؛ وذلك ليستصحب كل أفراد الأمة هذا المعنى العظيم، الذي هو من أصول العبودية لله وحده، لنعز بها ونعلو، فأين نحن من معنى الاستجابة ونحن المحتاجون إليها؟ ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: من الآية ٣٨].



نماذج مضيئة

أعظم معاني الاستجابة هناك في هذه البقعة المقدسة التي يجتمع فيها حجيج الأمة، تتجلى أعظم معاني الاستجابة، وأكمل معاني الانقياد لله رب العالمين:

- في أرضٍ قاحلة لا زرعَ فيها ولا ماء ولا حياة، يأتي الأمر من الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام، أن يُسكن أهله هناك.. فيستجيب.

- وتأتي الأم الوحيدة ورضيعها بين يديها فلا تجد إلا الوحدة والوحشة، وهي تقول مرارًا: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بوادٍ غير ذي زرع ولا ماء، ولا أمنَ ولا أمان؟! لكنه مضى لتنفيذ أمر ربه لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا.

لاطمئنانها بأن الآمر بذلك هو الله تعالى.. فتستجيب.



- ويكبر الابن الحليم الصابر، وهو الذي رُزِقَ به إبراهيم على كبر، فاجتمعت فيه كل دواعي تعلق الأب بابنه، فيؤمر إبراهيم بذبحه بعد أن بلغ الابن أشده.. فيستجيب. يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢- ١٠٥].

فعلى عِظَم الأمر وشدة البلاء، أُسرة كلها تستجيب لأمر الله.

وهناك على ثرى مكة؛ حيث يجتمع وفد الأمة، نزل على الحبيب المصطفى ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢].. فاستجاب.

وهناك نزل عليه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١، ٢].. فاستجاب.

وهناك نزل عليه ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].. فاستجاب.

وهناك نزل عليه ﷺ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].. فاستجاب.

وهناك نزل عليه ﷺ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: من الآية ٧٧].. فاستجاب.

وهناك قام فيهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الله، فقالوا آمنّا وصدقنا، وسمعنا وأطعنا.

فكانت الاستجابة معنًى ملازمًا لحياتهم لا ينفك، حتى أثنى الله عليهم، بقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: من الآية ١٩٣] استجابة فورية كانت جائزتها: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: من الآية ١٩٥].

استجابة الأمان: إن بيت الله الحرام هو منطقة الأمن والأمان، في أتون المعارك المستعرة، والخصومات والصراعات بين المتزاحمين على تراب الأرض وطينها، والمتقاتلين على التفاهات والزعامات، والكل يريد الاستعلاء على الآخرين والقهر للآخرين، والجميع تقتلهم المطامع والشهوات، تقدم هذه المنطقة المباركة للعالم السلام محل الحروب، والطمأنينة محل الخوف؛ حيث يشعر المسلمون بالحب والإخاء والاستقرار والاطمئنان، يقول تعالى ردًّا على خوف أهل الدنيا على دنياهم ومناصبهم ومكاسبهم المادية: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، فيظل الحرم بكل ما فيه من نعم وأمن وسكينة ردًّا



على كل مَن يتقول مثل هذا القول إلى يوم القيامة، وما أحوج البشرية المتصارعة اليوم إلى هذا الأمن والأمان! لتتعلم أن هذا الإسلام وحده هو زورق النجاة وسلم الفوز، والحل لمشكلاتها المتعاقبة والمتشابكة.

استجابة العزة: يقول تعالى: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٧]، ومن هنا تحدد الاتجاه لمسيرة الإنسان في الحياة، فالطريق الحافل بالرفث والفسوق والجدال والفساد يجب أن يغلق، وسحقًا لحياة الرفث والفسوق والجدال والاستبداد، سحقًا للفحش كله، سحقًا لحياة الهبوط والسقوط والكذب والسرقة والتزوير، سحقًا لحياةٍ يحجب المرء فيها عن ربه، إنها حياة تافهة رخيصة، سحقًا للمهاترات والصراع والجدال، ولنبدأ من الآن الاتجاه إلى الله وحده، مالك العزة وحده؛ ولذلك وهبها لرسوله وللمؤمنين، فلا مصدر للعزة غيره، ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: من الآية ١٣٩]، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَن حج ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[1]. فهذه ولادة جديدة بعد أن لبست كفنك واستعددت للقاء ربك رد عليك عمرك وزيادة.



فليكن منا عهد وميثاق جديد مع مالك الملك، الغني عن العالمين، فليكن ميلاد جديد لكل فردٍ مسلم، فالاستجابة لله هي معالم الطريق، وهدير التلبية، يعين المسلم على الصعب في سبيل عقيدته، هدير هو الحداء الذي يرفع المسلم إلى القمة، ويجعله يستعلي على كل الدنيا فتأتيه الدنيا وهي راغمة.

---

١. رواه أحمد.

استجابة التضحية: إن المسلمين اليوم وغدًا تنتظرهم في هذا العالم واجبات وتكاليف لا يستطيع أداءها إلا الذين تخففوا من ثقل الحياة وهمومها، وارتفعوا فوق متع الحياة، ولم يركنوا إلى الراحة والدعة وطلب العافية والسلامة، كما تنتظرهم أعباء لا قبلَ لهم بها، إذا لم يخلصوا أنفسهم لله، ويعطوا من وجودهم وكيانهم عطاء الخائف من يوم الحساب، الطامع في الثواب: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، لا بد أن يدرك المسلمون أن أمتهم اليوم وهي تمر بهذه الفترة العصيبة من تاريخها ستشفى من مرضها، وستستعيد عافيتها ووحدتها وتحمل رسالتها بإذن الله، ولن تكون عاجزةً عن الحركة، فالعجز الحقيقي في هذه الأمة، إنما هو في شلل المواهب وفقدان الهمم والعزائم، وهذه الصحوة في شعوب الأمة وبخاصة شبابها، هي الشفاء من العلل، والاستهداء بالإيمان، والاستعلاء على متاع الدنيا؛ ولذلك يقسم رسول الله الصادق المصدوق: «والله لَيُتِمّنّ الله هذا الأمر».

أمة واحدة

ندعو الشعوب الإسلامية ألا تقف موقف المتفرج، بل كما عهدناها لا تضعف أمام حملات التشويه والتخريب، بل تقف جادةً أمام الكوارث التي تنزل بها، مستلهمةً من الحج المزيد من دروسه وعبره، من تحمل المشقات، وتقديم التضحيات، والعمل لتوحيد الأمة تحت راية الإسلام، وليس للأمة في تحقيق ذلك غير طريق الاستجابة، فهو طريق «لبيك اللهم لبيك»، طريق خير أمة أخرجت للناس، طريق الأمة الوسط، الأمة التي ألزمها الله بحمل رسالة الإسلام إلى الدنيا، في عزم وقوة ومضاء، لتقوم بدورها في هداية البشرية وإنقاذ العالم وتحرير الدنيا من العبادة لغير الله، ونشر الرحمة والعدل والحرية في ربوع العالمين، تحمل رسالة كل الأنبياء والمرسلين وترث ميراث خاتمهم محمد ﷺ الذي قال له ربه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].



إنها مهمة التبليغ والدعوة والتغيير والإصلاح، والثبات على ذلك، حتى تصل رسالة الحق إلى كلِّ بلد، وتدخل كل بيت، عن طريق الإقناع والدليل، ونصاعة البرهان، وسلمية النضال.

ومن تمام هذه المهمة وفي ظلِّ أجواء الحج، يجب ألا ننسى ما نزل بإخواننا في فلسطين المسلمة، أرض العروبة والإسلام، وما يعانون منه على أيدي العصابات الصهيونية المجرمة، وما ينزل بإخواننا في العراق، وما ينزل بإخواننا تحت نير الاحتلال الأمريكي الظلام في أفغانستان، وما يُحاك للأمة العربية والإسلامية من مؤامراتِ التقسيم والانقسام في السودان وباكستان والصومال واليمن، نتذكر كل ذلك، وليرى منا ربنا بالفعل وفاءً بما عاهدناه سبحانه وتعالى عليه فيوفي سبحانه بعهده معنا: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: من الآية ٤٠].

فهيا ننطلق على بركةِ الله مؤمنين بضرورة العمل لديننا، ونصرة إخواننا، وتخليصهم من ظلم البشر.

وإن أمةً تتجه جميعها إلى قبلةٍ واحدة، يقودها منهج رباني واحد خالد، ومشاعرها واحدة، وكتابها واحد ونبيها واحد وقبلتها واحدة، لو استيقظت ورجعت إلى ربها فلن تغيب أبدًا بإذن الله، ولن تموت أبدًا بإذن الله، وهذا أمل في الله كبير، وهو سبحانه القادر القاهر فوق عباده.

﴿والله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: من الآية ٢١].

والله أكبر ولله الحمد.

إلى البيت العتيق



د. أحمد بن عبد الرحمن الصويان

فك الله أسره*

الشيخ الحاج عثمان دابو -رحمه الله- من جمهورية (جامبيا) في أقصى الغرب الإفريقي، تجاوز الثمانين من عمره، زرته في منزله المتواضع في قريته الصغيرة قرب العاصمة (بانجول)، وحدّثني عن رحلته الطويلة قبل خمسين عاماً إلى البيت العتيق، ماشياً على قدميه مع أربعة من صحبه من بانجول إلى مكة قاطعين قارة إفريقيا من غربها إلى شرقها، لم يركبوا فيها إلا مرات قليلة متقطعة على بعض الدواب، إلى أن وصلوا إلى البحر الأحمر ثم ركبوا السفينة إلى ميناء جدة.

---

* أحمد عبد الرحمن الصويان، فك الله أسره، مقال: إلى البيت العتيق، ١٤٤٤هـ، رابط إلكتروني: almoslim.net/node/82504.

رحلة مليئة بالعجائب والمواقف الغريبة التي لو دُوِّنت لكانت من أكثر كتب الرحلات إثارة وعبرة، استمرت الرحلة أكثر من سنتين، ينزلون أحياناً في بعض المدن للتكسب والراحة والتزود لنفقات الرحلة، ثم يواصلون المسير.

سألته: أليس حج البيت الحرام فرضاً على المستطيع، وأنتم في ذلك الوقت غير مستطيعين؟! قال: نعم، ولكننا تذاكرنا ذات يوم قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام عندما ذهب بأهله إلى وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، فقال أحدنا: نحن الآن شباب أقوياء أصحاء، فما عذرنا عند الله تعالى إن نحن قصَّرنا في المسير إلى بيته المحرم، خاصة أننا نظن أن الأيام لن تزيدنا إلا ضعفاً، فلماذا التأخير؟! فهيَّجنا واستحثنا على السفر مستعينين بالله تعالى.



خرج الخمسة من دُورهم، وليس معهم إلا قوتاً لا يكفيهم أكثر من أسبوع واحد فقط، والدافع الرئيس لذلك هو تحقيق أمر الله تعالى لهم بحج بيته العتيق، وأصابهم في طريقهم من المشقة والضيق والكرب ما الله به عليم، فكم من ليلة باتوا فيها على الجوع حتى كادوا أن يهلكوا؟! وكم من ليلة طاردتهم السباع وفارقهم لذيذ المنام؟! وكم من ليلة أحاط بهم الخوف من كل مكان، فقطاع الطرق يعرضون للمسافرين في كل واد؟!

رُب ليلٍ بكيت منه فلمَّا •• صرتُ في غيره بكيت عليه

قال الشيخ عثمان: لُدغت ذات ليلة في أثناء السفر، فأصابتني حمَّى شديدة وألم عظيم أقعدني وأسهرني، وشممت رائحة الموت تسري في عروقي:

وإني لأرعى النجم حتى كأنني .. على كل نجم في السماء رقيب

فكان أصحابي يذهبون للعمل، وكنت أمكث تحت ظل شجرة إلى أن يأتوا في آخر النهار، فكان الشيطان يوسوس في صدري: أمَا كان الأَوْلى أن تبقى في أرضك؟! لماذا تكلف نفسك ما لا تطيق؟! ألم يفرض الله الحج على المستطيع فقط؟!



فثقلت نفسي وكدت أضعف، فلما جاء أصحابي نظر أحدهم إلى وجهي وسألني عن حالي، فالتفت عنه ومسحت دمعة غلبتني، فكأنه أحس ما بي! فقال: قم فتوضأ وصلِّ، ولن تجد إلا خيراً بإذن الله ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]؛ فانشرح صدري، وأذهب الله عني الحزن ولله الحمد.

كان الشوق للوصول إلى الحرمين الشريفين يحدوهم في كل أحوالهم، ويخفف عليهم آلام السفر ومشاق الطريق ومخاطره، مات ثلاثة منهم في الطريق، كان آخرهم في عرض البحر، واللطيف أن وصيته لصاحبيه أن قال لهما: إذا وصلتما إلى المسجد الحرام فأخبرا الله تعالى شوقي للقائه، واسألاه أن يجمعني ووالدتي في الجنة مع النبي ﷺ!

قال الشيخ عثمان: لما مات صاحبنا الثالث نزلني همٌّ شديد وغمٌّ عظيم، وكان ذلك أشد ما لاقيت في رحلتي، فقد كان أكثرنا صبراً وقوة، وخشيت أن أموت قبل أن أنعم بالوصول إلى المسجد الحرام، فكنت أحسب الأيام والساعات على أحر من الجمر.

إذا برقت نحو الحجاز سحابة •• دعا الشوق مني برقها المتطامن

فلما وصلنا إلى جدة مرضت مرضاً شديداً وخشيت أن أموت قبل أن أصل إلى مكة المكرمة، فأوصيت صاحبي أنني إذا مت أن يكفنني في إحرامي، ويقربني قدر طاقته إلى مكة، لعل الله أن يضاعف لي الأجر، ويتقبلني في الصالحين.



فيوشك أن يحول الموت بيني •• وبين جوار بيتك والطوافِ

فكم من سائل لك رب رغباً •• ورهباً بين منتعل وحافي

أتاك الراغبون إليك شعثاً •• يسوقون المُقلَّدة الصَّوافي[1]

مكثنا في جدة أياماً، ثم واصلنا طريقنا إلى مكة، كانت أنفاسي تتسارع والبِشْر يملأ وجهي، والشوق يهزني ويشدني، إلى أن وصلنا إلى المسجد الحرام.

١. من شعر ابن شبرمة، انظر: أخبار مكة للفاكهي، (٢/٢٨٣).

وسكت الشيخ قليلاً.. وأخذ يكفكف عبراته وأقسَم بالله تعالى إنه لم ير لذة في حياته كتلك اللذة التي عمرت قلبه لمّا رأى الكعبة المشرفة! ثم قال: لما رأيت الكعبة سجدت لله شكراً، وأخذت أبكي من شدة الرهبة والهيبة كما يبكي الأطفال، فما أشرفه من بيت وأعظمه من مكان! ثم تذكرت أصحابي الذين لم يتيسر لهم الوصول إلى المسجد الحرام، فحمدت الله تعالى على نعمته وفضله عليّ، ثم سألته أن يكتب خطواتهم وألا يحرمهم الأجر، وأن يجمعنا بهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.



خرجت من بيت الشيخ وأنا أردد قول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. إقبال جاد على الطاعة، إقبال لا يعرض له التكاسل أو التسويف، إقبال تتساقط تحته العراقيل والعقبات.. إقبال بهمّة صادقة وعزيمة عالية تنبع من قلب متعلق بمحبة الله والامتثال لأمره.

خرجت وأنا أردد قول الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]. ثم تأمّلت في حال كثير من المسلمين في هذا العصر ممن تحققت فيهم الشروط الشرعية الموجبة لحج بيت الله الحرام ومع ذلك يُسوِّفون ويتباطؤون عن الحج! ألا فليتذكر أولئك قول النبي ﷺ: «من أراد الحج فليتعجل، فإنه قد يمرض المريض، وتضلّ الضالة، وتعرض الحاجة»[٢].

٢. أخرجه: أحمد، (٣/٣٣٢)، رقم (١٨٣٣، ١٨٤٣)، وابن ماجه، في كتاب المناسك، رقم (٢٨٨٣)، وحسنه الألباني في الإرواء، رقم (٩٩٠)، والأرناؤوط في تخريجه لمسند الإمام أحمد.



قصص بعض مسلمي الغرب

في الحج



د. محمد موسى الشريف

فك الله أسره*

قصص مسلمي الغرب تبعث في النفس الاعتزاز والفخر، وأن هذا الدين محفوظ بحفظ الله تعالى له وكفالته إياه.

وقصص مسلمي الغرب الأوائل الذين وردوا الديار الحجازية حاجين نادرة، فمن ذلك ما حدّث به أحد كفار الغربيين الذين دخلوا الحجاز وهم باقون على كفرهم، وهو جوزف بتس[1]، حدث عن حال أحد الأيرلنديين المسلمين الذين حسن إسلامهم فيقول:

---

* محمد موسى الشريف، قصص وطرائف من الحج في القرون السوالف، ط١ (الرياض: دار الأندلس الخضراء، ٢٠١٠م)، ص٢٠وما بعدها

١. هو شاب إنكليزي، كان قد أُسر في البحر الأبيض وهو فتى لا يتجاوز السابعة عشرة، ثم قسره سيده على الإسلام لكنه لم يسلم في باطنه، وأخذه معه إلى الحج.

«يحمل كل حاج مؤنة معه وكذلك ماءه وفراشه... إلخ، وعادة ما يجتمع كل ثلاثة أو أربعة معاً لتناول الطعام، ويدعون في بعض الأحيان أحد فقراء الحملة لتناول الطعام معهم، وكان يوجد إيرلندي مرتد[٢]، أخذوه صغيراً جداً لدرجة أنه لم يفقد دينه المسيحي فقط بل لغته الإنكليزية أيضاً، وهذا الرجل عانى من العبودية ثلاثين عاماً في إسبانيا وفي السفن الفرنسية، لكنه بعد ذلك تحرر وعاد للجزائر، وكان الناس ينظرون له كرجل صالح تقي متدين لأنه لم يترك العقيدة الإسلامية رغم تعرضه للغواية كي يتركها، وكان بعض جيراني الذين قصدوا للحج في العام نفسه الذي حججت فيه مع سيدي قد عرضوا على هذا الأيرلندي المرتد أن يتكفلوا بتكاليف حجه إن خدمهم أثناء الرحلة، فقبل العرض سعيداً. وأذكر أننا عندما وصلنا مكة المكرمة فقال لي بعاطفة جياشة: إن الله سبحانه نجّاه من جهنم على الأرض، ويقصد بهذا فترة عبوديته في إسبانيا وفرنسا، وأن الله سبحانه قد مكنه من الوصول إلى جنته على الأرض، ويقصد بهذا مكة المكرمة، وقد عجبت كثيراً لفرط حماسه وإيمانه، لكنني أشفقت عليه[٣]»[٤].

---

٢. يعني أنه مسلم.

٣. ينبغي أن يشفق هذا المسكين على نفسه أما ذلك العاقل فهو في سعادة ونعيم، إن شاء الله تعالى.

٤. رحلة جوزف بتس نقلاً من المختار من الرحلات الحجازية: ١/ ٣٤٧- ٣٤٨.

ويتحدث الدكتور محمد حسين هيكل[٥] رحمه الله تعالى، عن أحد المسلمين الغربيين من إيرلندا أيضاً، فيصف لقاءه به وحديثه معه، وهو حديث لطيف عندما حج سنة ١٩٣٦:


محمد حسين هيكل

خرجت من قبتي أتعرّف ما حولي، وأشهد صنيع الناس يومهم هذا وقد جاؤوا إلى الله حاجين متجردين، وإني لأتلفت يمنة ويسرة إذ وقع بصري على رجل لا شيء في سيماه يدل على أنه من أبناء الشرق، بل هو أدنى إلى أن يكون من أبناء الشمال في أوروبا بطول قامته النحيفة وببشرته البيضاء المشربة حمرة وعينيه الزرقاوين وشعره الأصفر، وأخبرني بعض أهل مكة ممن حوله أنه هولندي يقيم بجاوة، وأنه جاء يؤدي فريضته، ودلفت إليه وألقيت عليه التحية بالفرنسية، وتحدثت إليه بها، فدلتني لهجته على أنه ليس من أهل هذه اللغة وأن أغلب أمره أن يكون إنكليزياً، وسألته عن جنسيته فعلمت أنه إيرلندي وأنه أسلم من سنوات خمس، وأنه جاء ليؤدي الفريضة فأقام بجدة سبعة أسابيع حتى أيقن رجال الحكومة العربية من حسن إسلامه وسمحوا له بما يسمح للمسلمين دون غيرهم من دخول مكة ومن أداء فروض الحج ومناسكه.

---

٥. محمد بن حسين بن سالم هيكل، ولد في قرية كفر غنام بالدقهلية بمصر سنة ١٣٠٥. كاتب، صحفي ، مؤرخ، من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة. تخرج في مدرسة الحقوق بالقاهرة، حصل على الدكتوراه في الحقوق من السربون بفرنسا، تقلب في المناصب الصحفية والحكومية حتى صار وزيراً للمعارف ثم رأس مجلس الشيوخ، توفي بالقاهرة سنة ١٣٧٦ رحمه الله تعالى. انظر الأعلام: ١٠٧/٦.

واتصل بيني وبينه بالانكليزية حديث طويل، ومع ذلك لم تطاوعني نفسي على سؤاله عن سبب إسلامه، وعلى رغم ذلك أخبرني أنه في إقامته بسرواك[٦] بين المسلمين أكثر من خمس عشرة سنة لم تطب نفسه بما دون التعمق في درس حالتهم الاجتماعية والأخلاقية، والبحث -بوصف كونه إيرلندياً- عن الأسباب التي أدت بهم إلى الخضوع لغيرهم، وكانت عقيدتهم الدينية بعض ما عُني بدراسته، ولم يلبث حين بدأ هذه الدراسة أن شعر بحافز قوي يحفزه للإمعان فيها ولقراءة ما كتب في اللغات المختلفة عنها وللتزيد من ذلك ولطول التفكير فيه، ولقد أخذت بساطة العقيدة الإسلامية بمجامع قلبه، ووصلت من تفكيره إلى أعماقه وجعلته يؤمن بحقيقة هذا الدين الذي نزل على النبي العربي، وبحضارة الأخوة والإباء التي يدعو إليها.

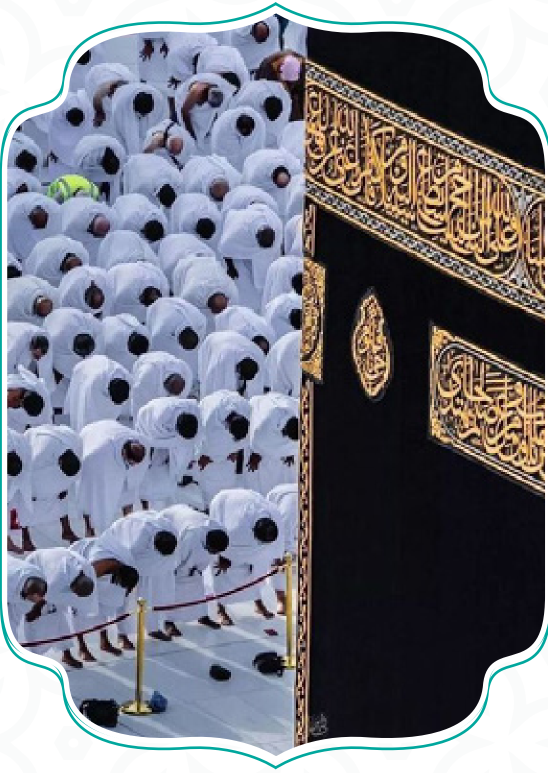


ويؤمن بأن الحضارة التي تنشر أوروبا لواءها في العالم باسم العلم ليست من العلم في شيء، وإنما هي اللعنة التي صبها الله على العالم، فهذه الحضارة تتلخص عنده في إخراج الناس من بساطتهم الفطرية التي تكفل لهم سلامة التفكير وسمو الغاية، ليخضعوا لأهوائهم وشهواتهم المادية فتضعف نفوسهم ويذلّوا، وأية صلة بين سعادة الرجل والمرأة وبين منسوجات (لانكشير) أو حرائر (ليون) أو عطور (باريس) أو ما إلى ذلك

---

٦. سرواك في ماليزيا.

من مواد الزينة والترف، وهذه مع ذلك هي مظاهر الحضارة الأوروبية وهي السبب الحقيقي الذي تغزو أوروبا العالم من أجله، إنما الصلة الحقيقية بين هذه المنسوجات والحرائر والعطور وبين الأموال التي تريد أوروبا استنزافها من الشعوب، هي إقناعها كذباً بأن الحضارة في الرداء والترف والزينة.



أما الإسلام فيدعو إلى معنى هو أسمى المعاني، إلى نبذ كل عبودية لغير الله، وإلى الاستهانة بالموت في سبيل الله، وإلى البر والتقوى، وهو يدعو إلى ذلك كله في بساطة وقوة لا حاجة بهما إلى منسوجات أو حرائر أو عطور، ولو أن المسلمين أدركوا سر الإسلام إدراكاً عميقاً لهان عندهم ما يعرضه الغرب عليهم ولما خضعوا لحكم الغرب ولا ذلّوا لسلطانه، فدينهم يربأ بمن يؤمن به عن الخضوع لغير الله، ويجعل الموت في سبيل التخلص من هذا الخضوع موتاً في سبيل الله، يُجْزَى صاحبه الجزاء الأوفى.

وأعجبت بحديث صاحبي أيما إعجاب لأنه صادف موضع العقيدة مني، فسألته عما جاء به إلى الحجاز وعن رأيه في حكمة الحج، وكان من جوابه على سؤالي كحديثه الأول حصافة ودقة، قال: إنما فرض الإسلام الحج ليُشهد المسلمُ الله على نفسه أمام ملأ إخوانه المؤمنين جميعاً أنه نبذ ما اختلط بحياته قبل الحج من ذنوب وأوزار والله يغفر له ما صدق التوبة، ليُولَدَ ميلاداً روحياً جديداً يكون بعده خيراً مما كان قبله من علم وبصيرة.



وخشينا أثر الشمس فصرنا نقصد مضاربنا، ولم نبتعد إلا خطوات وإذا صاحبي يدعوني أن أدخل معه إلى خيمته لنشرب فنجاناً من الشاي معاً فدخلت الخيمة معه، فألفيت بها سريرين جعلهما مضجعاً له ولزوجه، وزوجه امرأة مسلمة من أهل سرواك، عرفها وأحبها، فلما أسلم تزوجها وجاء بها تؤدي فريضة الحج معه.

وعدنا إلى حديث طويل تكلم أثناءه صاحبي عن المسلمين وعدم إدراكهم قوتهم العظيمة بسبب ما تخدعهم به مزاعم الغرب، فهؤلاء المسلمون يزيدون في آسيا وحدها على مائتي مليون، ولو أنهم أدركوا مبلغ قوتهم وأدركوا قيمة حياتهم الروحية وعظمتها لاستطاعوا تجديد نشاط الإنسانية، لكنهم متروكون إلى جهالتهم ليسهل خداعهم واستغلالهم، قانعين لذلك بضعفهم وراضين عن هوانهم[٧].

---

٧. في منزل الوحي نقلاً عن المختار من الرحلات الحجازية: ٣/ ١١٥٨- ١١٦١.

تربويات الحج الغائبة



الشيخ د. محمود شعبان

فكّ الله أسره*

الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلق الله، وبعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: **١٩٦**]

وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾ [آل عمران: **٩٧**].

(حج) بكسر الحاء وفتحها كلاهما صحيح.

---

* المقال مقتبس من خطبة الجمعة للدكتور محمود شعبان والتي بعنوان: رحلة إلى الله، منشورة في: ٢٠١٢م، موقع (يوتيوب).

والذي استوقفني -خلاف ما استوقف الفقهاء من استنباط الفرْضية- قول الله عز وجل ﴿لِلَّهِ﴾، أي: تحج لله، لا لتحصل لقباً ولا لتحصل منفعة، ولا لتأتي بقامة جديدة تخاطب الخلق بها؛ بل «لله».

وفي الثانية بدأ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، الأولى إخبار بالفرْضية وتذكير لك أنك تخرج حاجاً لله، والثانية: «ولله»، بدأ بالتخصيص، أي يلزمك أن تخصص الحج لله، أن يكون قلبك متوجهاً بمناسكك لله، وإياك أن يُشرَك اللهَ في قلبك شيءُ، لذا قالوا: يجب على المستطيع ويلزمه أن يعلم مطلوبه، ما مطلوبه؟ غفران الذنوب لا غير، كما قال رسول الله ﷺ:



«من حج لله فلم يَرفُث، ولم يَفسُق، رجع كيوم ولدته أمه».

فمطلوب الحاج الذي خرج لله أن يغفر الله سبحانه وتعالى له، هذا أعظم مطلوب، وهذا الذي من أجله تتألم القلوب، لذا قال العلماء: أول ما تبدأ به في الحج توبة واستغفار ورد مظالم وبحث عن مال حلال، تبدأ حياة جديدة ملؤها الطاعة، وتدير ظهرك لحياة قديمة ملؤها الاستهانة والاستكانة، فإن أردت المغفرة التي كتبها الله تبارك وتعالى للحجاج فلتبدأ بالتوبة والاستغفار ورد المظالم، والاستقامة على المنهج. هذا هو الحاج.

وأنت هنا تستطيع ذلك، تستطيع أن تتوب إلى الله وتستغفر، وأن تشغل يومك من ألفه إلى يائه بطاعة الله عز وجل، فالتوبة ميسورة للحاج، مقدمة لحجه، والتوبة ميسورة لك مقدمة لاستقامتك على منهج الله.

ثم بعد هذا، يبدأ الحاج مناسك الحج، أول شيء: الإحرام من الميقات، وفي الإحرام درس، وفي الميقات درس، نحن اليوم نتحدث عن تربويات الحج الغائبة، لا عن أحكامه المعلومة للكل، أما درس الإحرام فعجيب غريب، تلبس ملابس الإحرام التي إن حققت ودققت النظر فيها، وجدت ثوبين أبيضين رخيصين، هما كفنك، ويسبق لبسك للإحرام غسْل، والميت يسبق لبسه للكفن تغسيله، الميت يموت نغسله ثم نكفنه، وأنت تغتسل، وأنت تغتسل سُنة وليس فرضاً، ثم تلبس ملابس الإحرام التي هي كفنك.

الميت أول أبواب الآخرة عنده غسل ثم كفن، وأنت أول الحج عندك غسل ثم إحرام، هو يشبه الكفن، فكأنك في الحج في رحلة إلى الآخرة لا شائبة دنيا فيها، تخلّص قلبك لله عزّ وجلّ، كما أن الميت يرحل للقاء الله، لكن مَن في الدنيا مثلك؟ أنت ترحل إلى ربك حاجاً تحمل كفنك على جسدك، في دنيا الناس مَن يحمل كفنه على يديه؟



قالوا: القاتل الظالم يحمل كفنه على يديه، ويرحل إلى آل القتيل ذليلاً يطلب منهم العفو لتسلم له حياته، وأنت أيها الحاج قتلت نفسك بالذنوب، رحلت إلى علام الغيوب حاملاً كفنك على جسدك ذليلاً تطلب منه العفو والمغفرة لتسلم لك آخرتك، فالفارق بينك وبينه أنه يبحث عن سلامة دنياه، وأنت أيها الحاج تبحث عن سلامة أخراك، فلتُخرج الدنيا من قلبك، ولتُخرج الرياء والنفاق، ولتُخرج حظ الناس وحظ النفس من قلبك، ليخلص قلبك بالعبادة لله.. هذا هو الحاج.

وأنت أيها المسلم الذي لم يكتب لك الحج حساً، تستطيع أن تتوب وتستغفر، وأن تؤوب إلى ربك أوبة ذليل، وأن تحمل كفنك على يديك معنوياً، ترحل ذليلاً بذلة حقيقية، ذلة العبد للرب التي هي قمة الشرف، وتستقيم على منهجه، وتعاهده على عدم العودة إلى أي معصية أو شائبة معصية، وأمامك باب غفران كبير، أمامك حديث رسول الله ﷺ في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عباس:

«ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء»».



هذا باب عظيم لم تلتفت إليه، نسمع الحديث كل عام من الدعاة بل يكاد يحفظه العوام، ولا يلقى صدىً في القلوب، ولا يؤثر في السلوكيات.

مَن نوى صيام التسع؟ مَن نوى قيام العشر؟ مَن أكثر مِن قراءة القرآن في العشر؟ مَن أكثر مِن الصدقات في العشر؟ مَن بحث عن صلة الرحم و بر الوالدين في العشر؟ مَن أعدّ نفسه للأضحية غنياً كان أو متوسطاً؟ مَن تذكر أُخوّة الإسلام وتذكّر قبله إخوته الفقراء من غالب الأنام؟

فرصة عظيمة أن تؤوب إلى ربك وتستقيم على منهجه، وتعاهده على عدم العودة إلى أي معصية أو شائبة معصية، فأمامك باب غفران كبير.

الفقير الذي أنفق
(مليون ريال) في الحج!



الشيخ إبراهيم الفارس
فك الله أسره*

أيها الأحبة! عندما نتحدث عن النفقة والإنفاق لا بد لنا من وقفات موجزة ومختصرة عن بعض آداب الإنفاق؛ فهناك عدد كثير من الآداب لكن لعلي أشير إلى أربعة منها بحسب ما يسمح به المقام، فأقول:

للإنفاق آداب كثيرة ومتعددة، ومن أبرزها وعلى رأسها:

* المقال منتقى من محاضرة: عطاؤنا لمن؟ ضمن: دروس للشيخ إبراهيم الفارس، فك الله أسره، وهي محاضرات صوتية فرّغها موقع الشبكة الإسلامية.

أولاً: الإخلاص في النفقة

والابتعاد عن الرياء والسمعة ونحوها، فإذا أنفق على الفقراء أو المساكين، أو أسهم في مشاريع الخير وأعمال البر وسنابل العطاء، يريد بذلك الأجر والثواب من الله عز وجل لا الرياء والسمعة، فله ذلك، ومن أنفق رياءً وسمعة أخذ حظه من ثناء الناس في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب، ولقد صحّ عن المصطفى ﷺ في أول مَن يُقضى عليه من الناس يوم القيامة، ومنهم:

رجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرّفه نِعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن ينفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لكَ. قال: كذبتَ! ولكنك فعلت ليقال: هو جواد. فقد قيل! (فقد قيل ونُشر في الصحف والمجلات والمنتديات والجرائد وفي كل مكان: فلان فعل كذا، وفلان أنفق، وفلان أعطى للشهرة، للبروز، للظهور) فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه، ثم أُلقي في النار.



الأدب الثاني: عدم المن والأذى

وهذا يتفق مع ما فطر الله تعالى النفس الإنسانية عليه من الكرامة والعزة؛ لأن المانّ بنفقته يخدش كرامة النفوس الكريمة، ويجرح مشاعرها، ويستغلها بمنته، بل ويشعرها بالصَّغار والهوان، ومن

هنا جعل الله تعالى الصدقات المقرونة بالمنّ والأذى غير مقبولة، وما أكثر ما تقترن صدقاتنا بالمن والأذى، إما من بعيد أو من قريب، يقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]



الأدب الثالث: الإنفاق من المال الطيب

لأن الله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، فقد أمر سبحانه بالإنفاق من الطيب المحبوب للنفس، يقول الباري سبحانه آمراً عباده بالإنفاق من الطيبات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]

والبر والأجر إنما ينال بالإنفاق من الطيب المحبوب، يقول الباري سبحانه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٩٢]

الأدب الرابع: الاعتدال في الإنفاق

فلا يتعالى المنفق فيه فيبذر ويسرف، ولا يقصر فيشح ويمسك، والاعتدال في النفقة صفة من صفات عباد الرحمن، إذ قال فيهم جل شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]



أخي الكريم! ما أجمل أن تسمو مشاعر المتصدق، فيحس أن حاجته للفقير ليتصدق عليه أشد من حاجة الفقير إليه؛ وذلك أنه أشد حاجة إلى الحسنات والثواب في الآخرة من حاجة الفقير إلى المال الفاني والعرض الزائل، ولهذا فعليه أن يسعى هو إلى الفقير ولا ينتظر منه شكراً وثناءً، بل عليه أن يشكر الفقير الذي أتاح له فرصة تحصيل زاد ينفعه في الآخرة، وما أجمل شعور المتصدق عندما يكون سبباً في مسح دمعة يتيم، أو تخفيف لوعة مكروب، أو سد جوعة فقير معدم. أحسِن إلى الناس تستعبد قلوبهم، فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ.

أحسن إذا كان إمكاناً ومقدرة •• فلن يدوم على الإحسان إمكان

الفقير الذي أنفق مليون ريال في الحج

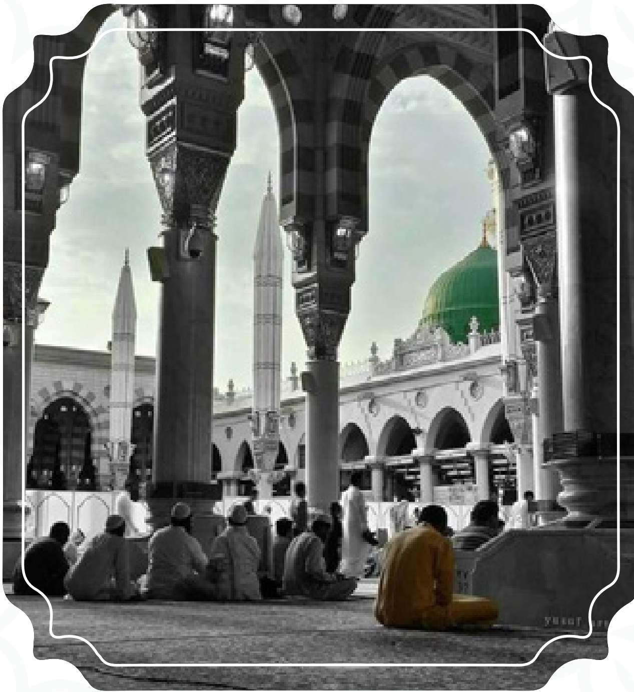
في أحد الأيام كان هناك شخص يجلس مع مجموعة زملائه، ويتدارس معهم أوضاع الذين يأتون إلى الحج من البلاد المختلفة، فقال: إن هؤلاء سيأتون إلى الحج ومنهم مَن يحمل البدع والخرافات، بل بعضهم

يحمل الشركيات، فما دورنا في تصحيح مسار هؤلاء؟! إنهم يأتوننا ويبقون لدينا فترة من الزمن ويؤدون حجهم ثم يعودون، وليس هناك أي تصحيح لمسارات الانحراف المختلفة التي يحملونها والتي جاءوا بها من بلادهم، فلماذا لا نسعى إلى التصحيح؟! لماذا لا نختار شريحة معينة، هذه الشريحة هي شريحة البلاد العربية؟

ثم طرح فكرة وقال: لماذا لا نعطي هدية تحتوي مظروفاً فيه أمور تهم هذا الإنسان القادم للحج، ونحاول أن نصحح هذه الانحرافات الموجودة لديه؟

فقال الإخوة الذين كانوا معه: لا مانع، هذا أمر مستحسن، لكن كيف العمل؟

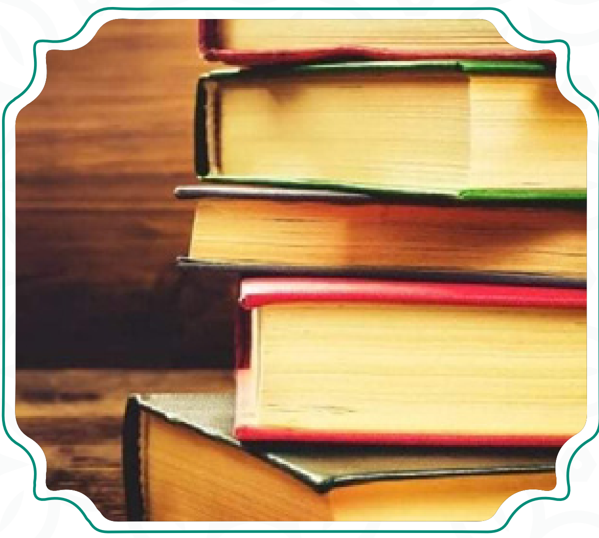
فأعطاهم الخطة وهي كما يلي: مظروف يحتوي على كُتيبين اثنين وشريطين، ويكلف هذا كله ما يقارب عشرة ريالات، وبعد ذلك نريد أن نوزع مائة ألف مظروف، أي بمليون ريال، فقالوا له: ممتاز جداً، ولكننا نعرف أنك لا تملك ريالاً واحداً! قال: نعم -وهو لا يملك شيئاً أبداً- ولكننا نستعين بالله سبحانه وتعالى ونبدأ المشروع!



والذين التقوا معه هم ثلاثة وهو الرابع، فاتفقوا على توزيع العمل وانتقاء الكُتيبات والأشرطة، وأن كل واحد ينتقي مجموعة كتيبات وأشرطة ثم يتدارسونها، كان الوقت ضيقاً ولم يبقَ على الحج إلا ما يقارب أربعين يوماً فقط لا غير، وكانت العملية تحتاج إلى جهد وبذل ومسارعة، فاتفقوا على أحد الكتيبات، واتفقوا على شريطين.

فهذا الرجل الذي طرح الفكرة ذهب إلى مطبعة معروفة ومشهورة وعرض عليهم طبع الكتاب، فقال: أريد منه مائة ألف نسخة! قالوا: لا مانع ولكن لا بد أن تأتي لنا بإذن من المؤلف!

والمؤلف يسكن في منطقة تبعد عن الرياض مسافة خمسمائة وخمسين كيلو متراً تقريباً، وكان يحدثهم قريب الظهر تقريباً، فقال: لا مانع سآتي بالإذن. فشغل سيارته وانطلق إلى المنطقة التي ذكرت مسافتها، ثم وقف على باب ذلك الرجل وطرق عليه بابه، لم يكن هناك اتصالات بالجوال، فقال له: أريد منك كذا وكذا، قال: تفضل ادخل، قال: لا، الوقت لا يسمح، يقول: والله لقد أخرج لي الورقة بالإذن وأعطانيها وأنا واقف أمام بابه، ثم أخذت الورقة وعدتُ من حيث أتيت، وكان سفره بحدود أربع ساعات ذهاباً، وأربع ساعات عودة.



ثم ذهب إلى المطبعة وأعطاهم هذا الإذن بعد صلاة العصر، ثم بعد ذلك ذهب إلى التسجيلات، وهو رجل واحد، ومر على هذه وتلك والثالثة والرابعة، وكل منهم يقول: لا نستطيع أن نطبع لكم مائة ألف نسخة، مستحيل! ذلك لا يمكن لأن لدينا ارتباطات والتزامات متعلقة بالحج، قال لهم: إذَن أوزع العمل، فكم أكبر قدر تستطيعون طبعه؟ فالذي يقول: نطبع عشرين ألفاً، والذي يقول: ثلاثين ألفاً، والذي يقول: أربعين ألفاً، والذي يقول: عشرة آلاف، والذي يقول: خمسة آلاف، فبدأ يسجلها إلى أن اكتمل رصيدها.

ثم بعد ذلك بقيت إشكالية أن الكثير من الخرافات والبدع الموجودة عند هؤلاء القوم الذين قدِموا من خارج هذه البلاد المباركة، لا يوجد كتاب يعالج كل هذه القضايا، فقال: نؤلف كتاباً، ولم يبقَ على المدة إلا أقل من أربعين يوماً، قالوا: لا يمكن هذا، قال: نبدأ!

وفعلاً ألّف الكتّاب في عجلة، وخرج كتيب يشتمل على مجموعة فتاوى تطرق كل الأمور المنحرفة الموجودة في تلكم البلاد.

ثم بعد ذلك بدأ التغليف، وجاء بمجموعة كبيرة من الشباب للقيام بمشروع التغليف، ثم جعلها في استراحة وبدأ العمل، وإذا به يملأ ثلاث (تريلّات بمائة ألف مظروف، انطلقت هذه)التريلات) إلى مكة، ولكنها مُنعت من الدخول؛ لأنها لا تحمل تصريحاً، والتصريح هنا لابد أن يكون في الوقت المفتوح، فقالوا له: لو كانت مواداً غذائية ممكن ولو كنت أتيت بتصريح مسبق فلا يوجد مانع.

فكان ذلك خيراً، فانطلقت واحدة من (التريلات) إلى مطار المدينة، والثانية انطلقت إلى مطار جدة، وهذا كان أفضل وأعظم أثراً؛ لأن الحاج عندما يقدم ويُعطَى المظروف، قد يكون أثره ضعيفاً؛ لأنه مقدم على شيء مهم، فقد يرمي المظروف أو ينساه، لكن الآن انتهى من كل شيء، فسيأخذ المظروف ويأخذه في حقيبته، وربما يقرأ في الطائرة المتجهة به إلى بلاده، فوزعت كل هذه المظاريف على هؤلاء الحجاج.

حسناً! لقد كان العمل كله دائراً على رجل واحد، وقد قابله أحد هؤلاء الأشخاص وقال له بعد فترة من الزمن: تُرى، هل سددت المبلغ الذي عليك؟ قال: سددت نصفه، أي: نصف مليون، والله سبحانه وتعالى سيعين على تسديد الباقي.

هذا رجل واحد انظروا كيف نفع الله به؟ وماذا فعل؟ وزع مائة ألف مظروف على مائة ألف أسرة، وربما كل أسرة تفيد غيرها من الأسر. إذن صورة عظيمة من صور العطاء تجعلنا فعلاً نحتقر أنفسنا عندما لا نقدم إلا النزر اليسير والشيء القليل.

أنصار النبي ﷺ

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾



رئيس الهيئة

د. محمد الصغير

رئيس التحرير

محمد إلهامي